مجلة مجمع اللغة العربية الأردني

العدد ٧٨

سلامة اللغة العربية
وأثرها في المناهج المدرسية

أ.د. زهير غازي زاهد

جامعة بغداد

حديثي هنا في الوسائل التي تحقّق الأمن للعربية، فهو حاجتها كحاجتها إلى الأمن الاقتصادي والأمن السياسي والأمن الغذائي، وتحتاجه ليعيد إليها نشاطها وحيويتها كما كانت في عصور من تاريخها، وقد توافرت الوسائل التي لو أُحسن استعمالها بوعي وحرص على مستقبل هذه الأمة لأمكننا أن نحصل على النتائج المنشودة، ولخفّفنا من ثقل هذا اليأس الذي أخذ يمتدّ إلى آفاقنا، ونجلبه أحياناً بقصر النظر في تقدير الأحداث ونتائجها، وأحياناً بجاذبية الأطماع والمكاسب الفردية المؤقَّتة والسلطوية مهما طال أمدها، فيكون أثرها الجماعي الضّار أوسع وأقسى من فائدتها.

أ- السياسة اللغوية الموحدة:

لقد أخفق العرب في مرحلتنا المعاصرة، ونحن في بداية القرن الواحد والعشرين، في أن يحقِّقوا الوحدة في المجال السياسي والاقتصادي أو حتى الموقف من القضايا المصيرية، فينبغي لهم -في الأقل- أن يجدّوا في الحفاظ على وحدة لسانهم بلغتهم الفصيحة، وقد صارت اللغة أهم مقوّم من مقوّمات الدولة الحديثة، فهذه البلبلة اللسانية في الوطن العربي والفوضى في استخدام اللغة – في أخطر أماكنها التعليم والتعلّم، ثم وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية- تحتّمان الوقفةَ الجادّة من علماء اللغة والمثقفين والمؤسسات على اختلافها أن

تكون واعية للخطر المرعب الذي يجتاح وطننا وألسنتنا. فمن القرن الماضي والمخطّطات تتوالى لاحتلال أوطاننا ثم احتلال رؤوسنا وقلوبنا، وجعلنا أسواقاً استهلاكية اقتصادياً وثقافياً وعلمياً، نتلقّى ولا نُبادر، نستهلك ولا نُنتج.

ينبغي للتّخطيط اللغوي أن يكون على نطاق الجامعة العربية ومؤسساتها بمساعدة المؤسسات اللغوية والجامعات، والتّخطيط اللغوي ينبغي أن يكون شاملاً لا جزئياً، يكون في مجال التعليم على اختلاف مراحله، ثم على نطاق الإعلام ووسائله، ثم على نطاق الإدارة وأجهزتها، ثم على نطاق الجامعات والتعليم العالي، ثم على نطاق اتّحادات الأدباء والمعلمين والنقابات المختلفة... هذا التخطيط يشرف عليه علماء قديرون يعملون بروح الإيثار، لا التحيز إلى أي شكل من أشكال الفرقة التي تنخر الأمم وتفرّقها؛ لأن الخطر لا يفرّق بين قطر وقطر ولا بين طائفة وطائفة، إنما الجميع تحت حدِّ السيف سواء، وقوة الأمة ورفعتها فخر للجميع. ولا يفوتني أن أذكر صدور قوانين أو قرارات في أقطار عربية دعت إلى العمل على سلامة العربية كقانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية رقم (٧٤) الصادر في العراق سنة ١٩٧٧، وما صدر من قرارات بهذا الخصوص في تونس وليبيا، وقانون التعريب في الجزائر الذي حدّد بومدين رئيس الجزائر سنة ١٩٧٠ نهاية لتطبيقه، وما زال يواجه المصاعب والعثرات.

إن كل هذه القوانين واللوائح طيبة ومسؤولة لكنها تبقى جزئية من جهة ومقصورة على ذلك القطر من جهة أخرى، ثم هي محدودة التنفيذ لحاجتها إلى الوسائل المناسبة لتطبيقها تطبيقاً شاملاً، هذا إذا لم تكن الأحداث قد غطّت عليها ونسيتها. يبقى التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية الموحّدة في عموم الوطن العربي هما الغاية المنشودة. فالتخطيط اللغوي لا يتحقّق الغرض المنشود منه إذا لم تسِر اللغة وإصلاحها والجهود في ذلك سيراً متوازياً في كل مجالات الحياة العلمية

والأدبية واليومية، وعلى جميع مجالات ممارستها في وسائل النشر وقاعات الدرس والبيت والسوق ومكاتب الدوائر الرسمية... الخ. "والتجارب الأوروبية في دعم اللغة الوطنية داخل الدولة من خلال التعليم والإعلام والإدارة ثم في الحياة اليومية تُعدّ نماذج جادَّة في هذا الاتجاه"[١].

لقد كانت صور من التعاون بين المجامع اللغوية، وكانت بداية للاهتمام بالتخطيط اللغوي على المستوى العربي والإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية في أثناء عمل المعجم العسكري العربي الموحّد، واتخذت شكلاً محدّداً بإنشاء مكتب تنسيق التعريب، لكن هذه البدايات لم تتّسع ولم تتّخذ الخطة اللغوية الشاملة، ثم كان تفكير في وضع خطّة لغوية شاملة في الفترة القصيرة من عمر اتّحادات الجمهوريات العربية ١٩٧٣، وقد اقترحت مصر وضع مخطط تُلزم به الأقطار العربية وفي مقدمتها دول الاتّحاد لنشر الفصيحة السهلة الميسّرة وتعميم استعمالها. وقد تناول التّخطيط استعمال الفصيحة في المؤسسات التعليمية والثقافية ومؤسسات الاتصال الجماهيري والسينما والمسرح والندوات والمحاضرات... الخ، ولكن التَّخطيط لا يقتصر على النوايا الحسنة، ولا هو أمل أو رغبة أو قرار سياسي أو صياغة مقترحات ووضع مصطلحات فقط. ولا "قيمة للمصطلحات إذا لم تُستخدم في المجالات التي أُعدَّت لها، وفي الوقت نفسه ينبغي أن تكون التّوعية اللغوية مكوّنة للمناخ المناسب لتلقي هذه المصطلحات..."[٢].

نحن إذ ندعو للتّخطيط اللغوي لنشر العربية سليمة على ألسن الناطقين بها، لا نقصد الوقوف في وجه تعلّم اللغات الحية، فإن إلمام المثقف العربي بلغة حية

---

١. البحث اللغوي ١٢٤.

٢. الأسس اللغوية لعلم المصطلح ١٩٧، ١٩٨.

أو أكثر صار ذا أهمية كبيرة في هذا العصر الذي تتسارع فيه خطى العلم والأدب في مختلف مجالاتهما، إنما نريد المحافظة على وحدة العربية وفصاحتها على ألسن الناطقين بها باعتبارها لغة عقيدة وحضارة واسعة والعمل على تطويرها بالوسائل الحضارية.

لقد أصبح التفكير بالسياسة اللغوية الموحّدة والتّخطيط اللغوي واضحاً في مؤتمرات الأطباء والجامعيين والندوات واجتماعات الخبراء التي تُعقد على مستوى الوطن العربي، وصدور التوصيات والمقررات في قضية تعريب التعليم، واستعمال العربية في مجالات الحياة العامة ووسائل الاتصال والجامعات والمعاهد، ولكن لم يكن هناك آليات واهتمام كاف وراء هذه المقررات لتنفيذها أو لتنفيذ الكثير منها؛ لانعدام التخطيط اللغوي الشامل وغياب وسائل التنفيذ.

ب- العمل الجادّ لتعريب التعليم والعلوم المختلفة وتدريسها في مراحل التعليم قبل الجامعة ثم المراحل العليا: فقد صلحت العربية في العصور الماضية لاستيعاب التغيير والجديد فيها، ففي العصر الإسلامي استوعبت التغييرات الجديدة في المجتمع والفكر والعقيدة، ثم امتدّت إلى أمم أخرى تقبلتها وتعلمتها راضية، وفي العصر الأموي صلحت لتعريب الدواوين وتنظيم الإدارة وقضايا المجتمع عامة، وقد أفادت من تجارب الأمم الأخرى الرومية والفارسية والهندية، ولم نسمع أحداً دعا إلى الأخذ بلغة إمبراطورية في ذلك العهد، وفي العصر العباسي نجد العربية تتّسع لكل المستجدّات من العلوم والفلسفة والأدب وظهور المصطلحات المعرَّبة أو العربية عن طريق الاشتقاق أو القياس أو التعريب أو النحت أو الاقتراض بعد ترويضها وجعلها منسجمة مع نظام العربية، وظهرت كذلك الأساليب الجديدة في الاستعمال على ألسن الشعراء وأقلام الكتَّاب والخطباء.

وفي العصر الحديث "لنا خير شاهد في تدريس علوم الطب والكيمياء والرياضيات الحديثة والفيزياء والجيولوجيا وعلوم الذرة والفضاء والطب النووي والصناعات الكيماوية والهندسة وعمليات القلب المفتوح وغيرها في جامعات القطر السوري والكليات العسكرية، وقد تمّ ذلك كله- ويتم- بلغة عربية خالصة لم تقلل من شأن أي متخصص في هذه العلوم... بالقياس إلى زميله في جامعة عربية أخرى، درس تلك العلوم بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو أية لغة أخرى صلحت لأن تكون مؤهلة لاستيعاب العصر"[٣]، كما أنّ لنا مثالاً في اللغات المحدودة نسبة إلى العربية تُدرّس بها العلوم المختلفة في مدارسها وجامعاتها وتستخدمها في كل جوانب حياتها، كما هو في بولندا والمجر والدانمارك ورومانيا والسويد والنرويج وبلغاريا...[٤]، وقد أثبتت التجارب العلمية أن تعليم العلوم باللغة القومية أكثر فائدة من تعليمها بلغة أخرى. فقد أجرت الجامعة الأمريكية في بيروت أواسط الستينيات تجربة، فكان الآتي: "مجموعتان من الطلاب تلقّت الأولى دروسها في مادة علمية معينة باللغة الإنجليزية، وتلقّت الثانية دروس المادة نفسها باللغة العربية، ثم أدّت المجموعتان الامتحان في تلك المادة المدروسة، فكانت النتيجة أنّ الأولى قد استوعبت نحو ٦٠% من المادة بينما بلغت نسبة استيعاب الثانية من المادة نفسها نحو ٧٦%، ولما أُعيدت التجربة بالقراءة حيث طُلب من

٣. اللغة العربية وعلوم العصر – د. مسعود بوبو – مقال في مجلة الفكر العربي العدد ٦٠ سنة ١٩٩٠ ص٦٤.

٤ . الأسس اللغوية لعلم المصطلح – حجازي ١٨٩- ١٩٢.

المجموعتين قراءة نصوص مكتوبة، ثم أُختبرت المجموعتان لمعرفة استيعاب المادة المقروءة، فكانت النتائج مقاربة لنتائج التجربة الأولى التحريرية"[٥].

فالعربية غير قاصرة في استيعاب العلوم وحضارة العصر كما ذكرت سابقاً، إنما القاصر عن التقدّم هم أهلها والناطقون بها.

ج- المصطلح- وضعه وتوحيده:

للمصطلح أهمية كبرى في حياة اللغات، وتوحيده في الاستعمال يزيده أهمية ويضعف من البلبلة اللسانية في الاستعمال ثم الفهم على نطاق الدلالة، ولا يتحقّق هذا إلاّ من خلال التخطيط اللغوي وقرار السياسة اللغوية الموحدة على نطاق الوطن العربي، كما هو معمول به في لغات متقدِّمة كالفرنسية حيث تكون "جمعية التنميط اللغوي الفرنسية (AFNOR) تقوم بوضع المصطلحات وتوحيدها"[٦].

إن انعدام التخطيط في الوطن العربي انعكس على الاستعمال اللغوي للمصطلحات الحديثة خاصة؛ لذا نلاحظ الفوضى المصطلحية – إن صحّ التعبير – تعمّ العربية في أقطارها العربية، فتكثر التسميات للمسمّى الواحد، ويحدث الاختلاط، وأذكر مثالاً لذلك: علم اللغة وفقه اللغة واللسانيات والألسنية تستعمل في كثير من الأحيان لدلالة واحدة، وكذا الهيكلية والبنيوية والبنائية، وخذ أيضاً: المصطلحات الموضوعة أو المعرّبة في مجال اللغة والأدب والنقد الأدبي والعلوم على اختلافها، فضلاً عن المصطلحات في ألقاب الشهادات العلمية الجامعية والعليا. كل ذلك ناتج عن غياب التخطيط، وكثيراً ما ارتفعت دعوات من اللغويين في الشام والعراق ومصر والمغرب العربي؛ لأن يعهد أمر المصطلح

٥. مقال: متى تصبح الفصحى لغة التعليم العالي- د. هاشم الشريف- مجلة كلية التربية بطرابلس العدد ٢١ سنة ١٩٩٦.

٦. أعمال مجمع اللغة العربية ٥٤٥ هامش ١٧.

إلى لجان متخصّصة تنبثق من المجامع والمؤسسات اللغوية بالتعاون مع مكتب التنسيق بعد الاتفاق على مناهج وضع المصطلح أو تعريبه ثم إشاعته، لتكون النتائج مثمرة لغوياً في كمية المصطلحات المنتجة ودلالتها الموحدة، ثم نوعها المناسب للاستعمال[٧]؛ لتفي بحاجات التدريس والتأليف والبحث. فاستعمال المصطلح المتعدّد والدلالة واحدة يُحدث فوضى فكرية في البحوث المنتجة، وأهم مظهر للتعاون هو توثيق التعاون بين المؤسسات اللغوية في المشرق العربي ومغربه، وعلى سبيل المثال: لقد كان جدل طويل بين مصطلحي: علم اللغة واللسانيات، فالأول شاع في مصر والعراق وسوريا... والثاني شاع في دول المغرب العربي، وعلى الرغم من محاولة الاتّفاق على توحيده لم تسفر الجهود إلى نتيجة، فالاجتهاد ضروري في الأمور العلمية، ولكن ينبغي أن لا يكون الاجتهاد الفردي سبباً لحدوث شرخ في استعمال اللغة، والمهم أن يدخل الاجتهاد ضمن الجهد الجمعي لاختيار المصطلح، فما يفيد اللغة وثبات المصطلح فيها هو الذي ينبغي له أن يشيع، والإيثار مهم في هذا المجال.

إنّ قضية المصطلح اللغوي ينبغي لها أن لا تخضع لرؤية فردية أو حزبية أو قطرية، والخلافات في توحيد المصطلح أوصلت المناقشات في الاجتماعات اللغوية أحياناً إلى درجة تفضيل مناقشة البحوث العربية في ندوات بغير العربية تجنّباً للخلاف والجدل في الدعوة إلى تعديل المصطلحات الثابتة، "وشُغِلتْ مجلة اللسانيات بالدفاع عن اسمها والهجوم على مصطلح علم اللغة وعلى المصطلحات المستقرّة في مصر والعراق منذ ثلاثة أجيال، وشُغل بعض اللغويين بالدفاع عن

٧. انظر: أعمال مجمع اللغة العربية ٥٤٣ ملاحظات المجمعي التونسي حسن حسني عبد الوهاب في ضآلة المصطلحات المترجمة وملاحظة المجمعي السوري مصطفى الشهابي عدم تآلف مناهج التعريب لتأتي بنتائج مفيدة، واقترح بأن يوكل وضع المصطلحات للجان متخصصة؛ لأن المصطلحات التي وضعها المجمع لا تشمل جميع العلوم ولا سيما الزراعة.

المصطلحات القليلة التي وضعوها، وكان هذا الموقف من العوامل التي جعلت حركة الترجمة إلى اللغة العربية في علوم اللغة تتوقف عدة سنوات"[٨].

المشكلة القائمة في مجال التعريب التي تشير إلى تقصير المؤسسات اللغوية من جهة وانعدام التخطيط اللغوي من جهة أخرى، تتعلّق في وقت وضع المصطلح وعدم اتّخاذ الوسائل الفعَّالة لإشاعته قبل أن يشيع على ألسن الناس والدارسين، فنجد أسماء الآلات والمستحدثات الأجنبية أو المصطلحات العلمية أو الأدبية والنقدية يُقترح لها مقابلات بعد شيوعها، وما يُقترح من مقابلات تكون أحياناً متعددة غير موحدة أو لا تفي بالغرض، فتحدث البلبلة أو التندر أحياناً ببعضها الآخر. من ذلك الأسماء الآتية: (المرناة) للتلفزيون و(الخيالة) للسينما و(الطارمة) للكشك و(المذياع) للراديو و(الهاتف) للتلفون وغيرها قد وضعت بعد شيوع أسمائها الأجنبية. وممّا يحمد أن جملة مصطلحات وُضعت قد أخذت تستقر على الألسن وتطرد الأجنبي، مثل شيوع السيارة بدلاً من (الأوتومبيل أو الكار).

ومشكلة أخرى هي عدم اتفاق المجامع والمؤسسات اللغوية على توحيد المصطلحات الموضوعة لاستعمالها في الأقطار العربية، وهذه المشكلة تجعل استعمال الاسم الأجنبي أقرب إلى الفهم من استعمال المرناة أو التلفاز للتلفزيون والخيالة والسيما للسينما وغيرها.

إذن يصبح اتّخاذ القرار السياسي الذي يحدّد الخطة اللغوية على مستوى الوطن العربي من خلال مؤسسات الجامعة العربية وتنفيذه بعد معالجة المصطلح عن طريق اتحاد المجامع العلمية ومكتب تنسيق التعريب كما يجري في الدول المهتمة بلغاتها، ولنضرب مثلاً بفرنسا، فهي شديدة الاهتمام "بدعم مكانة لغتها في إطار المتغيرات العلمية المعاصرة، وعلى الرغم من وجود مئات المؤسسات

٨. الأسس اللغوية لعلم المصطلح ٢٢٣.

المتخصصة في جوانب لغة محددة، فإن القرار السياسي في التخطيط اللغوي يصدر عن اللجنة العليا للغة الفرنسية التابعة لمجلس الوزراء، وتتعاون المؤسسات المختلفة في وضع هذه الاتجاهات موضع البحث والتنفيذ والتقويم. وعن اللجنة العليا للغة الفرنسية تكوّنت الجمعية الفرنسية لعلم المصطلح ١٩٧٥ لكي تنسّق الأعمال التي تقوم بها الجمعية الفرنسية لتوحيد المصطلحات ولجنة دراسات المصطلحات التقنية الفرنسية ومركز دراسة اللغة الفرنسية الحديثة والمعاصرة...، وكل هذه المؤسسات تُعنى بقضايا اللغة –وفي مقدمتها قضية المصطلحات– وترشّد بعملها السلطة العليا في الدولة في اتّخاذ القرارات المناسبة"[٩].

د– اللغة ومناهج الدراسة:

كان لإقرار مجلس الجامعة العربية مشروع ميثاق الوحدة الثقافية ١٩٦٤، ثم قيام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ثم تكامل أجهزتها– ومنها: مكتب تنسيق التعريب، والمركز العربي للتقنيات التربوية، ومعهد الخرطوم الدولي للغة العربية لغير الناطقين بها، والمركز العربي لبحوث التعليم العالي ومشروعاتها القومية في التأليف والترجمة وغير ذلك– ثمرة جهود عربية مُضنية قام بها العلماء واللغويون والسياسيون في أكثر من نصف قرن في المجامع العلمية والمعاهد الثقافية والجامعات وغيرها، وقد سبق أن أُقيمت المؤتمرات والندوات والاجتماعات الدّاعية إلى إصلاح التعليم وإصلاح مناهجه، ومحاولات تحديثه وتوفير كل المستلزمات لتطويره وتطوير لغته العربية وإحاطتها بأسباب الرعاية والأمن لكي تستغل طاقاتها؛ فتكون لغة حضارة حديثة في مجالات العلم والأدب وتضييق الهوّة

٩. الأسس اللغوية لعلم المصطلح ١٩٥، ١٩٦.

بين الفصيحة ولهجاتها من جهة، وأثر اللغات الأجنبية في لغة التعليم من جهة أخرى.

إن استعمال العربية، لغة قومية، في مراحل الدراسة التي تسبق الجامعة وتعريب موادها العلمية ومصطلحاتها، مطلب مهم وملحّ، خصوصاً، في الدول التي تخلّصت من السيطرة الفرنسية ومن فرض لغتها عليها، ففي المؤتمر التاسع لاتحاد المعلمين العرب ١٩٧٦، كانت التوصية "أن تكون لغة التعليم في المراحل الثلاث الابتدائية والمتوسطة والثانوية للمواد الدراسية الإنسانية والعلمية هي اللغة العربية؛ وذلك حتى يظلّ للمدرسة طابعها القومي الصريح، ولا يمنع ذلك من العناية باللغات الأجنبية"(١٠)، وقد أكدت ندوة عربية لخبراء في إعداد معلمي اللغة العربية ١٩٧٧م "تنفيذ التوصيات الكثيرة التي تتعلّق بتعريب العلوم والطب في الجامعات العربية ووضع برنامج زمني لذلك"(١١)، وفي مؤتمر التعريب الرابع ١٩٨١ كان الاتجاه أن يكون التعليم باللغة العربية؛ لأنه "استجابة للحقائق التربوية التي أثبتت أنّ تعلّم الإنسان بلغته أقوى مردوداً وأبعد أثراً، وأنه أحفل بالنتائج الخيّرة من الناحيتين الكمية والنوعية"(١٢).

على الرغم من اتخاذ القرارات والتوصيات في الاهتمام بالتعليم قبل الجامعي الذي كان موضع اهتمام المؤسسات اللغوية ثم تعريب التعليم الجامعي والعالي

---

١٠. المؤتمر التاسع لاتحاد المعلمين العرب – الخرطوم ١٩٧٦ ص ٦٥٢، الأسس اللغوية لعلم المصطلح ص ٢٠٠.

١١. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم– ندوة خبراء لبحث وسائل إعداد معلمي اللغة العربية في الوطن العربي – الرياض ١٩٧٧ ص ٢٤، الأسس اللغوية لعلم المصطلح ٢٠٠.

١٢. انظر التقرير المتضمن للمنطلقات الأساسية والتوصيات التي صدرت عن مؤتمر التربية الرابع المنعقد بطنجة بالمغرب ١٩٨١ – مجلة مجمع اللغة العربية الأردني– السنة الرابعة ١٩٨١ ص ٢٢٨، ٢٢٩، الأسس اللغوية لعلم المصطلح ص ٢٠٠.

وتدريس العلوم بالعربية الفصيحة وتعريب المصطلح وإشاعته، لم نجد هذه القرارات ولا التوصيات قد أخذت مجال التطبيق إلاّ قليلاً. فتعريب العلوم على مستوى الجامعة طبَّقته سوريا، أما في باقي الأقطار العربية فما زال متعثّراً وجلُّه ينفَّذ بلغات أجنبية، وما زال التنسيق شبه مفقود أو ضعيفاً على نطاق وزارات التربية والجامعات والمجامع اللغوية والأجهزة الإدارية وكلهم يشكو من عدم التنسيق، حتى أصبح التنسيق مشكلة من المشاكل التي تُطرح في كل المؤتمرات.

وعلى الرغم من التغيير في كتب المناهج في التعليم قبل الجامعي، لم تزل المناهج تفتقر إلى الدقّة من جهة وإلى الاستعانة بالخبراء المتخصصين وترك المحسوبيات في تأليف لجان المناهج.

أما الجامعات، فما زالت أقسام اللغة العربية تشكو من تخلّف مناهج التدريس فيها، وما زالت الكتب القديمة تقرّر ولا يُعرف غيرها إلاّ نادراً شرحاً ودرساً وقراءة، على الرغم من شيوع منهج علم اللغة التطبيقي بكل فروعه وإمكانية الإفادة منه في كل مراحل الدراسة.

أما الكتب المؤلَّفة، فما زالت تشكو الفقر المنهجي، ويغلب على مؤلفيها الروح التجارية أكثر من العلمية.

هناك قضية مهمة هي دروس العربية التي تُخصّص للأقسام والكليات الأخرى غير قسم العربية، فهي ما زالت متعثّرة وضعيفة، وأهم أسباب ضعفها[١٣]: أنها توكل لمدرسين غير أكفاء في غالب الأحيان، أو أنها تُؤدَّى لتكملة الأنصبة دون أن تنال من الاهتمام اللازم، ثم عدم اكتراث الطلبة في الكليات العلمية والأقسام غير المتخصصة؛ لعدم وجود الحوافز التي تشجّع على الإقبال لدراسة العربية أو

١٣. انظر بحث: تدريس اللغة العربية في الكليات العلمية في جامعة الفاتح للدكتور محمد بن الحاج، وهو بحث ميداني قام به سنة ١٩٩٥.

لإحساس الطلبة بعدم الرِّضا أو الفائدة من هذه الدروس، إضافة إلى أن المناهج لم توضع بعناية وفق تخطيط واضح المعالم وواضح الأهداف. فالعربية لغير المتخصصين ينبغي أن تكون مفرداتها منهجاً، عامةً سهلةً تتناسب والقسم والكلية التي تُدرَّس فيها، وهنا يدخل منهج التدريس وقدرة المدرِّس في أداء مهمته ثم مفردات المنهج. فالتدريس غير نافع إذا كان التأكيد على تلقين القواعد النظرية، وكذا غير نافع إذا خاطب المدرِّس طلبته باللهجة الدَّارجة، بل ينبغي له أن يكثر الحوار مع الطلبة باستعمال الفصيحة المبسَّطة إضافة إلى المشوِّقات في المادة المعروضة، وقد تحتاج إلى وسائل الإيضاح والعروض المرئية أو الأجهزة والمختبرات اللغوية لزيادة إتقان النطق والأداء.

كل ذلك ينبغي أن يتم أيضاً وفق تخطيط لغوي وتنسيق بين المؤسسات اللغوية والجامعية ووزارات التربية ومؤسسات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والإفادة من كل وسائل الإعلام المختلفة في إيصال المعلومة المقروءة والمسموعة أو المرئية بلغة فصيحة ميسَّرة، يكون بها التعليم، وبها يكون الأداء في السينما والمسرح وغيرهما من الوسائل التي تخاطب الجماهير فضلاً عن الأحاديث والندوات والمحاضرات والخطب.

هـ- العربية والدارجات:

إن أهم هدف من أهداف الإصلاح اللغوي بكل وجوهه هو التقريب بين الفصيحة واللهجات التي تنطق بها المجتمعات العربية، وكل ما رُميت به العربية من عيوب في نحوها وصرفها وكتابتها ومحدوديتها في استيعاب الحضارة والعلوم الحديثة، كل ذلك كان الغرض منه توهين العربية في نفوس أهلها والناطقين بها. فبالسيطرة على لسانهم تتم السيطرة على ثقافتهم وفكرهم ومقدّراتهم، وهذا الهدف لم يكن حديثاً لدى القوى الاستعمارية، بل بات صريحاً في تيار النّسق الثقافي

المسمَّى بالعولمة الذي بات يخترق آفاقنا ومناطقنا الثقافية المحرّمة عن طريق إعلامه بألوانه الزاهية وفضائياته ذات التقنيات العالية المتطورة، فضلاً عن هيمنته الاقتصادية والعسكرية.

لقد ظهرت تيارات اجتماعية تدعو إلى النهوض بالمجتمع العربي ثقافياً وعلمياً ولغوياً باعتبار أن اللغة أهم عامل في التطور والاستقلال للدولة[١٤]، وقد قرّ عزم جامعة العرب على اتباع سياسة لغوية موحّدة وإقرار خطه شاملة تُسخَّر لها كل الإمكانات في كل المجالات كمجال التعليم في كل مراحله – كما ذكرت–، وتوحيد المصطلح والجدّ في وضع المصطلحات المقابلة للكلمات الأجنبية قبل شيوع الأجنبي، سواء أكان ذلك في تدريس العلوم في الكليات والمعاهد، أم في الموانئ لمختلف البضائع والآلات الأجنبية لتعرف في السوق بكلمات عربية، ويحفظ الطالب درسه بمصطلحات عربية، واستغلال أجهزة الإعلام المختلفة للحديث بالفصيحة، ثم وقوف الحكومات العربية إلى جانب المؤسسات والمجامع اللغوية للدفاع عن العربية والحفاظ على نقائها. وهذه شهادة من أحد اللغويين الفرنسيين، وهو المستشرق كانتينو الذي درس أكثر من عشر لهجات عربية في عمق وأصالة، يقول في قضية الصراع بين العامية والفصيحة: "إن الاختلاف اللغوي شرّ والوحدة اللغوية خير عظيم، وإني في حالة العرب خاصة لأفهم كل الفهم وأرى من الحق أن يشعر العرب، المتباعدة أقطارهم، بحاجتهم إلى لغة واحدة

١٤. كانت جهود كثير من المصلحين من العلماء العرب ومثقفيه إضافة إلى المؤسسات اللغوية والعلمية ترفع شعار توحيد اللسان العربي، والسعي إلى ردم الهوّة بين الفصيحة واللهجات ليسهل تفاهم العرب بلغة مشتركة في مختلف أوطانهم، ولهذا كانت محاضراتهم وسعيهم. انظر: (اللهجات القومية وتوحيدها في البلاد العربية) للشيخ محمد رضا الشبيبي، مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة ج١٤ ص٨٥ وما بعدها.

هـي رمـز وحـدتهم الروحيـة، وأن هـذه اللغـة الموحـدة لا يمكـن أن تكـون سـوى الفصيحة..."[١٥].

إن كل ذلك إذا ما تحقق يكون كفيلاً بإنهاء ما نعانيه من هذا البعد بين الفصيحة والدارجات، وبالتدريج تضيق الشقة بين الكتابة والنطق في المجتمع العربي، فتصبح العربية الفصيحة لغة الكتابة والأدب. والعربية المعاصرة التي هي لغة مشتركة بين العرب لا يبعد نطقها عن الفصيحة تكون لغة البيت والمدرسة والسوق والمعمل والحقل... وتجربة تعريب مصطلحات الجيش في العراق وسوريا ومصر وليبيا وغيرها، جعلت الجندي إلى حدٍّ كبير يحفظ أسماء الرتب والأسلحة وأجزائها، ثم تجربة تعريب العلوم وتدريسها في الجامعات السورية، كما الجهود المبذولة في ليبيا في هذا المجال ينبغي أن تشيع وأن ترتبط بخطة عربية شاملة، وقد مرّ ذكر مواقف الدول المتحضِّرة من لغاتها ودعمها بكل الوسائل.

إن السعي إلى توحيد النطق في كل البلاد العربية ليس مستحيلاً إذا تعاونت المؤسسات اللغوية والتربوية والإعلامية بدعم السلطات السياسية؛ بحيث إذا قرأ المصري نصّاً أدبياً يفهمه العراقي والسوري والليبي والجزائري...، وهذا لا يكون إلا بتوحيد الفصيحة وإشاعتها. ونحن لا نقصد بتوحيد النطق انعدام بعض الفروق اللهجية في النبرة أو طريقة الأداء، فهذه الفروق لا تسلم منها لغة من اللغات مهما كانت وبقاؤها في اللسان العربي في هذا القطر أو هذه المدينة ليس غريباً، فاللغة الإنجليزية أو الفرنسية –وهما لغتان عالميتان– لم تسلما من مثل هذه الفروق اللهجية، لكن اللغة المشتركة استعملت في النطق أو الكتابة عامة في تداولها، فالإنجليزية، على سبيل المثال، لم تسلم من فروق في النطق بين سكان لندن

١٥. البحث اللغوي لحجازي ٩٨.

وسكان اسكتلندا، وكذا بينهما وبين سكان ويلز، حتى حين يتكلم الواحد منهم باللغة المشتركة العامة[١٦]. إن هذه الظواهر يتكفّلها الزمن وانتشار وسائل الاتصال والتفاهم والتداخل الاجتماعي، بحيث تذوب الفروق شيئاً فشيئاً ويسود التوحّد أو التشابه في النطق. هذا هو الهدف المنشود الذي ينبغي أن نسعى إليه لتحقيق أمن لغتنا، والحوارات والمناقشات التي دارت في أروقة المجامع اللغوية والمؤتمرات المختلفة دارت حول هدف ردم الهوّة بين الفصيحة والدارجات، وآخرها مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة في دورته السادسة والخمسين ٢٦ شباط ١٩٩٠، أعلن أمينة العام الدكتور شوقي ضيف: إن الهدف من البحوث والمناقشات هو "بيان الطرق والوسائل التي تُرفع بها الحواجز بين العامية والفصيحة"[١٧].

إن أهم العوامل التي تُرفع بها الحواجز وتقرّب من لهجات اللسان العربي: فتح الحدود بين أقطاره، وإلغاء الحدود والموانع التي تحول دون الاتصال والتمازج الاجتماعي، وإشاعة التعليم في أوساطه وفق سياسة لغوية موحّدة، ورفع أجهزته الإعلامية، وتوجيه برامجه ومسلسلاته، وتشجيع العاملين فيها، وفسح المجال أمام تيار الأدب الروائي والمسرح والسينما باللغة العربية الفصيحة كما هي تجربة الروائي نجيب محفوظ، والوقوف بحزم في وجه الدعوات التي تدعو لاستقلال عاميات الأقطار العربية[١٨]، ولكن يمكن تشجيع دراستها لنستخلص منها ما يندمج

---

١٦. انظر: اللغة بين القومية والعالمية ٢٣٢.

١٧. "تبسيط قواعد اللغة العربية" للدكتور ميشال حجار، مجلة الفكر العربي، العدد ٦١، سنة ١٩٩٠ ص ٣٧.

١٨. ظهر كتَّاب عرب دعوا إلى كتابة الأدب بالعامية شعراً ورواية ومسرحاً، وبعضهم إلى تطعيم الفصيحة بحوار بالعامية، وبعضهم دعا إلى كتابتها بلغة ثالثة كدعوة توفيق الحكيم في كتابه "الصفقة"، وبعضهم كتبها بالعامية اللبنانية، ثم أعاد كتابتها بالفصحى الشعبية كما يسميها ليقرأها

مع العربية المعاصرة[١٩] عن طريق عقد المؤتمرات والمهرجانات العربية، تكون أشبه بأسواق العرب قبل الإسلام أو تشبه مهرجان المربد الذي انعقد في العراق في السبعينيات...، ومن هذا التمازج والتداخل اللغوي تنشأ ما أُصطلح على تسميته باللغة الثالثة أو الوسطى... وهي عربية عصرية لها مستواها الفصيح ومستواها الدارج كما في جميع اللغات، فيتّصل مستواها الفصيح في أقصاه بالفصيحة القديمة كما يتّصل مستواها الدارج في أقصاه بدارجة الأميين، ومن الطبيعي أن يكون هذان المستويان متكاملين، أي يتوزّعان في الاستعمال توزّعاً تكاملياً لا تنافسياً، فيختصّ الفصيح بالكتابة خاصة ويختصّ الدّارج بالخطاب خاصة..."[٢٠].

و- الاتّساع اللغوي واتّباع المرونة تجاه الجديد والشائع مع مراعاة الفصاحة:

يشتمل هذا الحديث على جانبين مهمين في العمل اللغوي، أحدهما يكمّل الآخر وفي كل جانب حدث صراعات وخصومة، ولكن اللغة تجاوزت ذلك كله وظلّ ذلك الصراع وتلك الخصومة خبراً في الكتب، أما اللغة فقد أخذت طريقها في التطور، وما اعتُرِضَ عليه ظلَّ مستعملاً أو أُهمِلَ على حسب تحقيقه حاجة الخطاب أو الأدب أو المعجم. الجانبان هما:

١- الاتّساع اللغوي والأخذ بالجديد الذي لا يتعارض مع الفصيح ألفاظاً وأساليب.

العرب في مختلف أقطارهم (انظر مقال أشكال الفصحى والدارجات د. البكوش في كتاب قضايا اللغة العربية المعاصرة ص ١٨٥، ١٨٦ مقالة "حول تبسيط قواعد اللغة العربية"، د. حجا ص٣٧، من حديث الشعر الحر للدكتور عبد الجبار المطلبي ٣٨١- ٣٩٢.

١٩. من ذلك ما أُلف في ردّ العامي الفصيح كما يدخل في ذلك الدراسات في لغة الجرائد أو الإعلام.

٢٠. مقالة "أشكال الفصحى والدارجة" للبكوش ٢٠٧، وانظر ١٧٣- ٢٠٧.

٢- اتّباع المرونة وعدم التعصّب تجاه اللغات أو اللهجات التي تعيش في ظل اللغة العربية الفصيحة.

١- **الاتّساع اللغوي:** نأخذ مصطلح الاتّساع الذي تردّد في كتب النحو واللغة بمعنى التوسّع في الأخذ من الجديد ما لا يتعارض مع الفصيح، أو ما تستوعبه العربية ولا يؤثر في أنظمتها اللغوية، وفي ضوء ما وصفه ابن جني بباب في شجاعة العربية[٢١]. ينبغي لنا أن نأخذه بدلالته الشاملة لما تقتضيه العربية المعاصرة من هذا السيل العاتي من المصطلحات والأساليب، هذا السيل الذي يحتاج من الجهود اللغوية واستغلال طاقات العربية الكثير المضني لاستيعابه وترويضه في رحابها، عن طريق التنمية اللغوية ،خصوصاً، في مجال المعجم باستعمال وسائل التنمية المختلفة من الاشتقاق والترجمة والتعريب، وإذا لم نصل إلى ما يفيد من ذلك، فالاقتراض هو الوسيلة وهو أضعف الإيمان. لقد بُذلت جهود لغوية في مجال التعريب منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد مثّل التيار المتحفّظ في اللغة بالأخذ من المعرّب أحمد فارس الشدياق (ت١٨٨٧م)، أما عبد القادر المغربي (ت١٩٠٩م)، فقد مثّل تيار الاتّساع بوسائل التنمية اللغوية ،خصوصاً، المعجم ويرى أهمية التعريب في هذا المجال. وقد شغلت قضية الترجمة والتعريب المجامع والمؤسسات اللغوية كثيراً وما زالت، وقد اتّخذت قرارات في ذلك كقرار مجمع اللغة في القاهرة بجواز أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم، وقد وضع قيوداً للتعريب في مجال المصطلحات الأدبية والفنية خاصة، وطال الحوار في المجامع اللغوية في قضية التعريب، وفيما يُعرَّب من الألفاظ والمصطلحات، وفي مدى التحوير في الكلمة

٢١. الخصائص ٣٦٢/٢.. وما بعدها.

المعرَّبة لجعلها موافقة لأوزان الكلمة العربية ومجالات استعمالها، وكان للغويين آراؤهم ومذاهبهم، فاللغويون السوريون يفضّلون ترجمة المصطلحات الأجنبية في الغالب. أما مجمع اللغة العربية في القاهرة، فيميل إلى تعريب المصطلحات في كثير من الأحيان، وهكذا تنوّعت الآراء والأقوال في قضية التعريب بين التحفّظ والاتّساع؛ لذلك كثيراً ما كانت تُذكر ترجمة المصطلح أو اللفظ المعرّب مقابل لفظه الأجنبي. أما المصطلحات الأدبية والفنية فكان الاتجاه العام أميل إلى ترجمتها[٢٢].

إن كثيراً من الألفاظ يمكن أن يُوضع لها مقابل أفضل من اسمها الأجنبي وأكثر انتساباً للعربية عن طريق الاشتقاق، مثل: الهاتف (للتلفون) والسيارة (للاتمومبيل) والمذياع (للراديو) وغوغائي (للديماغوجي) وملهاة (لكوميديا) ومأساة (لتراجيديا) والتمثيلية (لدرامة) وتمثيلية غنائية (لأوبرا) وغنائية هزلية (لأوبريت)...، ولو أُشيعت هذه الألفاظ العربية قبل شيوع الكلمة أو استعمالها بمصطلحها الأجنبي لما عرفت الأجنبية، وهكذا كل المصطلحات والألفاظ في مجال الأدب والفن. أما المصطلحات العلمية أو الألفاظ الشائعة شيوعاً، فالذي لا يمكن أن يُوضع له مقابل أو أنه مصطلح علمي عام، فيمكن أن يُؤخذ عن طريق التعريب أو الاقتراض أو القياس، خصوصاً "أسماء الأعيان وأعلام الأجناس كالأوكسجين والهيدروجين والأنزيم والإلكترون والأيون وأسماء الأدوية والعقاقير والمركبات الكيمياوية وأسماء النباتات والحيوانات والمصطلحات التي تذهب ترجمتها بقيمتها ودلالتها من حيث هي مصطلح علمي"[٢٣]. ومن أمثلة الألفاظ التي شاعت

٢٢. انظر تفصيل ذلك في كتاب: الأسس اللغوية لعلم المصطلح ١٤٨-١٥٤، فقه اللغة العربي لأميل يعقوب ٢٢٠ وما بعدها.

٢٣. الأسس اللغوية لعلم المصطلح ١٤٩، ١٥٠، وانظر فقه اللغة العربية ٢٢٣، ٢٢٤.

وانتشرت إن لم تستطع المجامع أن تضع لها مقابلاً، أمكن أن يُعتمد الشيوع لإقرارها وقبولها ضمن الكلم العربية مثل كلمات: برجوازية وإمبريالية وديمقراطية...، فهذه طريقة مقبولة في التعريب باتخاذ لاحقة المصدر الصناعي الذي شاع في العصر الحديث، والذي صار يدل على المذاهب والاتجاهات مثل: السلوكية والبنيوية والتحويلية، وهذه الصيغة تقابل الكلمات الأوروبية المنتهية بـ (ism)[٢٤]، وكذا يدل المصدر الصناعي على العلم مثل: كلمة الألسنية أي علم اللسان، علم اللغة والاجتماعية أي علم الاجتماع، والأسلوبية أي علم الأسلوب، والمعجمية أي علم المعجم.

إن التطور السريع والمصطلحات العلمية والفنية والأدبية تنمو باطراد، فلا مفرَّ للغة العلمية من اتباع كل الوسائل للمحافظة على حيويتها من جهة وعلى أمنها من الأخطار من جهة أخرى، والاقتراض والاقتباس لما يعيا اللغوي في وضع المقابل، فلا بأس أن يدخل الكلم العربي، فما أكثر الكلم والمصطلحات التي احتوتها العربية قديماً وحديثاً ما دخل في معجمها أو ما لم يدخل، إنما ظلّ جارياً على الألسن. لقد طال جدل اللغويين في مقياس الشيوع في جملة من الألفاظ التي يستعملها الناس في مختلف المواطن، وهي ضمن العامي، فشيوعها في الأقطار العربية دليل على أصلها الفصيح، لكن المؤلفات اللغوية تجاهلتها[٢٥]، أو قد تكون شائعة دخيلة لكنها مستساغة ومقابلها الفصيح غير معروف ولا مستعمل، أو يكون المقابل الموضوع لا يدل على ما تدل عليه الكلمة الدخيلة الشائعة، فيمكن أن

٢٤. الأسس اللغوية لعلم المصطلح ٢٢٥، ٢٢٦.

٢٥. عجائب اللهجات- محمد كرد علي ٧٣، أعمال مجمع اللغة العربية ٢٨٢.

يدخل المعجم العربي على سبيل الاقتراض مثل: كلمة "المسك"، فهي شائعة مستعملة، ولم يقم مقامها مقابلها المسموع.

وكلمة "الباذنجان" مستعملة معروفة في كل الأسواق العربية، ولا أحد يعرف مقابلها "المغد" أو "الحدق".

وكلمة "النرجس" استعملها الشعراء كثيراً في عصور الحضارة، ولا يُعرف مقابلها الفصيح "القهة" أو "القهد"[٢٦].

وكلمة ورشة المعرّبة من الإنجليزية لا يدل مقابلها الموضوع على معناها الشائع مَشْغَل أو مُحْتَرف أو مَرْسَم أو مَصْنَع أو مَعْمَل، وكذا كلمة "قرصان" المعرّبة من الإيطالية وجمعها قراصنة والمصدر قرصنة. كل ذلك دخل العربية وأصبح من رصيدها المعجمي[٢٧]، والتعريب، عن طريق الاقتراض، ينبغي أن يكون في حالات بأعيان فهو الحل المفضّل، خاصة للمصطلحات التي صارت عالمية في مجالات العلوم وعند أصحاب الاختصاص. وقد أيّد بعض اللغويين المحدثين مقولة الجواليقي وابن الجوزي وسواهما من القدماء: إن الكلمات الأعجمية التي عرَّبها العرب، وحوّلوها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظهم تصبح عربية[٢٨]، وكذلك كان يدعو إلى استعمال الكلمات المولدة "المستعملة بعد أواخر القرن الثاني الهجري في الأمصار وبعد أواسط القرن الرابع الهجري في جزيرة العرب، وقد جاء

---

٢٦. ذكر الأب انستاس الكرملي مجموعة من هذه الألفاظ الشائعة. انظر نشوء اللغة العربية ونموها ٨٥، ٩٦.

٢٧. الأسس اللغوية لعلم المصطلح ١٥٦ ذكر الدكتور حجازي مجموعة من المصطلحات وأشار إلى مجموعة من قرارات مجمع اللغة العربية، كما أسهب في شرح الأسس اللغوية لوضع المصطلح ثم استعماله وشيوعه ١٤٧، ١٧٢.

٢٨. معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة- محمد العدناني ٣٠٤/١.

في "مختصر العين" للزبيدي صاحب التاج: المولّد من الكلام هو المحدث، وقسم كبير من لغتنا مولّد، فإذا أنكرنا استعمال المولّد نكون قد أنكرنا استعمال القسم الأكبر من الكلمات التي يستعملها اليوم كتّابنا وشعراؤنا..."[٢٩].

لقد تنبَّه الأستاذ أحمد حسن الزيات إلى قضية مهمة في هذا المجال، فكتب مخاطباً مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٥٧م: "إن المجمع قضى ثماني عشرة دورة في خدمة اللغة الخاصة، وهي لغة الفلاسفة والعلماء والرياضيين والأطباء... أما لغة العامة –وهي لغة البيت والشارع والسوق والمصنع والورشة والحقل– فلم يولها المجتمع عنايته، والناس متى رأوا الشيء سمّوه، والمسمّون في الغالب من سواد الأمة الذين لا يبالون أن ينطقوا على أية صورة ما داموا يقضون حاجتهم من الفهم والإفهام، ويجيء بذلك الكتَّاب والصحفيون فيجدون اللفظ قد شاع، فإما أن يستعملوه على علّته؛ فيكون الفساد، وإما أن يضع كل كاتب لمعناه لفظاً؛ فتكون البلبلة. والصحافة والعامة متنافسان في الوضع والنقل والتعريب لا تهادن أحدهما الأخرى، فأيتهما سبقت إلى الشيء الجديد يوم وروده الميناء سمَّته وفرضت تسميتها على الألسنة.."[٣٠].

وما يجدر ذكره في مجالات الجديد مجموعة من الأساليب التي تأثّرت بها العربية من الترجمة، فقد تسرّبت أساليب لم تألفها العربية عن طريق الترجمة من الفرنسية والإنجليزية خاصة، ولم تسلم منه اللغة العربية في مختلف أقطارها، ولعلّ ذلك يعود إلى حاجة العربية إلى الجديد من الأساليب التي تعبِّر عن مقتضيات الحياة الحديثة ومتطلّباتها، وقد استعمل الكتّاب العرب أحياناً دون أن يشعروا

---

٢٩. السابق ص ي.

٣٠. مجلة مجمع اللغة العربية الجزء التاسع ١٩٥٧ ص٣٣.

بأصولها وجعلها بعضهم تعريباً للأساليب[٣١]، فالعربية إن كانت غنية بطرق تركيب عباراتها وأساليبها، فلا تضيق بما يأتي إليها عن هذا الطريق، فيزيد اتّساع آفاقها التعبيرية على أن لا يكون متقاطعاً أو مخالفاً لأساليب الفصاحة فيها فيؤدي إلى الركاكة في التعبير. وقد أجاز مجمع اللغة العربية شيئاً من ذلك، ومن قراراته في هذا الباب: "فالباب مفتوح للأساليب الأعجمية تدخل بسلام إذ ليس في هذه الأساليب كلمة أعجمية ولا تركيب أعجمي، وإنما هي كلمات عربية محضة رُكِّبت تركيباً خالصاً، لكنها تفيد معنى لم يسبق لأهل اللسان أن أفادوا بتلك الكلمات"[٣٢].

يأتي هنا فعل السياسة اللغوية الموحدة والتعاون بين المؤسسات اللغوية والجامعات ووزارات التربية والإعلام، للتعاون في الحفاظ على أمن اللغة وسلامتها.

٢- اتباع المرونة تجاه الجديد والشائع مع مراعاة الفصاحة:

إن الجهود اللغوية التي بذلتها وتبذلها كل المؤسسات والمجامع اللغوية ومكتب تنسيق التعريب بكل وسائلها ومؤتمراتها، تتخذ مجالين: أولهما استغلال طاقات العربية وتجاربها التاريخية وقدرتها على التطور؛ لتستوعب كل هذا السيل الجديد من المصطلحات والأسماء والأساليب، وتجعله ضمن معجمها اللغوي والمقبول في أساليب التعبير. فشجاعة العربية كما أشار إلى ذلك ابن جني[٣٣] وقبله سيبويه بوصفه الاتّساع فيها[٣٤] مع الأخذ بتطوير مفهوم الاتساع لتستوعب التطور العلمي في مختلف مجالاته، ثم التعبير الفني في كل مجالاته أيضاً. وقد مرّت الإشارة إلى ترجمة العلوم أو تعريبها أو اقتراض المصطلح عند الضرورة.

---

٣١. انظر اللغة والحضارة، د. إبراهيم السامرائي ١٤، أعمال مجمع اللغة العربية ٣٨٣.

٣٢. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج٧ ص١٨٥-١٨٧، أعمال مجمع اللغة ٣٨٧، ٣٨٨، اللغة والحضارة ١٠٥.. وما بعدها ذكر مجموعة من الأساليب الجديدة.

٣٣. الخصائص ٣٦٢/٢.

٣٤. الكتاب ٢١١/١.

أما المجال الثاني فهو محاولة دراسة لهجات العربية، وهو أساس من أسس دستور مجمع اللغة العربية في القاهرة، ومن لجانه الفاعلة "لجنة اللهجات" التي وعدت بتحقيق خمسة أغراض في جلسته ١٩٤٩/١/٨، ومنها: استقراء الألفاظ والتراكيب الجارية على ألسنة أهل الأقطار العربية من الناحية الصوتية ومن ناحية المعنى، وتدوين هذا في معاجم وأطالس لغوية[٣٥]، وقد بذل اللغويون جهداً طيباً في هذا المجال لخدمة الفصيحة ورفع مستواها، بذكر العامي وتفسيره وردّه إلى نصابه من الصحة إن كان عربي الأصل، أو بيان مرادفه إن لم يكن كذلك ليحل محله ويرجع إليه في الاستعمال[٣٦]، لكن دراسة اللهجات اختلط أمرها بالدعوات المشبوهة؛ لاستعمال العاميات واستبدال الحرف اللاتيني بالعربي، لكن الاتجاه الأول في الدراسات هو الذي علا صوته في محاولة تضييق الشقة بين الفصيحة والدارجات، كما كان فيما يسمّى بالعربية المعاصرة. هذه العربية التي شاعت بين المثقفين وفي كتابات الجرائد وما يُذاع في وسائل الإعلام خصوصاً نشرات الأخبار. هذه اللغة ينبغي العناية بها وتوسيع استعمالها باستخدام كل الوسائل الممكنة، فنشرة الأخبار يسمعها العربي في بغداد ودمشق والرياض وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب وبيروت، وكل ركن من أركان الوطن العربي بكل مستوياته الاجتماعية، فيفهمها ويفهم دلالات ألفاظها وعباراتها، فإذا شاعت هذه اللغة في السوق والمصنع والحقل والبيت والمدرسة وبين الناس لغة للخطاب

---

٣٥. انظر: أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٢٧٥.

٣٦. كان هذا هدف أحمد تيمور في معجمه إحياء اللغة العربية الصحيحة بذكر العامي وتفسيره وردّه إلى نصابه. وانظر أيضاً في هذا المجال كتاب: الأصول العربية الفصيحة لألفاظ اللهجة الليبية للدكتور عبدالله سويد، وانظر بحث "أصول ألفاظ اللهجة العراقية" للشيخ محمد رضا الشبيبي، مجلة المجمع العلمي العراقي ١٣٧٦هـ ١٩٥٦م.

والتفاهم قرَّبت الدارجة من الفصيحة، فتكون لغة الكتابة الفنية بأساليب أدبية ولغة الكلام والتخاطب بعربية غير متكلَّفة. ومنذ القديم وفي كل أمة تختلف اللغة في مجالات التخصص ولكن تبقى القواعد والنظم اللغوية مصونة في إطارها اللغوي العام، فهناك لغة للنجارين وأخرى للحدادين وأخرى للمعلمين وأخرى للنحويين وأخرى للفقهاء وأخرى للفلاسفة ...، ولكن تلك اللغات يُطلق عليها لفظة لغة مجازاً، إنما الاختلاف فيما بينها بألفاظ يردّدها النحويون لها دلالات غير ألفاظ يرددها الفلاسفة ودلالتها، وكذا الأصناف الأخرى ... وقد نوقشت مشاريع واقتراحات في اجتماعات المجامع اللغوية، وأهمها اقتراحان قدَّمهما أحمد حسن الزيات نتج عن قبولهما قراران يقرّان مبدئياً الأخذ بالألفاظ العامية، وأحدهما: قبول الوضع من العرب المحدثين بدراسة كل كلمة شائعة، شريطة أن تكون مستساغة وليس لها مقابل عربي يمكن استعماله، والآخر قبول السماع منهم أسوة بالمتقدِّمين، شريطة أن تُدرس كل كلمة على حدة قبل قبولها وقبول هذين المقترحين: "الوضع والسماع من المحدثين قد وضع الأساس القوي الثابت لتهيئة اللغة لقبول التجدد المستمر في أسماء الذوات والمعاني. فبالوضع نصل ما بين اللغة والحياة، وبالسماع نقرِّب ما بين العامية والفصيحة..."[٣٧].

وكانت الدعوة على ألسن المجمعيين قائمة في الأخذ أو الاستئناس بألفاظ العامة؛ لملء الفراغ بالمعاجم الكبرى التي غفلت عن جمع تلك الألفاظ العلمية المستعملة عند الفلاحين والمهنيين والبياطرة[٣٨].

---

٣٧. مجلة مجمع اللغة العربية ج٩ سنة ١٩٥٧ ص٣٣، ٣٤.

٣٨. أعمال مجمع اللغة العربية ٢٧٩، وانظر هوامش الصفحة نفسها.

إن التطور الدلالي للألفاظ واستعمال المجتمع ألفاظاً جديدة بدلالات جديدة قضية قديمة في كل اللغات، وليست العربية بدعاً بينها، ثم إن العربية نفسها لم تكن واحدة قبل الإسلام إنما هي لهجات تداخلت وتقاربت، فنشأت منها لغة موحدة نزل بها القرآن الكريم، لكن اللهجات وظواهرها اللغوية ظلَّت إلى جانب هذه اللغة الموحدة، واختلاف القراءات القرآنية ناتج عن الظواهر اللغوية في هذه اللهجات. وظلَّت العربية واللهجات التي اختلطت باختلاط العرب بغيرهم في صراع، غير أن الفصيحة كانت هي لغة الدين والدولة والعلم والأدب، ثم مرّت في مراحل ضعف لظروف تاريخية حتى عصر النهضة الحديث، فالنهضة ألقت الضوء على قضية اللغة، فبان الفرق الحادّ بين الفصيحة التي جمدت قروناً عن التطور، ثم الدارجات في الوطن العربي التي ظلَّت تتضخّم بما يقضي حاجات الطبقات الشعبية باختلاطها وأخذها ممّن خالطوهم واحتكّوا بهم من الأمم كالفرس والأتراك والأوروبيين. لقد ورثت العربية تراكم عصور من الخلاف اللغوي، والمعجم العربي احتوى على آلاف الكلم المهجورة، وهو في تطور دائم خصوصاً في عصر النهضة وما بعدها عن طريق الترجمة والتعريب والاقتراض والوضع، والدارجات أيضاً ورثت تراكم العصور السابقة لكن العربية الفصيحة ما زالت تتمتع بقوة عناصر البقاء، فبالرغم من أن عربيتنا المعاصرة تدخل في ظل عربية القرآن الكريم أنظمة ودلالات، واللغة الفنية ما زالت الفصيحة المتطورة الممتدة من الأصل؛ لذلك نحن نفهم شعر زهير بن أبي سلمى، وعمر بن أبي ربيعة، وأبي نواس، وأبي تمام، والمتنبي، والبهاء زهير، والبارودي، والرصافي، والجواهري، وعمر أبو ريشة، وأبي القاسم الشابي، ونزار قباني، والسياب، وأحمد عبد المعطي حجازي، ومحمد خليفة التليسي، وهكذا ما شئت من تعداد الشعراء والكتّاب على مرّ العصور واختلاف الأوطان... وإذا جرت العربية على لسان عامّة الناس، لغة للتخاطب كما هي في وسائل الإعلام المختلفة وقاعات المحاضرات دون التأكيد على حركات الإعراب،

فهي هي لأن حركات الإعراب جزء من أواخرها، فإذا سُكّن آخر الكلم لم تفقد الجملة معناها على ما ألف الناس في خطابهم وعلى ما وعاه ابن خلدون قبل قرون في قوله: لم يُفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم، وهو بعض من أحكام اللسان[٣٩]، فللغة وسائلها في الإفهام إن أُوقف أواخر الكلم في لغة الخطاب، وبالتأكيد على توحيد لغة التعليم وفق سياسة لغوية واحدة والعناية بوسائل الإعلام من حيث ثقافة الإعلام اللغوية، وكان التعاون بين المؤسسات التربوية واللغوية ومكتب تنسيق التعريب مستمراً كل في مجاله اللغوي.

استطاعت العربية أن تبلغ مستواها المنشود لغة للكتابة الأدبية ومستوى لساني مصاحباً لها وقريباً منها لغة للتخاطب في مجالات الحياة اليومية؛ وبهذا يتحقّق للعربية أمنها وسلامتها. وقد شعر مجمع اللغة العربية بذلك منذ نصف قرن، فجاء بتوصية في قضية الدارجات: "تتقارب اللهجات الدارجة في العالم العربي في العشرين سنة الماضية تقارباً ملحوظاً، وللمدرسة والمدرِّس شأن في ذلك ولوسائل الإعلام من صحافة وإذاعة ومسرح وسينما شأن أوضح، وما أجدرنا أن نتعهّد ذلك ونرعاه كي ينتهي إلى الهدف المنشود"[٤٠].

---

٣٩ . مقدمة ابن خلدون، فصل ٣٨.

٤٠. مجلة مجمع اللغة العربية ج٧، سنة ١٩٤٩، ص٣١٦.

المصادر والمراجع

- أنـيس، إبـراهيم – اللغـة بـين القوميـة والعالميـة – دار المعـارف بمصـر ١٩٧١.
- ابن جني – الخصائص– تحقيق محمد علي النجار ط٣– الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨.
- حجـازي محمـود فهمـي– الأسس اللغوية لعلم المصطلح – مكتبـة غريـب ١٩٩٣ القاهرة.

البحث اللغوي – مكتبة غريب ١٩٩٣.

- حمـزاوي، محمـد رشـاد– أعمـال مجمـع اللغـة العربيـة بالقـاهرة – ط١ دار الغرب الإسلامي ١٩٨٨– بيروت.
- ابن خلدون– المقدمة– دار إحياء التراث العربي– بيروت – لبنان.
- السامرائي، إبراهيم – اللغة والحضـارة– المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنشـر – ط١٩٧٧ بيروت.
- سـيبويه– الكتـاب– تحقيـق عبـد السـلام محمـد هـارون– ج١ دار القلـم ١٩٦٦– القاهرة.
- العـدناني، محمـد – معجـم الأغـلاط اللغويـة المعاصـرة، ط٣٢، ١٩٨٠، بيروت.
- الكرملـي، الأب أنسـتاس مـاري– نشـوء اللغـة العربيـة ونموهـا واكتهالهـا – مكتبة الثقافة الدينية– القاهرة (د.ت).
- المطلبي، عبد الجبار– من حديث الشعر الحر– مخطوط.

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- من قضايا اللغة العربية المعاصرة- ١٩٩٠- بيروت.
- علي، نبيل- العرب وعصر المعلومات- سلسلة عالم المعرفة عدد ١٨٤ سنة ١٩٩٤- الكويت.
- يعقوب، أميل بديع – فقه اللغة العربية خصائصها- دار العلم للملايين ط١، ١٩٨٢- بيروت.

المجلات:

- مجلة مجمع اللغة العربية – القاهرة.
- مجلة مجمع اللغة العربية- دمشق.
- مجلة مجمع اللغة العربية الأردني- عمان.
- مجلة المجمع العلمي العراقي- بغداد.
- مجلة اللسان العربي، يصدرها مكتب تنسيق التعريب- المغرب.
- مجلة الفكر العربي، يصدرها معهد الإنماء العربي- بيروت.
- مجلة كلية التربية، طرابلس – ليبيا.

مَوقفُ الجاحِظِ مِنَ الثَّقافاتِ الأجْنَبيّة

الدّكتور محمّد محمُود الدّروبيّ

قسم اللُّغة العَرَبيّة – جامعة آل البيت

المُلخّص

تَسْتجلي هذه الدّراسةُ مَوقفَ الأديبِ العَرَبيّ أبي عُثمان، عَمرو بن بَحر، الجاحِظِ منَ الثّقافاتِ الأجْنبيّةِ الوافدةِ التي أخذت تَحطُّ برِحالها في البِيئاتِ العِلميّةِ الإسْلاميّةِ في العَصرِ العبّاسيّ، ولا سيّما ثقافات أُممِ الجِوار، وهي: الثّقافة اليُونانيّة، والثّقافة الفارسيّة، والثّقافة الهِنديّة.

وقد اتّخذ الجاحِظُ – بِوصفه مُؤصّلاً لِلمنهجِ العِلميّ – رُؤيةً نَقديّةً مَنهجيّةً من هذه الثّقافاتِ القادمةِ، مُتواصلاً معها بما يَنْسجمُ مع مُنطلقاتِهِ الفِكريّة والعِلميّة. وانبثقت عن تِلكم الرُّؤية أربعةُ مَواقفَ تراوحت بينَ:

١. القَبول بالثّقافاتِ الوافدةِ والتّفاعل مع مُعطياتها الإيجابيّة.

٢. الاعتذار عن المُشوّهاتِ– المقصُودة وغير المقصُودة– التي أساءت إلى تلك الثّقافاتِ المنقُولة بسبب ما داخلها من لَغطٍ وتَشويشٍ وسُوءِ فَهمٍ؛ جَراءَ نقلها إلى اللّسانِ العَرَبيّ.

٣. إعمال مَنهجِ الشّكِّ العِلميّ في كثيرٍ ممّا اشتملت عليه تلك الثّقافاتُ من أخبارٍ ومَقولاتٍ تدعُو إلى عدم منحها الثّقة؛ لمجافاتها الواقعَ، ومُخالفتها العَقل.

٤. توجيه الاعتراضِ المنهجيّ والنّقد الموضُوعيّ إلى مُنطلقاتِ بعضِ تلك الثّقافات، ونقدها من الدّاخل.

وقد كان الجاحِظُ سبّاقاً – بذلك– إلى تَشكيلِ رُؤيةٍ خاصّةٍ من الثّقافاتِ الأجنبيّةِ، تَتناغمُ مع مَنهجهِ الفِكريّ العامّ. وهي رُؤيةٌ لها ما لها من إيجابيّاتٍ، وعليها ما عليها من نَقداتٍ، ولكنّها على الرُّغم من ذلك دَليلٌ على وعي صاحبها وإيجابيتهِ، وحُريتهِ وفاعليتهِ، وانفتاحهِ على الآخر، من غيرِ أن يفقدَ شخصيتهُ، أو تذوبَ ثَوابتهُ.

"ولكني أخذتُ بآدابِ وجوه أهل دَعوتي ومِلّتي ولُغتي وجَزيرتي وجِيرتي، وهم العَرَب"

(أبو عُثمان الجاحِظ)

المُقدّمة

عـاش الجـاحِظُ فـي عَصـرٍ انفتحـت فيـه قَنـواتُ الاتصـالِ الثَّقـافيّ مـع الأُمـمِ المُجـاورةِ علـى مِصْراعيها، فقد أخذ العَرَبُ ينهلُون من رَوافدِ الثّقافاتِ الأعجميّة: يُونانيّة وفارسيّة وهِنديّة. وكان الجاحِظُ، بحُكمِ مَرباه في البَصرة، حاضرةِ العقليّةِ الإسْلاميّة، وانتحالهِ الاعتزالَ، مَذهبَ أهلِ العَقلِ في الإسْلام، ومَواهبهِ الفِطريّة، واستعدادِهِ الشّخصيّ، مُطّلاً إطلالةً كافيةً على ما يَدورُ حولهُ من ثقافاتٍ غيرِ عَرَبيّة أخذت تَحطُّ رِحالها في البِيئاتِ العِلميّةِ العَرَبيّة، مُستأثرةً باهتمامِ فئاتٍ من المُجتمعِ العبّاسيّ، في مساجدهم ومجالسهم وأنْديتهم وأفْنيتهم.

وكان بدهيّاً لمن كان في مَنزلةِ الجاحِظِ، عِلماً وعَقْلاً وثَقافةً، أن يتّخذ رُؤيةً واضحةً يَستطيعُ أن يُؤسّسَ وفْقها أنظارَهُ العِلميّةَ والشّخصيّةَ من هذه الثّقافاتِ الوافدةِ، بما لا يَتعارضُ مع مُنطلقاتِهِ العَقديّةِ والمَذهبيّةِ والعِلميّةِ وأهمّها: اعتزازه بالإسْلام، واعتداده بالثّقافةِ العَرَبيّة الإسْلاميّة، واعتقاده الاعتزالَ، وإيمانه بالحُريةِ والموضُوعيّة، وحماسه للعَقلِ والجَدَلِ، واعتماده الشَّكَّ والتّجريبَ المَنْهجيين ابتغاءَ الوصُولِ إلى الحَقيقةِ وتَسْجيلها.

واتّخذَ الجاحِظُ بداعٍ من تِلكُم الرُّؤية مَوقفاً ناقداً من الثّقافاتِ الأجْنبيّةِ التي أُتيحَ له أن يَطّلعَ على قَدْرٍ صالحٍ من مَورُوثها الثَّقافيّ المنقُول، ولا سيّما الثَّقافات المُجاورة لِلثَّقافةِ العَرَبيّةِ الإسْلاميّة، وهي الثَّقافة اليُونانيّة الإغريقيّة، والثَّقافة الفارسّية الإيرانيّة، والثَّقافة الهِنديّة السّنسكريتيّة، فقد سجّل في كِتاباتِهِ مَواقفَ مُتباينةً من هذه الثَّقافات بحُكمِ إيمانه "أنّ الأُممَ التي فيها الأخلاقُ والحِكمُ والعِلمُ أربعٌ، وهي: العَرَبُ، والهِندُ، وفارِسٌ، والرُّوم"(١).

وعلى الرُّغم من هذا التّعميم الذي يُطالعنا مُنذُ البَدء، لم يجعل الجاحِظُ هذه الأُممَ كُلَّها في مُستوًى واحدٍ من الثَّقافةِ المورُوثةِ والمُكتسبة، إذ رأى أنّ بعضَها

أميز من بعض، فليست لِلرُّوم – مِثالاً– عنده ما لغيرهم من المكنُونات الثَّقافيّة، ولولا أنّهم اتّكلوا – كما يقولُ– على عُلُوم اليُونان، وادّعوا وراثتها، بسببِ القُربِ والجِوار، لما كان لهم شأنٌ سوى في بعض وجوهِ الثَّقافةِ المُكتسبة، لا المورُوثة، إذ ليس لهم – في منظُورِ الجاحِظِ– رصيدٌ يُعتدّ به في هذا الفَرع من فُروعِ الثَّقافة[٢].

وأمّا التُّركُ الذين وضع الجاحِظُ رسالةً مشهُورةً في فَضائلهم، ولا سيّما ما يتعلّقُ بكفايتهم في مِضمارِ الحَرَب والقِتال وبُطولاتهم العَسكريّة، فهم عندهُ: "أصْحابُ عَمَد، وسُكانُ فَيافٍ، وأربابُ مَواشٍ، وهم أعْرابُ العَجَم..... فحين لم تشغلهم الصّناعاتُ، ولا التِّجاراتُ، والطِّبُّ، والفِلاحةُ، والهِندسةُ، والبُنيانُ، ولا شقُّ أنهارٍ، ولا جِبايةُ غَلاّتٍ، ولم يكن همّهُم غير الغارةِ، والغَزوِ، والصّيدِ، ورُكُوبِ الخيلِ، ومُقارعةِ الأبْطال، وطلبِ الغنائمِ، وتَدْويخِ البِلاد، كانت هِممهُم إلى ذلك مَصْرُوفةً، وكانت لهذه المعاني مُسخَّرةً، ومقصُورةً عليها، وموصُولةً بها، أحكمُوا ذلك الأمرَ بأسرِهِ، وأتوا على آخره، وصارَ ذلك هو صِناعتهم وتِجارتهم ولَذتهم وفَخرهم وحَديثهم وسَمَرهم، فلما كانُوا كذلك صارُوا في الحَرَب كاليُونانيين في الحِكمة، وأهلِ الصِّين في الصِّناعة، والأعْرابِ فيما عَددنا، وآلِ ساسان في المُلك والرِّياسة"[٣]. وهُو لا يعترفُ– بذا – للأتراك بثقافةٍ يَنمازُون بها، فقد وقفت بداوتُهم المُغرقةُ حائلاً مَنيعاً أمام رُقيهم في سُلمِ الحضارةِ، ولم تتشكل بِداعٍ من ذلك عناصرُ ثقافةٍ تُركيّةٍ خاصّة بهم.

ولعلّ الجاحِظَ اعتقدَ هذا الرّأي الذي يحصرُ الثّقافةَ في أُممٍ، ويستثني أُمماً أُخرى، بناءً على ما تناهت إليه معرفتُهُ بثقافاتِ هذه الأُمم التي أُتيحَ له أن يَتواصلَ مع تُراثها تَواصلاً جيّداً، عن طَريقِ النّقلِ النَّشطِ في ذلك العصر. وما من ريبٍ في أنّ الجاحِظَ عَرَفَ أُمماً أُخرى لها ثقافاتها القَوميّة، لكن لم يَتسنَّ له أن يطّلع عليها اطّلاعاً كافياً. وقد يكونُ دليلُ ذلك ما يتناثرُ في آثارِهِ الباقيةِ من إشاراتٍ إلى بعضِ تلك الأُمم كالدّيلمِ والأكْرادِ والخَزَرِ والصّينيين والصّقالبةِ والبَرْبَرِ وغَيرهم[٤]. بيدَ أنَّ

تلك الإشارات – على قيمتها – لم تفِ بِتَشكيلِ رُؤيةٍ واضحةِ المعالمِ لموقفِ الجاحِظِ الثَّقافيّ من هذه الأجناسِ، بعد ما وضعنا أمام حُكمٍ يُثيرُ إشكالاً حقيقيّاً، إذ يفتحُ على الجاحِظِ باباً من الاعتراضِ، يَسقطُ منه الدّليلُ على بعضِ مناطقِ الضّعفِ في موقفِهِ من الثَّقافاتِ الأجْنبيّةِ الوافدةِ.

المَلامحُ الرّئيسةُ في مَوقفِ الجاحِظِ

تراوحت المواقفُ التي اتّخذها أبو عُثمان منَ الثّقافاتِ غيرِ العَرَبيّة بينَ أربعةِ مَواقف يمُكن لِلدّارس أن يستجليها بالنّظر، وهذه المواقفُ– كما يُستبان– هي: مَوقفُ القَبول، ومَوقفُ الاعتذار، ومَوقفُ الشّكِّ، ومَوقفُ الاعتراض. وتَجهدُ هذه الدّراسةُ في سَبيلِ إلقاءِ ضَوءٍ على كُلِّ مَوقفٍ من هذه المواقف التي توصّل إليها البحثُ استقراءً بالرُّجوع إلى كِتاباتِ الجاحِظِ نفسِهِ، وفي مُقدمتها كتاباه المشهُوران: "الحَيَوان"، و"البَيان والتّبيين"، فضلاً عن آثارٍ أقلّ قيمة من ذينكَ المصدريْن المُهمّيْن، ابتغاءَ أن تكون النّظرةُ إلى الموقفِ الكُليّ دَقيقةً ومَنهجيّةً بقدرِ ما تأذن به الرُّوحُ العِلميّة. وقد قَصَدَ الباحثُ أن تكون النّظرةُ مُستمدةً من مورُوثِ الجاحِظِ نفسِهِ، من أجل تبيّنِ حَقيقةِ تلك الرُّؤية من الدّاخل، بعيداً عن المُؤثراتِ الخارجيّة.

أوّلاً: مَوقفُ القَبول

يتمثّل مَوقفُ القَبول في نَظرةِ الجاحِظِ الإيجابيّةِ إلى الثّقافةِ الإنسانيّةِ، وهي نَظرةٌ قَوامُها احترامُ ما عند الآخر ما دام مُنْسجماً مع مبدأ المنفعةِ التي تعودُ بالخيرِ على بني البَشر، مُوافقاً للعَقل، بعيداً عن التّعصبِ والانغلاق. فهو يرى في هذا السّياق أنّ لكُلِّ أُمّةٍ من الأُمم إبداعاتها وإنجازاتها الحضاريّة والثّقافيّة التي تعتدُّ بها(٥)، وأنّ كُلَّ أُمّةٍ أهدت إلى الحضارةِ الإنسانيّةِ أثمنَ هذه الإبداعات والإنجازات. فهو يُثمّن بيدِ الشُّكر– مِثالاً– ما قدّمته الحضارةُ الهِنديّةُ إلى الفِكرِ العِلميّ من

كُشُوفٍ حِسابيّةٍ رَقميّةٍ عاد جناها على البّشريّة برُمّتها: "ولولا خُطُوطُ الهِند لضاعَ من الحِسابِ الكثيرُ والبسيطُ، ولبطلت مَعرفةُ التّضاعيف"(٦).

ويُشيدُ– في غيرِ مُناسبةٍ– بما حقّقته الأُممُ من مُنجزٍ حضاريّ تعدّدت صُورهُ وأشكالهُ ومجالاتُهُ، كذكره ما تهيّأ للهِنودِ من نُبوغٍ في عُلُومٍ وفُنُونٍ عدّةٍ كالصّيدلةِ والطّبّ والنُّجوم والسّحر والنّحت والتّصوير والنّبات والصّيرفة والغِناء والطّعام والألعاب(٧)، ولا يفوته أنّ يدلّ على حِكمتهم التي استودعها كتاب "كَليلة ودِمنة"(٨). ويُطري – بالمِثلِ– تَفوّقَ الصّينيين في ألوانٍ من الصّناعات(٩)، ويُشيدُ كذلك بمدى تفوّقِ الفُرسِ في الحِكمةِ والخَطابةِ والسّياسة(١٠)، واليُونان في صِناعةِ الفَلسفةِ والمَنطقِ وعُلُومِ الكلام(١١).

ويبيّنُ أنّ تلك الأُمم تَسْعى جاهدةً في سَبيلِ حِفظِ ثَقافتها، واسْتبقاءِ تُراثها، بصُورٍ ووسائلَ شتّى، يقولُ: "فكُلُّ أُمّةٍ تَعتمدُ في استبقاءِ مآثرها، وتحصينِ مناقبها، على ضَربٍ من الضُّروب، وشَكلٍ من الأشكال"(١٢). ويَسوقُ أمثلةً على اختلافِ وسائلِ حِفظِ التُّراثِ الحَضاريّ والثّقافيّ عندِ بعضِ تلك الأُمم، فقد وجدَ أنّ العَجَم اعتمدوا البناءَ وتَشييدَ العَمائِر المُختلفة حِفظاً لتُراثهم(١٣)، وأنّ العَرَب شاركُوهم هذا الصّنيع(١٤)، فكان تُراثهم المِعماريّ: قُصوراً وحُصوناً وآطاماً وقِباباً وسُدوداً وقناطرَ وأعمدةً وأبواباً ونُصباً وغيرها وسيلتهم في استبقاءِ تُراثهم، على أنّ العَرَب – فيما يرى الجاحِظُ – عمدُوا إلى وسيلةٍ أُخرى لحفظِ ما لهم من مآثرَ، فكان الشِّعرُ دِيوانهم الذي حفظَ من تُراثهم ما لم يَستطعِ البُنيانُ حفظُهُ(١٥).

وضَرَبَ مِثالاً على عنايةِ الزَّنادقة – أشهرِ دُعاةِ الثّقافةِ الدّينيّةِ الفارسيّةِ في ذلك العصر– بتُراثهم المُدوّن، إذ كانوا يجتهدُون أيّما اجتهادٍ في سَبيلِ العِنايةِ بكُتُبهم ومُدوناتهم، فيُعنون بتخيّر ورقها الأبيض النّقي، وحِبرها الأسود البرّاق،

ويُغالون في استجادةِ الخطِّ والزَّخرفة، ويبذلُون من أجلِ ذلك أموالاً طائلةً، ويعدّون ذلك كُلّه ضَرباً من الدِّيانةِ والنُّسكِ والزُّلفى[١٦].

وخَلصَ الجاحِظُ إلى أنّ أدقَّ وسائلِ الحِفاظِ على الموروُث الثَّقافيّ الأُمميّ تقييده بالكُتُب المُدونة التي تُعبّر عن حقيقةِ ذلك التُّراث أكثر من غيرها، يقولُ: "الكُتُب أبلغُ في تقييدِ المآثرِ من البناءِ والشِّعر"[١٧]، وحُجّته في ذلك أنّ التُّراثَ الثَّقافيَّ أقدرُ على البقاءِ والصُّمود من التُّراثِ الحضاريّ الذي يتعرّضُ بسببِ انقلابِ الدُّولِ وتبدّلِ الممالكِ إلى العَبَثِ والتّدميرِ والهَدم من المُتسلّطين الجُدُد الذين لا يألون وسعاً في سبيلِ طَمسِ ما يقدرُون على طَمسهِ من المعالمِ الحضاريّةِ التي تشهدُ للدُّولِ التي انقلبُوا عليها[١٨].

ومضى يَضربُ أمثلةً واقعيّةً لما أصاب التُّراثَ المِعماريَّ المَشِيدَ- على مَدارِ حلقات التّاريخِ الإنسانيّ- من مَعاولِ الهَدم والنَّقضِ، لأسبابٍ دِينيّةٍ وسياسيّةٍ، يقولُ: "والكُتبُ أولى بذلك من بُنيان الحجارةِ وحِيطان المَدَر؛ لأنَّ من شأنِ المُلُوك أن يطمُسوا على آثارِ من قبلهم، وأن يُميتوا ذكرَ أعدائهم، فقد هدمُوا بذلك السّببِ أكثرَ المُدنِ وأكثرَ الحُصُون، كذلك كانُوا أيّامَ العَجَم وأيّامَ الجاهليّة، وعلى ذلك هم أيّامَ الإسلام، كما هَدمَ عُثْمانُ صَوْمعةَ غُمْدان، وكما هَدمَ الآطامَ التي كانت بالمدينة، وكما هَدمَ زيّادٌ كُلّ قصرٍ ومصنعٍ كان لابن عامر، وكما هَدمَ أصحابُنا بناءَ مُدنِ الشّاماتِ لبني مَروان "[١٩].

ولَعلّ اللافتَ أنّ المُثُل التي يَسوقها الجاحِظُ تَقعُ ضمنَ دَوائرِ التّاريخِ الإسلاميّ، وكأنّما أراد أن يُفارقَ بين جَوهرِ ما دعا إليه الإسلامُ من الحُريةِ وعدمِ الإكراه ودفعِ الضّررِ، وما مارسته طوائف من المُنتسبين إلى هذا الدِّين العظيم من سُلُوكاتٍ جافت ذلك الجوهرَ المِثالي النّبيلَ الذي رسمه لأتباعه. ولَعلَّ الجاحِظَ لم يجد في جَعْبته شَواهدَ حادثةً على ما تعرّض له التُّراثُ الثَّقافيُّ المُدوّن من كَوارثَ

بمدعاةٍ من تَقلباتِ السّياسةِ التي أتت على كثيرٍ ممّا دوّنه المغلُوب من مَعارفَ وعُلُومٍ وفُنُونٍ أتلفها الغالبُ؛ انتقاماً من خصمهِ البائد، وما زلنا إلى اليومِ – وبعد الرُّقي الحضاريّ الذي وصلت إليه الشُّعوبُ والأُمم– نرى شَواهدَ مماثلةً من هذا الفعلِ الهَمجيّ القَبيح.

وقد يكونُ الجاحِظُ مُحقّاً فيما ذَهبَ إليه من جِهةِ أنَّ التُّراثَ المُدوّنَ يَنمازُ عن التُّراثِ المشِيدِ بسيرورتهِ، وانتقالهِ من مكانٍ إلى آخر، ومن جِيلٍ إلى جِيل، فهو على تلك الحال قابلٌ لِلحِراكِ والرِّحلةِ والتّنقال، فالكتابُ الذي يُمثّل أرقى إنجازٍ ثقافيٍّ مورُوث يَسُهلُ نقلُهُ من مكانٍ إلى آخر، وإنْ سَلم من عوادي الدّهرِ أمكن انتقالُهُ من قَرنٍ إلى قَرن، على نحوِ ما انتقل إلينا كثيرٌ من تَرِكةِ التُّراثِ الخَطيّ الذي أنتجته الحضارةُ العَرَبيّةُ الإسْلاميّةُ. وأمّا التُّراثُ المِعماريّ– كالصُّروح والقُصور والمباني العِظام– فإنّه يثبتُ – حتماً– في مكانِ بنائه لا يِرَيمُ، ولا يَتزحزحُ ما تعاقب الزّمان.

وتعبيراً عن نَظرتهِ الإيجابيّةِ إلى الثَّقافةِ الإنسانيّةِ وقواسمها المُشتركةِ، قرّرَ الجاحِظُ أنّ البلاغةَ مُكْتسبٌ مُشْتركٌ في الأُمم كُلّها، فهي أمرٌ فِطريٌّ، فالإنسانُ – عند الجاحِظِ – فَصيحٌ، وإنّ عبّر عن نَفسِهِ بالفارسيّة أو الهِنديّة أو الرُّوميّة، أو غيرِ ذلك من الألسنة[٢٠]. وفي مُكنةِ القارئ أن يلقى في كتاب "البَيان والتّبيين" أحاديثَ يسوقها الجاحِظُ – هُنا وهُناك– عن البلاغةِ الأعجميّة: هنديّة وفارسيّة ويونانيّة ورُوميّة، مُعزّزةً بنماذجَ من الأدبيّاتِ النّقديّةِ الأجْنبيّةِ التي ترد حِيناً في صُورة أسئلةٍ وأجوبةٍ مُشافهةٍ، وحِيناً في صُورةِ صحائفَ مكتُوبة نَقَلَ الجاحِظُ نُصُوصَها المُترجمةَ، وقد ترد في أحايينَ أُخرى في غيرِ ذلك من الصُّور[٢١].

وانْدغاماً مع هذه الرُّؤية، ذَهَبَ الجاحِظُ إلى قَولتهِ النَّقديّةِ المشهُورة: "المعاني مَطرُوحةٌ في الطّريقِ يعرفها العَجَميُّ والعَرَبيُّ"[٢٢]، ولئن كان القُدماء والمُعاصرُون

أفاضُوا في تأويلِ هذه المَقولةِ وتَفْسيرها على وجوهٍ كثيرةٍ، ومن أنحاء مُتعددةٍ، فإنّ الباحثَ ينظرُ إليها – فضلاً عن تلك الأنْظار– من بُعدٍ آخر، فيجد أنّها تحملُ في أعْطافها دَليلاً ناصعاً على مدى إيمانِ قائلها بالرَّوابطِ المُشتركةِ التي تَقومُ بينَ الثَّقافاتِ المُختلفة التي تَتفاعلُ عناصرُها وتتلاقحُ أفكارُها، بما يُفضي إلى تلاقي المعاني في التّعبيرِ عن الفِكرِ الإنسانيّ المُشْترك.

كما قرّرَ بالمِثل أنّ الحِكمةَ إحدى المكنُونات الموجُودة عندَ كُلِّ أُمّةٍ من الأُمم، وأنّها ليست حِكراً على أُمّةٍ بعينها، يقولُ: "ووجدنا كون العالمِ بما فيه حكمة"[٢٣]. وهكذا، فإنّ الجاحِظَ يُقدّم ما يُعزّز موقفَهُ، فهو يُؤمنُ بالرّوابطِ المُشتركةِ التي تلتقي عندها الثّقافاتُ، ودِلالةً على ذلك أنّه نحى ببعضِ تآليفهِ منحى العالميّة، في منظُورِ ذلك العَصر، فقد نَشَدَ لِكتابهِ الموسُوعيّ "الحَيَوان" أنْ يكون كتاباً أُمميّاً: "تَسْتوي فيه رغبةُ الأُمم، وتَتَشابه فيه العُرْب والعَجَم؛ لأنّه وإنْ كان عَربيّاً أعْرابيّاً وإسْلاميّاً جَماعيّاً، فقد أخذَ من طُرفِ الفلسفةِ، وجمعَ بين مَعرفةِ السّماعِ وعِلمِ التّجربة"[٢٤]. ولَعلَّ هذه الوِجهة المُبكرة تكون من أسبقِ المُثُلِ على تَفكيرِ المُؤلّفِ العَرَبيّ – قَديماً – في تَقديمِ لونٍ جديدٍ من الكتاباتِ التي تتغيا العالميّةَ، مُفيدةً من امتدادِ آفاقِ الثَّقافةِ العَرَبيّةِ وتجلياتها الكَونيّة.

وبناءً على قَبول الجاحِظِ بالثَّقافاتِ الأجْنبيّة، مضى يبذرُ في نِتاجه العِلميّ أشتاتاً من المأثُورات المنقُولةِ عن الفلاسفةِ والحُكماءِ غير العَرَب، ممّا وجد فيه نَفعاً وفائدةً، وسَبيلاً إلى العِبرةِ والعِظة، ولَعلَّ نُقولَهُ عن مشاهيرِ اليُونان كأرسطو وإقليدس وجالينيوس وأبقراط وبطليموس وأفليمون وديمقراط وديسيموس وغيرهم[٢٥] تكون أوضح المُثُل على هذا المنحى، فضلاً عمّا نلقاه مبثُوثاً في كِتاباتهِ من منقُولاتٍ، ولا سيّما عن مشاهيرِ الفُرس[٢٦]، والهُنود[٢٧]، وغيرهم من الشُّعوبِ والأُممِ القديمةِ كالصّينيين والرُّوم والتُّرك والزّنج[٢٨]. وقد شكّلت المادةُ المنقولةُ عن أرسطو

– خاصّةً– رافداً مُهماً من الرَّوافدِ التي استمدَّ منها مَوادَّ كتابه "الحَيَوان"، ولا سيّما أنّ أرسطو كان سبّاقاً إلى التّأليفِ في هذا الموضُوع قبل الجاحِظِ بقُرونٍ طويلةٍ.

ويُمكنُ لِلنّاظرِ في تاريخِ حَركةِ التّأليفِ عندَ العَرَب أن يَتبيّن بجلاءٍ أنّ الجاحِظَ كان من عُلماءِ الصّدرِ الأوّلِ الذين أخذُوا يَتوسعُون في استيعابِ أشتاتٍ من المنقُولاتِ الأجْنبيّةِ فيما يضعُونه من تصانيفَ اتّخذت سَمتَ كُتُبِ الأدبِ العام. وإذا كان ابنُ المُقفّعِ ولَفيفٌ من الكُتّاب الفُرس المُتأثرين به ذرعُوا هذه السّبيل، ونَدَبُوها لمن بعدهم، فإنّ الجاحِظَ– المُعتدَّ بالثّقافةِ العَرَبيّةِ الإسْلاميّةِ– استطاعَ أن يَجعلَ هذا الاتجاهَ أكثرَ انضباطاً، وأجدى تَوظيفاً، بما ينفعُ الثَّقافةَ العَرَبيّةَ الإسْلاميّةَ نفسَها، ويَعودُ بالثِّمارِ الإيجابيّةِ عليها.

واعترافاً بِفضلِ ما قدّمه عُلماءُ العَجَم من جُهُودٍ لا يَصحُّ نُكرانها، رأى الجاحِظُ أنّ كُتُبهم الحكميّة أعمّ نفعاً، وأبقى فائدةً من الشِّعر، وهو لا يَخصّ –ههُنا– الشِّعرَ العَرَبيَّ، بل ينظرُ إلى النّوعِ الأدبيّ، مع إطباقِ الطَّرفِ عن بيئةِ إنتاجِهِ، أو جِنسِ مُنْتجِهِ. فقد ذهبَ إلى تسمية الحِكمة "الأدب المبسُوط"[٢٩]، بينما سمّى الشِّعر "الأدب المقصُور"[٣٠] وهما تسميتان لهما دِلالاتٌ نقديّةٌ واضحةٌ، تُفصحُ عن رأى الجاحِظِ في تَفضيلِ الحِكمةِ على الأدبِ، بالنّظرِ إلى مدى تحقّقِ المُتعةِ والمَنفعةِ في اللّونين كِليهما.

وهو لا يُقلّلُ من قِيمةِ الأدبِ الذي يَقتصرُ نَفعُهُ على أصحابِهِ ومُتذوقيه، بما يُحقّقه من لَذةٍ ومُتعةٍ وجمالٍ[٣١]، بل يُقرّرُ صَراحةً أنّ المورُوثَ العِلميّ أمسُّ بالحياةِ وأنفعُ للبقاءِ، وأخدمُ للجنسِ البَشريّ، من المورُوثِ الأدبيّ، من غيرِ إنكارٍ لأهميته[٣٢].

وانتقلَ بموضُوعيّةٍ مُتجرّدةٍ إلى الاعترافِ بأسبقيّةِ الثَّقافةِ اليُونانيّةِ لِلثَّقافةِ العَرَبيّةِ، بما يُوجبُ الإقرارَ بعَراقةِ الثَّقافةِ السّابقةِ، من غيرِ انتقاصٍ لِقيمةِ الثَّقافةِ

المسبُوقةِ، وهو يضعُ يدَهُ –هُهنا– على العاملِ التّاريخيّ الذي وقفَ إلى جانبِ الثَّقافةِ اليُونانيّةِ الضّاربةِ في عُمقِ الزّمن، يقولُ: "وأمّا الشّعرُ، فحديثُ الميلادِ، صغيرُ السّنِ، أوّلُ من نَهَجَ سَبيلَهُ وسَهّلَ الطّريقَ إليه امرؤ القَيْس بنُ حُجر ومُهَلهل بنُ رَبيعة، وكُتُبُ أرسطو طاليس، ومُعلمه أفلاطون، ثُمَّ بطليموس وديمقراطس، وفُلان وفُلان، قبلَ الشِّعرِ بالدُّهورِ قبلَ الدُّهورِ، والأحْقابِ قبلَ الأحْقاب"[٣٣] وهو يُقرّرُ صَراحةً أنّ الحِكمةَ اليُونانيّة ولدت قبلَ الشِّعرِ العَرَبيّ بزمنٍ طَويلٍ، ممّا أكْسبَ الثَّقافةَ اليُونانيّةَ عَراقةً بداعٍ منَ السّبقِ والقِدم.

وأفْضى مَوقفُ القَبول بالجاحِظِ إلى التّأثرِ بالأفكارِ والآراءِ التي اطّلع عليها تأثراً واضحاً، فقدَ استمدَّ من الموروُث اليُونانيّ والفارسيّ والهِنديّ، وشكلّت هذه الثّقافاتُ مَورداً مُهماً أمدّه بطاقاتٍ جديدةٍ في الكِتابةِ، ولا شكَّ أنّه وقفَ في الموروُثِ الثَّقافيّ غيرِ العَرَبيّ الذي طالعهُ على أنماطٍ جديدةٍ من التّفكيرِ والبحثِ لم تكن مألُوفةً من قبلُ، فأفاد منها مادةً ومَنْهجاً، وطَوّر – مُوظفاً مُعطياتها– من أساليبِ تَفكيرِهِ وطَرائقِ تناولهِ الموضُوعات.

ومن مظاهرِ هذا التّأثر أنّه لجأ في مَواقفَ عِدّةٍ إلى الاستعانةِ بمقُولاتِ أرسطو العِلميّة[٣٤]، سواء في تأييدِ وجهةِ نظرِهِ، أو الردِّ على المُخالفين له، ورُبّما اعتمدَ رأي أرسطو لِبيانِ عدمِ صحةِ بعضِ الأفْكارِ غير العِلميّةِ الشّائعةِ. وحسب النّاظر أن يُلقي نظرةً على المادّةِ الثَّقافيّةِ الأجْنبيّةِ التي استقاها الجاحِظُ في كتابه "الحَيَوان"، ممّا يقومُ دليلاً على اتّساعِ الأُفقِ الجاحِظيّ وفاعليتهِ، وقُدرتهِ على استيعابِ الآخرِ، واستدعاءِ ألوانٍ من ثقافتهِ، من غيرِ انغلاقٍ وتقوقعٍ.

والحقُّ أنّ تأثّرَ الجاحِظِ بالثَّقافاتِ غيرِ العَرَبيّة تَلامَحَ في مواقفهِ الأدبيّةِ والنّقديّةِ والفكريّةِ، كما تراءى في مَنهجهِ وطَريقةِ بحثه، ممّا بَسطهَ نَفرٌ من الباحثين في هذه

البابة[٣٥]. وليسَ من مَدْفَعٍ في أنّ الجاحِظَ اطّلعَ على الثَّقافاتِ غيرِ العَرَبيّة، وتأثّرَ بمُعطياتها، فذلكم هو البَدهيّ الذي لا يَستطيعُ أحدٌ إنكاره. بيدَ أنّ نَفراً من أُولئك الدّارسينَ أعيـنهم ضَـخّموا مـن شـأنِ هـذا الأثـر، ونَفخُـوا فـي جَوانبـهِ، فأحـالوا– مُبالغينَ– كثيراً ممّا خَرَجَ عن الجاحِظِ إلى المُؤثرِ الأجْنبيّ، ونَسبُوا طائفةً واسعةً من آرائهِ وأفكارهِ وأُطروحاتهِ وإبداعاتهِ إلى الأثريْن: الفارسيّ واليُونانيّ، على وجهٍ خاصّ، ممّا أحال الجاحِظَ إلى مُتلقٍّ مُحاكٍ، مع أنّه كان مُبدعاً أصيلاً، وكان – فضلاً عن ذلك– يَصْدُرُ عن وعي فيما يأخذهُ عن الآخر.

ويكفي أن يُشارَ في هذا السّياق إلى مِثالٍ واحدٍ على مَسألةِ مُبالغةِ بعضِ الدّارسينَ المُعاصرينَ في صَرفِ كثيرٍ من مَناحي العَطاءِ الجاحِظيّ إلى مُؤثراتٍ أجْنبيّة، فقد ذَهَبَ شوقي ضَيف، بالرُّغم مما عُرفَ عنه – رحمه اللهُ– من وعي واعتدالٍ، إلى أنّ الجاحِظَ أقام رسالةَ "التّربيع والتّدوير" على فِكرةِ الأوساطِ التي استعارها من النّظريةِ الخُلقيّةِ اليُونانيّة[٣٦].

ولا شكّ أنّ مِثلَ هذا القولَ لا يَقومُ عليه دَليلٌ، ولا تَسندهُ حُجّةٌ صَريحةٌ، بل هو مُحاولةٌ لِتفسيرِ إبداعِ الجاحِظِ، تنقصُها الأدلةُ الموضُوعيّةُ والفنيّةُ، فإنّ الجاحِظَ كان – بحُكمِ ثقافتهِ العَرَبيّةِ الإسْلاميّةِ العميقةِ– عارفاً بفِكرةِ الأوساطِ في أُصولها العَرَبيّةِ الإسْلاميّةِ، ولا شكَّ أنّه كان قادراً على الإفادةِ من طاقاتِ هذه الفِكرةِ من غير حاجةٍ إلى أن يَسْتعيرَها من اليُونان ما دامت موجُودةً – بشكلٍ أو بآخرَ – في ثقافتهِ العَرَبيّةِ الإسْلاميّةِ.

وإلى جانبِ ما تعرّضَ له الإبداعُ الجاحِظيُّ من استلابِ بَعضِ المُعاصرين، بإحالتهِ إلى مُؤثرٍ خارجيّ، اتّهمه بعضُ القُدامى بالسّطوِ على كِتاب أرسطو في "الحَيَوان"، يقولُ عبدُ القاهر البغداديّ في سياقِ تَشنيعهِ على الجاحِظيّةِ وانتقادهِ

كُتُبَ الجاحِظِ: "ومنها كِتابُ (طبائع الحَيَوان)، وقد سلخَ فيه معاني كِتاب (الحَيَوان) لأرسطو، وضمّ إليه ما ذكره المدائني من حِكمِ العَرَب وأشعارِها في منافعِ الحَيَوان"(٣٧). وواضحٌ للعِيان أنّ التُّهمةَ التي يُطالعنا بها البغداديّ تُصيبُ الجاحِظَ في الصّميم، فهو أمام تُهمةٍ علميّةٍ قوامها السّلخُ من كُتُبِ الآخرين، فما حقيقةُ السّلخ؟ وأين يُمكن تصنيفُهُ من قضيةِ السّرقاتِ العِلميّة؟

إنّ السّلخَ الذي أُتّهم به الجاحِظُ ذُو صُورٍ وأشكالٍ عَديدةٍ تناولها النُّقادُ العَرَبُ القُدامى في بحثهم قَضيةَ السَّرقاتِ الأدبيّة، لَعلَّ أشهرها وأشيعها استبدالُ اللفظِ بمعنًى مُرادف له(٣٨)، وقد لجأ الجاحِظُ إلى هذا الصّنيعِ – فعلاً – مدفُوعاً إليه بداعٍ من رَكاكةِ الصّياغةِ التي كانت تُسيطرُ على كثيرٍ من التّرجماتِ العَرَبيّة المنقُولة عن اليُونان زَمنذاك، وقد أبدى تذمّرَهُ –غيرَ مرةٍ– من سُوءِ هذه المُترجمات ورَداءةِ أساليبها(٣٩)؛ ممّا جعلهُ – وهو صاحبُ الأُسلوبِ الأدبيّ المُشرقِ – يَستبدلُ لَفظاً بلفظ، ويُعيدُ النّظرَ في تَركيبِ الجُمل؛ تطلّباً لقُوة العبارةِ، وحُسنِ سَبكِها، ومُناسبةً للأُسلوبِ العَرَبيّ المتين.

لقد تأثّر الجاحِظُ– من غير شكٍّ– بأرسطو تأثّراً قويّاً، وأفادَ منه إفادةً واضحةً في كِتاباتِهِ المُختلفة، لا سيّما في كتابه "الحَيَوان"، إذ كان أرسطو سبَّاقاً إلى التّأليفِ في هذا الموضُوع، وتتراءى مَسألةُ التّأثرِ– هُنا– مَشْرُوعةً، بل لَعلّها تَبدو ضَروريةً، فالجاحِظُ وقد أخَذَ على نَفْسه أن يضعَ مَرجعاً عَرَبيّاً ضافياً في الحَيَوان، كان جَديراً به أن يَسلكَ مَنهجاً عِلميّاً يُفيدُ من الجُهُود التي سبقته في هذا المِضْمار، كما هي حالُ المُؤلفينَ المنهجيينَ الذين يَستكملُون ببحُوثهم مَعارفَ غيرهم، ويتواصلُون مع الأدبيّاتِ السّابقةِ فيما يتناولونه، كون المعرفة العِلميّة منطقة مُشْتركة، تتضافرُ فيها جُهُودُ السّابقِ واللاحق.

ومن هُنا، جاءت إفادتُهُ من أرسطو دليلاً على مَنْهجيته العِلميّة الرَّصينة، ورُبّما يكونُ الدليلُ على دقّةِ هذه المنهجيّةِ وموضُوعيتها أنّه صرّح بالنّقلِ عن أرسطو نَقْلاً صَريحاً في أكثر من ستينَ مَوضعاً من كِتاب "الحَيَوان"(٤٠)، وذكر في بضعةِ مَواضعَ كِتاب "الحَيَوان" لأرسطو صَراحةً(٤١). كما صَرّح بالنّقلِ عن المدائنيّ في أكثر من ثَلاثين مَوضعاً أيضاً(٤٢). ومن المُؤكدِ أنّه تَركَ مَواضعَ أُخرى أومأ إليها إيماءً، أو تعمّد إغْفالها؛ لأنّ واقعَ التّوثيقِ العِلميّ في عَصْر الجاحِظ كان لَيّناً، ولم يكن صارماً أو دَقيقاً، كما تَطْلبهُ المناهجُ العِلميّةُ الحديثة(٤٣).

وتَميلُ طريقةُ الجاحِظِ في النّقلِ عن أرسطو إلى تَسجيلِ المعنى العام أحياناً، وقد تظهرُ الحقائقُ المُتفرقةُ عند أرسطو مُركّزةً عند الجاحِظِ، وقد يُعقّب الجاحِظُ على رِواياتِ أرسطو، أو يَشكّ فيها، فهيبةُ أرسطو العلميّة لم تكن لتقفَ حائلاً مَنيعاً من أن يتّخذَ الجاحِظُ مَوقفَ الشَّكِّ، أو الردّ، أو النّقدِ لهذه الرِّوايات التي نقلها، لا أن يأخذها مُسلّمةً على سَبيلِ الحقائقِ العِلميّةِ التي لا تَقبلُ الأخذَ والردّ(٤٤).

وهكذا يمُكن القولُ: إنّ الجاحِظَ لم يَرضَ أن يكون مُقلّداً لأرسطو، أو ناقلاً، بل أراد أن يكون ندّاً، أو مُنافساً له، يُباريه في هذا المِضمار، ويعترضُ عليه، وينتقدُ آراءه، ما دام يَنطلقُ مُنطلقاً عِلميّاً صِرفاً. فالجاحِظُ – على الرُّغم من تأثّرِهِ بأرسطو – عَرَضَ مقولاتِهِ غير العِلميّةِ على المِحكّ، وراح يردّ عليها، ناقداً حيناً، ومُفنّداً حيناً آخر. أيّ إنّ قَبُولَ الجاحِظِ بالآخر لم يكن حائلاً من توجيهِ النّقدِ إليه.

ثانياً: مَوقفُ الاعْتِذار

وحتى لا يُساء إلى الثَّقافاتِ الأجْنبيّةِ المنقُولةِ إلى اللّسانِ العَرَبيّ فتُحمّل ما لا تَحتمل، وتُفسّر على غير الوجهِ الصّحيح الذي وضعت له أصْلاً، وَقَفَ الجاحِظُ

مُعْتذراً عمّا أصابَ التُّراثَ المنقُولَ إلى العَرَبيّة من مُشوهاتٍ أفضت إلى اختلالهِ واستغلاقهِ، حتى جاءت كُتُبه "مُختلفةً منقُوصةً مظلُومةً مُتغيرةً"(٤٥). واتّهم فريقاً من التّراجمةِ والنّقلةِ الذين خانُوا هذا التُّراث إذ لم يفهمُوا كُنههُ، ولم يتهيّأ لهم الوقُوف على مراميه الدّقيقة(٤٦).

ورأى أنّ التُّرجمانَ مهما كانت مُكنته في اللُّغةِ الأُخرى، فإنّه لا يَستطيعُ الوفاءَ بحقّ الفِكرةِ التي رام صاحبُها التّعبيرَ عنها، يقولُ: "ومتى كان – رحمه اللهُ – ابنُ البطريق وابنُ ناعمة وابنُ قُرّة وابنُ فِهريز وثيفيل وابنُ وهيلي وابنُ المُقفّع مثل أرسطا طاليس؟ ومتى كان خالد مثل أفلاطون؟"(٤٧). ويقولُ في موضعٍ آخر: "ولن تجد مُترجماً يفي بواحدٍ من هؤلاء العُلماء"(٤٨). فهو يُفارقُ بين صَنيعِ المُؤلفينَ وتشويهِ المُترجمينَ، ممّا أساءَ إلى الأصلِ، وحرّفهُ عن وِجهتهِ المقصُودة.

وساق الجاحِظُ – في غير مَوقفٍ– اعتذارياتِهِ عمّا نقل المُترجمون الحرفيّون من كلامِ أرسطو، فخرجَ مُشوّهاً على غير ما أراد له واضعُهُ، يَقولُ في مَعرضِ تَعليقهِ على خَبرٍ وَرَدَ في النُّسخةِ المُترجمةِ من كِتاب "الحَيَوان" لأرسطو: "ولا أعلمُ هذا من قَولِ صاحبِ المنطقِ.... ولعلّ المُترجمَ قد أساء في الإخْبارِ عنه"(٤٩). وشخّصَ الجاحِظُ الإشْكالَ الواقعَ فيما نُقل من تُراثِ الأُممِ الأُخرى، فعزا ذلك إلى كَذبِ التّراجمةِ وتزيدِهم وسُوءِ فَهمهم، مع جَهلِ طائفةٍ منهم بدَقائقِ اللُّغةِ التي يَنقلُون عنها(٥٠).

وأضافَ إلى ذلك فِعلَ النُّساخِ في تَشويهِ المنقُول، وقد عدّ الجاحِظُ صَنيعَ هؤلاء النَّسَخَةِ آفةً من أعظمِ الآفاتِ التي ابتُلي بها التُّراثُ الأجْنبيُّ المُعرّب، إذ عاثت أيديهم فَساداً في النَّسخِ الخاطئ الذي يُخْرجُ الكَلامَ عن حَدّه، وقد تَعظمُ البَليةُ– في نظرِ الجاحِظِ– إذا تَعاورَ النُّساخُ على نُسخةٍ مُحرّفةٍ أعجزهم

تَصحيحُها، وإصلاحُ السّقطِ فيها، فعند ذلك نَصيرُ أمام نُسخةٍ شوهاءَ ضَرَبَ الخطأُ فيها أطنابَهُ، واستغلقَ الفَهمُ على قارئها(٥١).

ولم يُغفل أبو عُثمان الإشارةَ إلى العامل التَّاريخيّ الذي فَعَلَ فِعلتهُ في هذا التُّراث تَحريفاً وتَشويهاً، فإنّ التّقادمَ والتّعاقبَ وانْفساحَ الزّمنِ بين تأليفِ هذا التُّراث بلُغاته الأصيلةِ وترجمته إلى العَرَبيّة أتى بجناياته على هذا التُّراث، وجرَّ عليه من الفسادِ والتّشويهِ ما يستوجبُ التّماسَ العُذرِ لمؤلفيه، يقولُ: "فما ظنّكم بكِتابٍ تتعاقبه المُترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخُطّاطُ بشرٍّ من ذلك، أو بمثله، كِتابٍ مُتقادمِ المِيلادِ، دَهريّ الصّنعة "(٥٢).

واعْتذرَ – في السّياقِ نفسهِ– عما يَعْتري قارئَ الكُتُبِ اليُونانيّة – ككُتُب أرسطو وإقليدس خاصّةً– من سُوء الفَهم، حتى لو كان القارئُ بليغاً مُتمكّناً من اللُّغة. وليسَ هذا الأمرُ عائداً – وَفقَ تَفسيرِ الجاحِظِ– إلى استغلاقِ النّصّ اليُونانيّ المُصفّى الذي أجاد المُترجمُ نَقلَهُ، وإنمّا يَرجعُ إلى طَبيعةِ الصّياغةِ الكلاميّة، بما يَسودها من الاصطلاحِ المنطقيّ الخاصّ الذي لا يتأتّى لِلبليغِ أن يَفهمهُ، ويعرفَ دِلالاتِهِ الدّقيقة ما لم يُعانِ مَعرفةَ تلك الدِّلالات، ويتمرّس في فَهم حُدُودها ومَراميها، ويُدرك الطّرائقَ الفنيّةَ التي يستعملها المناطقةُ في كِتاباتهم التي لا تُقرأُ على ظاهرِ ما تُقرأُ عليه غيرُها من الكُتُبِ الأُخرى(٥٣).

ووقفَ أبو عُثمان في بَعضِ الأحايين مُعْتذراً عن نفسهِ إذ لم يكن في مُكنتهِ الفَصْلُ في الإشْكالِ الواقع، ولا سيّما في الأخْبار المُتناقضة والرّواياتِ المُختلّة، بما يُفضي إلى تَبيّن وجهِ الحقيقةِ العِلميّةِ فيها(٥٤). ومن هذا الموقفِ المنهجيّ، يَسقطُ دَليلٌ آخرُ على مدى ما كان يتحلّى به الجاحِظُ من موضُوعيّةٍ، إذ سَلَكَ سَبيلَ العُلماءِ في التّوقّفِ في اتّخاذِ الحُكمِ إذا استشكلت الرُّؤيةُ وضاق فضاؤها، وعَسُرَ تبيّن وجه الصّوابِ مِنْ بَعدُ.

ثالثاً: مَوقفُ الشَّكّ

ووقفَ الجاحِظُ مَوقفَ الشَّكِّ في طائفةٍ من الأفكارِ التي مرّت به، وهو يَدرسُ الثَّقافاتِ الأُخرى، ولا سيّما تلك الأخْبار التي لا يطيقُ العَقلُ قَبولها، وتقومُ في النّفس أشياء تدعُو إلى عَدمِ مَنحِها الثّقة، بمعنى أنّه لم يكن ليطمئن إلى كُلِّ ما كانت تَقعُ عينُهُ عليه من مَقولاتٍ هُنا وهُناك، وإنْ كانت صادرةً عن كِبار العُلماءِ المُحقّقين كأرسطو الذي مضى الجاحِظُ – مع تأثره به – يُثيرُ الشُّكوكَ حولَ كثيرٍ من الآراءِ التي حكاها، ولا سيّما في موضُوعِ الحَيَوان الذي أعاده الجاحِظُ إلى مأدُبةِ البحثِ من جَديدٍ بعد ما رأى أنّ قدراً ممّا ساقه أرسطو – على الرُّغم من رِيادته – لا يَرقى إلى مُستوى القَبولِ، أو التّصديقِ، بسببِ مُجافاتهِ الواقعَ، أو تعارضهِ مع العَقل، أو مُخالفتهِ التَّجربةَ والعِيان.

وراحَ يَعرضُ علينا طائفةً من الأخْبارِ الغَريبةِ الأرسطيّة مُصّدراً أكثرَها بعبارتهِ النّمطيّةِ: "زَعَمَ صاحبُ المنطق....."[٥٥]، وقد ترددت هذه العبارةُ في كِتاب "الحَيَوان" عشرات المرات. ولَعلّ استفتاحَ العبارةِ بالفعل "زَعَمَ " يُوحي بموقفِ الجاحِظِ المُتشكِّكِ بما يَقولهُ أرسطو، حتّى إنّه ليجعلُ قَوْلةَ أرسطو تلك زَعماً، أيّ مَحضَ قَولٍ تنقصهُ الأدلةُ التي تَعضدُهُ.

وأعْملَ الجاحِظُ مَنهجَ الشَّكِّ – بالمِثل– في العَديدِ من المرويّات التي نقلها عن الفُرسِ والهُنودِ، وكثيراً ما طالعنا بشكُوكهِ التي تدورُ حول "الزّعم" الذي دمغَ به كثيراً من آراءِ أرسطو، من مثل قوله: "زَعَمَ /تَزْعُمُ الفُرس...."[٥٦]، و"زَعَمَ المجوس...."[٥٧]، و" زَعَمَ زرادشت...."[٥٨]، و" تَزْعُمُ الهِند...."[٥٩]، و"زَعَمَ الهِنديّ صاحبُ كِتاب الباه"[٦٠]، ونظائر هذه العبارات التي تَشفُّ بجلاءٍ عن مَوقفِ الشَّكِّ العِلميّ الذي رسخّه الجاحِظُ ونبّه إلى مُوجباته المنهجيّةِ حين قالَ: "فاعرف مَواضعَ الشّكِّ وحالاتها المُوجبة، لِتعرفَ مَواضعَ اليقينِ والحالاتِ المُوجبة له"[٦١].

وقادَ هذا الموقفُ المَنهجيّ الجاحِظَ إلى الشَّكِّ في الموروُثِ النَّثريّ الفارسيّ الذي كان يَغمرُ الأوساطَ الأدبيّةَ في العَصرِ العبّاسيّ، من رسائلَ وسيرٍ وعُهُودٍ ووصايا، وغيرها من الأجناسِ الأدبيّة، ممّا شاعَ تداولُ ترجماتِهِ آنذاك، إذ رأى أنّ هذه المأثُوراتِ التي عُزيت إلى العَصر السّاسانيّ رُبّما تكونُ من صَنيعِ الكُتّاب، أو التّراجمة، ذَوي الأُصولِ الفارسيّة، ألّفوها على نَسقِ ما هو منقُولٌ عن الفُرس، ونحلُوها بني قَومهم، إمّا رَغبةً في التّكثرِ، وإمّا إظهاراً لِلتميز، إذ ليس ثمّة ما يُؤكّدُ أن تكونَ تلك المنقُولات "صحيحة غير مصنُوعة، وقديمة غير مولُدة، إذ كان مِثلُ ابنِ المُقفّع وسَهلِ بن هارون وأبي عُبيدِ الله وعبدِ الحميد وغَيلان يَستطيعُون أن يولّدوا مِثلَ تلك الرّسائل، ويصنعُوا مِثلَ تلك السِّير"[٦٢]. ولَعلّ مقولةَ الجاحِظِ هذه تكونُ من أوائلِ الإشاراتِ النّقديّةِ العَرَبيّةِ- على قِلتها- إلى مسألةِ النّحلِ الواقعِ في الفنِّ النّثريّ، بعد ما طالعتنا إشاراتٌ كُثرٌ إلى مسألةِ النّحلِ في الفنِّ الشّعريّ.

وفي السّياقِ نَفْسهِ، أبدى الجاحِظُ شَكّه في كثيرٍ من المرويّات التي عُزيت إلى كَعْب الأحْبار ممّا يُعرفُ بـ "الإسرائيليات"، وأظهرَ الشَّكَّ من جانبين: أحدهما أنْ يكون النّاقلون تزيّدوا في الوضعِ عليه، فنسبُوا إليه ما لم يقل، أو نسجُوا على غِرار الأخْبارِ والمرويّاتِ التي كان يُحدّث بها فعلاً. وثانيهما أنْ يكون كَعْب نفسُهُ وضعَ أخباراً وحكاياتٍ ثمّ نحلها بني إسرائيل[٦٣]. والوجهان مُحتملان، وإن كان أولهما أسلم في توجيهِ القضيةِ من اتّهام كَعْبٍ بالوضع، فهو – فيما نعتقد- أجلّ من أن يقومَ بفعلٍ كهذا. والوجهان يُعبّران في نِهاءِ الأمرِ عن مدى قُوةِ حاسةِ الشَّكِّ عند الجاحِظِ، وإخضاعهِ التُّراثَ الدِّينيَّ المنسُوب إلى الأُمم الأُخرى إلى المُحاكمةِ والنّقد.

رابعاً: مَوقفُ الاعْتراض

أفضى مَوقفُ الجاحِظِ المُتشكّكِ إلى تَسجيلِ اعتراضاتِهِ النّقديّةِ على الثّقافةِ الأجْنبيّةِ التي تواصلَ معها، وهو يَنطلقُ في ذلك من اعتدادِهِ بالثّقافةِ العَرَبيّةِ الإسْلاميّةِ وإيمانهِ بتميّزها، فالعَرَبُ عنده "الحُجّةُ على جميعِ أهلِ اللُّغات"(٦٤)، وهو يُؤسسُ هذا الرّأي استناداً إلى رُؤيةٍ دِينيّةٍ، ناظراً إلى نُزولِ القُرآنِ الكَريمِ باللّسانِ العَرَبيّ المُبين. ولكنّه لا يَعدمُ –في الوقتِ نَفْسهِ– في العَرَبِ مِيزاتٍ تجعلهم – في نظرهِ – أنطقَ وأبينَ من غيرهم، فهو يُشيرُ إلى ما اجتمعَ في العَرَبيّ نَفْسهِ من القُدرةِ الفائقةِ على البَديهةِ والارتجالِ والاقتضابِ ممّا لا يَقدرُ عليه غيرُهُ(٦٥).

ويتحدّثُ في الجانبِ الآخر عمّا تختزنهُ العَرَبيّةُ نفسُها من طاقاتٍ تَشهدُ بسعتها وقُدراتها التّعبيريّة وغِنى دِلالاتها(٦٦). ولكنّه فيما يُقابلُ ذلك، وقفَ من اللُّغاتِ الأُخرى مَوقفاً إيجابيّاً، فلم ينظر إليها نَظرةً تَحطُّ من شأنها، بل لم يتردد في الإشادةِ ببعضِ الألسنةِ، والإطراءِ على مَلَكاتها التّعبيريّة، فهو يرى أنّ لِسان الزّنج– ولعله يُريد لِسان الأحابيش– يَنمازُ عن غيرهِ من الألسنةِ بالخفّةِ واليُسر، يقولُ: "وليسَ في الأرضِ أحسن حُلُوقاً منهم، وليسَ في الأرضِ لُغة أخفّ على اللّسانِ من لُغتهم، ولا في الأرضِ قَومٌ أذرب ألسنة، ولا أقلّ تمَطيطاً منهم"(٦٧).

وليس بالمُكنةِ أن نتبيّن على وجهِ الحقيقةِ إذا ما كان الجاحِظُ حكى ما حكاه على لُغةِ الحبشان تأسيساً على مَعرفتهِ الدّقيقةِ بلُغتهم، وقد أورد شيئاً من ألفاظهم في بعضِ كُتُبه(٦٨)، ولا سيّما أنّ أعداداً هائلةً منهم كانت تقطنُ البَصرة – مَوطنَ الجاحِظ– تَعملُ في سِباخةِ الأرضِ والخِدمة، أم كان ناقلاً رأي العارفينَ بذاك اللّسان؟

وفارقَ الجاحِظُ أثناء مباحثه البيانيّة بين البلاغةِ العَرَبيّةِ والبلاغةِ الأعجميّة، فبيّن أنّ قِوام الأُولى البديهة والارتجال، وأنّ قِوام الأُخرى التّفكير والمُعاودة، وهو فَرقُ ما بين الطّبع والتّكلّف، فالعَرَبيّ – عند الجاحِظ– ذُو مقدرةٍ لِسانيّةٍ فائقةٍ، فإذا

تكلّم جاء كلامُهُ طبعاً وإبداعاً من غير عَناءٍ، بينما لا يجئ كلامُ الأعجميّ إلاّ عن نظرٍ ومُدارسةٍ ومَشقّةٍ، يقولُ: "إلاّ أنَ كُلَّ كلامٍ للفُرس، وكُلَّ معنًى للعَجَمِ، فإنّما هو عن طُولِ فكرةٍ واجتهادِ رأيٍ وطولِ خَلْوةٍ، وعن مُشاورةٍ ومُعاونةٍ، وعن طُولِ التّفكرِ ودِراسةِ الكُتُب وحِكايةِ الثّاني عِلمَ الأوّل، وزيادةِ الثّالثِ في عِلمِ الثّاني، حتى اجتمعت ثِمار تلك الفِكَر عند آخرهم. وكُلُّ شيءٍ لِلعَرَب، فإنّما هو بَديهةٌ وارتجالٌ وكأنّه إلهامٌ، وليست هُناك مُعاناة ولا مُكابدة، ولا إجالةُ فكرٍ، ولا استعانة، وإنمّا هو أن يَصرفَ وهمهُ إلى الكلام..... فتأتيه المعاني أرْسالاً، وتَنثالُ عليه الألفاظُ انْثيالاً....."[٦٩].

واتّخذ الخَطابةَ مَعبراً لِنقدِهِ المُوجّه إلى الثَّقافاتِ غيرِ العَرَبيّة، فقد أخذَ على اليُونان – على الرُّغمِ من نُبوغهم في الفَلسفةِ والمنطقِ وعُلُومِ الكلام – ضَعفَ حَركةِ الخَطابةِ في بيئتهم، وقلّةِ من نال شُهرةً من خُطبائهم، حتى إنّ أرسطو نفسَهُ كان كما يقولُ الجاحِظ: "بكيءَ اللّسان، غيرَ موصُوفٍ بالبيان، مع علمهِ بتمييزِ الكلامِ وتفصيلهِ ومعانيهِ وبخصائصهِ"[٧٠]، ورأى – من بعدُ– أنّ العَرَب يُقدّمون على اليُونان في تعاطيهم هذا الفنَّ من فُنُونِ القول[٧١].

بيدَ أنّ رأي الجاحِظِ الذي تُؤيده حَقائقُ موضُوعيّةٌ كثيرةٌ واجه اعتراضاً شديداً من شوقي ضَيف الذي رأى أنّ الفنَّ الخَطابيَّ اليُونانيَّ كان مُزدهراً، بدِلالة ظُهورِ أنواعٍ من الخَطابةِ عِندهم، وشُهرةِ غير خَطيبٍ فيهم كديموستين، وتكلّلت هذه الحركةُ – كما يقولُ ضَيف– بوضعِ أرسطو كتابَهُ في "الخَطابة"[٧٢].

وهذه الأدلةُ التي يُطالعنا بها شوقي ضَيف لا تَدعُو –على وجاهتها– إلى نقضِ ما ذهبَ إليه الجاحِظُ من تقديمِ العَرَبِ على اليُونان في خَطابتهم، إذ كانت الخَطابةُ أمتَّ بحياةِ العَرَب من اليُونان الذين شُغلوا بعُلُوم الجَدل والمَنطق، بخِلافِ

العَرَبِ الذين غلبت عليهم فُنُونُ القَولِ، شِعراً ونَثراً، وكانت الخَطابةُ بداعٍ من ذاك سليقةً طبيعيّةً في العَرَبيّ، ولم تكن كذا الأمر في اليُونانيّ.

وإذا كان ديموستين – كما يرى ضَيف– شُهرَ من بين خُطباء اليُونان، فإنَّ الخُطباءَ المشاهير في الجاهليّة والإسْلام ممّن ذكرهم أبو عُثمان نفسُهُ في "البيان والتّبيين" يُعدّون بالعَشرات، وأمّا لمَ لَمْ يضع العَرَبُ مُؤلّفاتٍ في الفنِّ الخَطابيّ – كما وضع اليُونان– فذاك بدهيٌّ ما دامت حَركةُ التّدوينِ ظلّت ضَعيفةً عندهم حتى وقتٍ مُتأخرٍ نِسبياً لأسبابٍ ليسَ هذا مَحلّ الخوضِ في تَفصيلها(٧٣).

والحقُّ أنّ الجاحِظَ لم يُنكر مَعرفةَ الأُممِ الأُخرى بالخَطابة تماماً، كما فُهمَ من قولهِ: "وجمُلةُ القولِ أنّا لا نَعرفُ الخُطبَ إلاّ للعَرَبِ والفُرس"(٧٤). فهو لا يَتحدّث – هُنا– عن وجُودِ هذا النّوعِ الأدبيّ في الأُمم، لأنّ ذلك أمرٌ مُسلّم به، بل هو من البدهيّات، ولكنّه تحدّث عن التّميّزِ والفَرادةِ في تعاطي هذا النّوع، فهو يرى أنّ العَرَبَ والفُرسَ بلغُوا في الخَطابةِ شأواً لم تبلغه غيرهُم من الأُمم، ممّا استحقَّ تقديمهما على اليُونان، من غير إنكارٍ لوجُودِ الخَطابةِ عند هؤلاء.

ولَعلّ ممّا يُؤكدُ هذه الوِجهة إنارات الجاحِظِ نَفْسِهِ على وجُودِ خَطابةٍ لِبعضِ الشُّعوبِ والأُمم غير العَرَب والفُرس، كقوله في سياقِ الحديثِ عن مآثرِ الهُنود الثّقافيّة: "ولهم شِعرٌ كثيرٌ وخُطبٌ طِوال"(٧٥)، ومن مثل قولهِ عن الأحابيش: "والرّجلُ منهم يَخطبُ عند المَلِك بالزّنج من لَدن طُلوعِ الشّمسِ إلى غُروبها، فلا يستعينُ بالتفاتةٍ، ولا بسكتةٍ، حتّى يفرغَ من كلامه"(٧٦). ولكنّه وجّه – فيما يُقابل ذلك– نقداً إلى خَطابتهم، على الرُّغم مما عُرف عنهم من طُولِ النّفسِ والقُدرةِ على الإطالةِ والإطناب، وجوهرُ ما أخذه على خَطابتهم ما يتداوله خُطباؤهم من مَعانٍ غثّةٍ رَديئةٍ وضيعةٍ لا تَرتفعُ إلى مُستوى الخِطابِ المنشُود(٧٧)، ممّا يُبعدها عن الدّائرةِ البلاغيّةِ، ويهبطُ بها إلى الحضيضِ. ومهما يكن، فإنّ هذه الإشارات تَنهضُ

دليلاً قويّاً على أنّ الجاحِظَ لم يحصرِ الفنَّ الخَطابيَّ في العَرَب والفُرس، كما فُهمَ من ظاهرِ قَولهِ الآنف.

وفي الوِجهةِ المُقابلة، رأى الجاحِظُ أنّ فَضيلةَ الشِّعر "مقصُورة على العَرَبِ، وعلى من تكلّم بلسانهم"[٧٨]؛ لأنّ الشِّعرَ العَرَبيَّ لا يُسْتطاع – في نظرِهِ – أن "يُترّجم، ولا يَجوزُ عليه النّقل، ومتى حُوّل تَقطّع نظمُهُ، وبَطلَ وزنُهُ، وذَهبَ حُسنُهُ، وسَقطَ مَوضعُ التّعجب"[٧٩]. وسياقُ الحديثِ لا يَتضمنُ إنكارَ مَعرفةِ غير العَرَبِ بالشِّعر، بل فحواه أنّ العَرَبَ أقدر من غيرهم على تَعاطِي أسبابِ هذا الفنّ والإبداعِ فيه؛ كونه أمسّ بحياتهم، وأدنى إلى نُفُوسهم من ألوانِ التّعبيرِ الأُخرى التي شُغفت بها غيرُهُم من الأُمم[٨٠].

ومن هُنا مضى الجاحِظُ يُؤكدُ أصالةَ الثَّقافةِ العَرَبيّةِ الإسْلاميّةِ، ويعتبرها شَديدَ الاعتبار، إذ وَجَدَ بالدِّراسةِ والفَحْصِ أنّ كثيراً من المعارفِ الثَّقافيّةِ الأجْنبيّةِ – الخاصّة بالحَيَوان مِثالاً– تَوصّل إليها العَرَبُ من غيرِ تأثّرٍ واقتباسٍ، يقولُ: "وقلّ معنىً سمعناهُ في باب مَعرفةِ الحَيَوان من الفلاسفة، وقرأناه في كُتُبِ الأطباء و المُتكلمين، إلاّ ونحنُ وجدناه، أو قريباً منه، في أشعارِ العَرَبِ والأعْراب، وفي مَعرفةِ أهلِ لُغتنا ومِلّتنا"[٨١].

بل ذهبَ إلى أكثر من ذلك حين أكّد أنّ الشِّعرَ العَرَبيَّ لو نُقلَ إلى غيرِ العَرَبيّة– مع ما يرى من صُعوبةِ ذلك– لَوَجَدَ العَجَمُ أنّ معانيه تُناظرُ ما هو مُدوّن عندهُم في الكُتُب من معارف[٨٢]، من غيرِ تأثّرٍ من الطّرفين؛ كون هذه المعاني المُشتركة تمُثّل – في لُبِّ الأمر– لوناً من التّفكيرِ الإنسانيّ العام الذي تتوصّل إليه الأُمم من تِلقاءِ نفسها. والجاحِظُ يُوجّه – بذلك– إلى ضَرورة مَعرفةِ ما عندنا من تُراثٍ أصيلٍ حتى لا نعتقد – دوماً – بجدّةِ ما عند الآخر، فنُؤخذ ببريقهِ على غير وعي، ونَنثالُ عليه انْثيالَ الرَّمل.

واندفعَ يَسوقُ في هذا المِضمار طائفةً من اعْتراضاتِهِ على الثَّقافاتِ الأُخرى، ولَعلَّ أبرز ما أخذه على بعضِ هذه الثَّقافات قيامها على العَصبيّة المُفرطة التي صبّت بكُلِّ سلبياتها في تَشكيلِ صُورةٍ غير واقعيّةٍ لعناصرِ تلك الثَّقافات، يَقولُ مُعترضاً على طَرفٍ من كلامِ الفُرس: "على أنّ هذه الأحاديثَ من أحاديث الفُرس، وهم أصحاب نَفْجٍ وتزيدٍ، ولا سيّما في كُلِّ شيءٍ ممّا يدخلُ في باب العَصبيّة، ويزيدُ في أقْدارِ الأكاسرة"(٨٣).

وشرّع – من ثَمَّ– أبواباً من الاعتراضِ على الشُّعوبيّةِ، أشدِّ المُثقفين العَجَم انغلاقاً وتعصّباً لثقافتهم، الذين كشفُوا عن عَدائهم المُجاهر لِلثَّقافةِ العَرَبيّةِ الإسْلاميّةِ، يقولُ: "العَصبيّةُ التي هلك بها عالمٌ بعد عالمٍ، والحميّةُ التي لا تُبقي دِيناً إلاّ أفسدته، ولا دُنيا إلاّ أهلكتها، وهو ما صارت إليه العَجَمُ من مَذهبِ الشُّعوبيّة"(٨٤).

وقد جرّتهم تلك العَصبيّةُ إلى الطّعنِ في الثَّقافةِ العَرَبيّةِ الإسْلاميّةِ، ولكن مَطاعنهم كانت شَكليّةً مَحضةً، ولم تكن في الجوهرِ، ولَعلّ تعلّقهم بعيبِ اتّخاذ العِصي والمَخاصر والقَنى من قِبَلِ خُطباء العَرَب؛ لعدمِ مُناسبةِ اتّخاذِ العِصي أثناء الخَطابة(٨٥)، لهو أوضحُ دَليلٍ على إغراقهم في الشّكليّاتِ وابتعادهم عن المُهمات، ممّا يعني أنّ نقدَهم لم يكن مُوجّهاً إلى الخَطابةِ العَرَبيّةِ من الدّاخلِ، وإنمّا اهتمُّوا بنقدِ عناصر خارجيّة تتصل بعوائدِ الخُطباءِ، وما ألفوه من تقاليدَ، ليسَ لِلشُّعوبيّة أن تنظرَ إليها مفصُولةً عن البيئةِ السّائدة والعُرفِ الجاري، إذ لكُلِّ أُمّةٍ – كما يُشيرُ أبو عُثمان – شاراتها وآلاتها وشمائلها وهيئاتها الخاصّة بها(٨٦)، ممّا لا يُسوغ عيبُهُ من غير إدراكِ كُنهِ العِلّة من اتّخاذه.

وساقَ الجاحِظُ فيضاً من الأمثلةِ والشّواهدِ التي تَدلُّ على شَرفِ العَصا وفَوائدِها، بما يكونُ مَدْفَعاً لِطعنِ دُعاةِ العَصبيّةِ الثَّقافيّةِ الشّكليين أُولئك(٨٧)، وذهبَ

إلى أكثر من ذلك حين أفصحَ عن الدّوافعِ التي حرّكت الشُّعوبيّةَ إلى افتعالِ هذه المطاعن المُتهافتة، مُبيّناً أنّ الحَسَدَ والبَغضاءَ هُما الباعثُ الذي انزلقَ هؤلاء بسببهِ في هذا المَهوى على غيرِ هُدًى(٨٨).

كما ذَرَعَ سَبيلاً أُخرى في الاعتراضِ على الزَّنادقة، الوجهِ الآخر من المُتعصبينَ لِلثَّقافةِ الفارسيّة، وسجّلَ في هذا المِضمار انتقاداتِهِ على ثَقافةِ المُتزندقةِ، فأخذَ عليها أنّها ثقافةٌ لَفظيّةٌ شَكليّةٌ، تفتقرُ إلى العُمق، وتتشبث بالزَّخارفِ اللّفظيّة البرّاقة التي لا طائلَ لما تحتها من المعاني السّطحيّة. كما أخذَ على هذه الثّقافةِ ما يكتنفها من غُموضٍ وتَكرارٍ وبهرجٍ، ووصف مَذْهبهم الفِكريَّ بالجُمُودِ والتّقليدِ والبُعدِ عن التّفكيرِ والإبداع، ونفى تضلّعهم بالفلسفةِ والحِكمةِ(٨٩)، وساق نماذجَ من مُحاججةِ أُستاذهِ أبي إسحاق النّظّام المنانيّةَ والدّيصانيّةَ في مَقُولتهم: إنّ أصلَ العالمِ نُورٌ وظلامٌ(٩٠).

وقد رأى الجاحِظُ في الفريقيْن: شُعوبيينَ وزَنادقةً صُورةً واحدةً أفرزتها العَصبيّةُ الثَّقافيّةُ المُنغلقةُ التي ناصبت الثّقافاتِ الأُخرى، وفي مُقدمتها الثّقافةُ العَرَبيّةُ الإسْلاميّةُ، العَدَاء، ورامت ألاّ تتنفسَ خارجَ مُحيطها الضّيق، وألا ترى إلاّ في ضَوءِ حلقاتها الذّاتيّةِ الدّاخليّةِ المحصُورة.

وساق نموذجاً آخرَ على العَصبيّةِ الثَّقافيّةِ، ويَدورُ هذا النّموذجُ حول تَعصّب الهُنُود لكُلِّ ما هو هِنديّ، حتّى أفضى بهم هذا المَسلكُ إلى المُدافعةِ عن رَمزٍ من رُموزِ ثقافتهم، هو الفِيل، والاحتجاج لفضائله، وتناقلُوا بشأنه مَزاعمَ وتهاويلَ قِوامها التّعصّبُ المحضُ والبُعدُ عن الحقيقةِ في كثيرٍ من الأحيان. وقَدّم في كِتابه "الحَيَوان" طرفاً من احتجاج "صاحب الهِند المُعبّر عن خِصالِ الفيل"(٩١)، وعَرَضَ قُبالةَ ذلك نموذجاً من الرُّدودِ التي سيقت في مَعرضِ الاعتراضِ على تَقديمِ الهِندِ فيلتَها على ما سوى ذلك من أجناسِ الحَيَوان(٩٢).

ولَعلّ أخطرَ ما جرّه هذا اللّونُ من التّعصبِ اتّهام الآخر بالتّبعيّةِ الثّقافيّةِ والتّقليد، واتّخذ الجاحِظُ من تعصّبِ الرُّوم للثّقافةِ المسيحيّة مِثالاً على هذه الوِجهةِ القائمةِ على تسفيهِ الآخر وسلبِ فضلهِ، فقد بلغَ من تعصبهم أن تاهُوا على ثقافاتِ أُممِ الجِوار، ومنها الثّقافةُ العَرَبيّةُ الإسْلاميّةُ، وصيّروها- بزعمهم- عالةً على ثقافتهم، حتّى زعمُوا، كما يقولُ الجاحِظ: "أنّ حُكماءنا أتباعُ حُكمائهم، وأنّ فَلاسفتنا اقتدُوا على مِثالهم"(٩٣).

ولم يلبث حتّى وجّه إلى الثّقافةِ الرُّوميّةِ النّقدَ نَفْسَهُ، مُبيّناً أنّها ولّدت عالةً على الثّقافةِ اليُونانيّةِ التي لم تكن رُوميّةً، ولا مَسيحيّةً، يقولُ كاشِفاً الغطاءَ عن الصِّلاتِ المُنعقدةِ بين ثقافتي: اليُونان والرُّوم المُتصاقبتين: "كِتاب (المنطق)، و(الكون)، و(الفساد)، وكِتاب (العلوي)، وغير ذلك، لأرسطا طاليس، وليس برومِيّ، ولا نَصرانيّ. وكِتاب (المجسطي) لبطليموس، وليس برومِيّ، ولا نَصرانيّ. وكِتاب إقليدس لإقليدس، وليس برومِيّ، ولا نَصرانيّ. وكِتاب (الطّبّ) لجالينوس، ولم يكن رُوميّاً، ولا نَصرانيّاً. وكذلك كُتُب ديمقراط وبقراط وأفلاطون، وفُلان وفُلان. وهؤلاء ناسٌ من أُمّةٍ قد بادوا، وبقيت آثارُ عُقُولهم، وهم اليُونانيون، ودِينهم غير دِينهم، وأدبهم غير أدبهم، أُولئك عُلماء، وهؤلاء صُنّاع أخذوا كُتُبهم؛ لقُرب الجِوار، وتداني الدّارِ، فمنها ما أضافُوه إلى أنفسهم، ومنها ما حوّلوه إلى مِلّتهم، إلاّ ما كان من مشهُورِ كُتُبهم ومعرُوفِ حِكمهم، فإنّهم حين لم يقدرُوا على تغييرِ أسمائها زعمُوا أنّ اليُونانيين قَبِيلٌ من قَبائلِ الرُّوم"(٩٤).

وواضحٌ للعِيان أنّ الجاحِظَ قَصَدَ إلى غايتين: أولهما تأكيدُ أصالةِ الثّقافةِ العَرَبيّةِ الإسْلاميّةِ وقُوّة عناصرِها الكامنة، وأنّ التُّهم التي وُجهت إليها لا تَعدُو أن تكونَ من قَبيلِ العَصبيّةِ الثّقافيّةِ التي لا ترى سوى نفسها، ولا تُقرُّ لغيرها بفَضلِ سَبقٍ. وثانيهما قَمعُ الغُرورِ الثّقافيّ الذي يَستولي على بَعضِ الثّقافاتِ المُتعصّبةِ

التـي تُوجّـه النّقدَ غيرَ الموضُـوعيّ لغيرها عِوضَ أن تبدأ بتوجيـهِ النّقدِ نَفْسـهِ إلـى ذاتها.

وأخـذَ الجـاحِظُ- بالمِثـلِ- علـى الثَّقافـاتِ غيـرِ العَرَبيّـة قيامهـا فـي كثيـرٍ مـن الأحيان على المُبالغةِ التي تَخرجُ عن حدِّ المعقُول، ولشدّ ما أبدى ضَجرَهُ وضِيقَ صدرِهِ بما صَدَرَ عن أرسطو، رَمزِ الثَّقافةِ اليُونانيّة، من مُبالغاتٍ لا يُصدّقها عِيان، ولا تَصمدُ أمامَ الحقائقِ العِلميّةِ النّاصعةِ. وساق نماذجَ من الاعتراض على مَقولاتِهِ المُغالية في عِلمِ الحَيَوان، ممّا وجد فيه بُعداً عن الواقعِ العَمليّ والعِلميّ، من ذلك اعتراضه على الأُزعومةِ الأرسطيّة في النِّتاجِ الحَيَوانيّ المُركّب بقولِهِ: "وقد سمعنا ما قال صاحبُ المنطقِ من قبلُ، وما نظنّ بمثلِهِ أن يُخلّد على نفسه في الكُتُبِ شهاداتٍ لا يُحقّقها الامتحان، ولا يعرف صدقَها أشباهُ من العُلماء"[٩٥].

ولم يجد الجاحِظُ بُدّاً من إعلانِ برَمهِ بتصديقِ الرّواياتِ العَجيبةِ التي شابت كِتاب "الحَيَوان" لأرسطو، وكثيراً ما يقرأُ المُتأملُ عباراتِ الجاحِظِ التي يُبدي فيها العُجبَ والدّهشةَ ممّا حكاهُ أرسطو، من مِثلِ قولِهِ: "وقال صاحبُ المنطق في الغَرانيقِ قولاً عجيباً"[٩٦]، وقوله: "وما أعجبَ ما قرأتُ في كِتاب (الحَيَوان) لِصاحبِ المنطق"[٩٧].

وكان مُنطلقهُ في الرّدِّ مُنطلقاً عِلميّاً صِرفاً، إذ كان يُبيّن أنّ ما صَدَرَ عن أرسطو- فيما يُؤخذُ عليه- لم يكن وليدَ مُعاينةٍ واخْتبار، بل كان مَحضَ مَرويّاتٍ واهيةٍ تلقّفها من الأفواه، ولم يُخضعها لِلتّجربةِ العِلميّةِ، كما أنّ المُشاهدةَ فاتتها[٩٨]، فجاءت- من ثَمَّ- على غيرِ تَروٍّ وتَنوقٍ، مُلقاةً على عَواهِنِها، لا يَقبلها واقعٌ، ولا يَرتضيها عَقل.

وهكذا، وَقَفَ الجاحِظُ من النَّصّ الأرسطيّ المنقُول، وما يَكتنفهُ من رواياتٍ كان له فيها نظرٌ وتأمّلٌ، مَواقفَ مُتباينةً، ولجأ إلى طرائق مُنوّعة لِلتعبيرِ عن موقفه – المُباشر وغير المُباشر– من تلكم الرِّواياتِ التي أثارت أشْياء في نَفْسِهِ، ومن أبرزِ تلك الطَّرائق[٩٩]:

١. اتّخاذ مُشاهداته الذّاتيّة ومُلاحظاته العِيانيّة وسيلةً للرّدِّ على ما يقوله أرسطو من مَقولاتٍ لا تَصمدُ أمام الحقائقِ العِلميّةِ الرّاسخة.

٢. عرض رواياتِ أرسطو على رِواياتٍ عَرَبيّةٍ – إخْباريّة وأدبيّة – مُصدّقة؛ لتبيّن عدمِ صحةِ الأُولى.

٣. إظهار دَهشته من الرِّواياتِ الأرسطيّة التي يَعْسُرُ تَصديقُها والاطمئنانُ إليها.

٤. سُؤال أهلِ الخبرةِ والتّجربةِ من الخاصّةِ والعامّةِ عن مدى صِدقِ الخبرِ الأرسطيّ المنقُول.

٥. الموازنة بين ما يسوقهُ أرسطو من أخبارٍ غَرائبيّة مُنكرةٍ؛ لتبّين مدى فسادِ الأخْبارِ الواردةِ من الجهتين.

٦. مُناقشة الرِّوايةِ الأرسطيّةِ، وإيراد الدّليل العِلميّ على تهافتها.

ووَقَفَ – بالمِثلِ– مُعْترضاً على جانبٍ من مُبالغاتِ أطباءِ الهِند، فقد علّقَ على أُزعومتهم أنّ العُقوقَ يُورثُ البَرَص بقولهِ: "وهذه القِصةُ مُجانبةٌ لِسَبيلِ الطِّبّ"[١٠٠]. فهو يردُّ هذا الزّعم، ويرفضُ تَعليلَ إصابةِ الإنسانِ بمَرضِ البَرَصِ بما يَكونُ من عُقُوقِ والديه، ويرى بروحهِ العِلميّة المُنفتحة ألاّ علاقةَ ماسةً بين السّببِ

والمُسبِّبِ؛ لأنّ الطِّبَّ لا يَرتضي مثلَ هذا التّفسير، ولا يَقبلُ إلاّ التّعليلَ العِلميَّ المُقنع.

كما سجّل مأخذاً ثالثاً على الثَّقافاتِ الدِّينيّةِ الأجْنبيّةِ، فقد رأى أنّ التّقليدَ في الدِّينِ و مُحاكاةَ الأسْلاف يُمثّلان أساساً مَتيناً من أُسسِ تلك الثَّقافات، وبيّن أنّ أصْحابَ تلك الثَّقافاتِ كالهُنود والفُرس واليُونان، على ما هم فيه من رُقي عَقليّ غيرِ مُنكرٍ، ظلّت عناصرُ ثقافاتهم الدِّينيّةِ محكُومةً بسُلطانِ التّقليدِ الذي فرضَ قيودَهُ الصّارمةَ على العَقل وكبّله، ولم يسنح للاجتهادِ في الدِّين أن يُواكبَ حِراكَ العَقلِ عندهم. وقد عدَّ الجاحِظُ التّقليدَ في الدِّين داء عصيّاً "لا يُحسن علاجَهُ جالينوس ولا غيرُهُ من الأطباء"(١٠١).

ومن أوضحِ المُثُل التي ساقها الجاحِظُ في مَعرضِ انتقادِهِ التّقليدَ ما أخذه على النَّصارى، الذين دخل معهم في حِجاجٍ كَلاميٍّ طويلٍ، من إنكارِ الاجتهادِ في مَسائلِ الدِّينِ وقضاياه، يقولُ: "على أنّهم يزعمُون أنّ الدِّين لا يَخرجُ في القياس، ولا يَقومُ على المسائلِ، ولا يَثبتُ في الامتحان، وإنّما هو بالتّسليم لما في الكُتُب، والتّقليد للأسلاف"(١٠٢).

كما ساق مثالاً أبعدَ وأعمقَ للتّقليدِ غير المُبصر الواقعِ في دِيانةِ اليُهود، فهم يرون: "أنّ النّظرَ في الفلسفة كُفرٌ، والكَلامَ في الدِّين بِدْعةٌ، وأنّه مَجلبةٌ لكُلِّ شُبهة، وأنّه لا عِلمَ إلاّ ما كان في التَّوراة وكُتُب الأنبياء، وأنّ الإيمانَ بالطِّبّ، وتَصديقَ المُنجمينَ من أسْبابِ الزَّندقةِ، والخُرُوجَ إلى الدَّهريّة، والخِلاف على الأسْلافِ وأهلِ القُدوة"(١٠٣).

وأخذَ على الأعاجمِ ضَعفَ عِنايتهم بحفظِ مآثرهم وتَخليدِ تَواريخهِم، يقولُ: "فأمّا الأُممُ البائدةُ من العَجَم، مثل كنعان ويُونان وأشباه ذلك، فكثيرٌ، ولكن العَجَم

ليس لها عناية بحفظِ شأنِ الأمواتِ ولا الأحياء"[١٠٤]. ويُؤكّدُ في موضعٍ آخر أنّ تَقييدَ المآثرِ "لم يكن من عادةِ العَجَم"[١٠٥].

وهو يَقصدُ بذلك أنّ العَجَم لم تُجارِ العَرَب في تَسجيلِ مآثرِها بالشِّعرِ الذي يُخلّدها، و"يبقى بقاءَ الدّهر، ويلُوحُ ما لاح نجمٌ، ويُنشدُ به ما أُهلَّ بالحجّ، وما هبّت الصَّبا، وما كان للزيتِ عاصرٌ"[١٠٦]. وقد يكون الجاحِظُ معذُوراً في حُكمه؛ لأنّه لم يجد في المُترجماتِ التي نقلت في زمانه– ولا سيّما عن اليُونانيّة– شِعراً يُخلّدُ مآثرهم، ومن المعرُوف أنّ النّماذجَ المَلحميّة التي تُخلّد المآثرَ والبُطولات اليُونانيّة لم تنقل إلى اللّسان العَرَبيّ إلاّ بأخرةٍ من الزّمان، بعد ما فات على رحيل الجاحِظِ زُهاء عَشرة قُرُون.

الخاتمة

ينتهي الباحثُ بعد هذا الشّوطِ من عَرضِ مَوقفِ الجاحِظِ منَ الثَّقافاتِ غير العَرَبيّة التي أُتيح له أن يقفَ على معالمها الرّئيسةِ إلى تَسجيلِ النّتائجِ الآتية:

١. كان الجاحِظُ سبّاقاً إلى تشكيلِ رُؤيةٍ منهجيّةٍ خاصّةٍ من الثَّقافاتِ الأجْنبيّةِ الوافدة، تَتناغمُ مع مَنهجهِ ورُؤيته.

٢. تلوّنت مَواقفُ الجاحِظِ من الثَّقافاتِ الوافدةِ، وتراوحت بين: القَبول، والاعتذار، والشَّكّ، والاعتراض.

٣. لم يقبل الجاحِظُ بمعطيات الثَّقافاتِ غير العَرَبيّة قَبولاً مُطلقاً، ولم يرفض -كذا الأمر- مُعطياتها رفضاً مُطلقاً، وإنّما كانت دَعوتهُ واضحةً إلى التّفاعلِ مع تلك الثَّقافاتِ والأخذِ من إيجابياتها، وطرحِ ما لا يُناسبُ أخذه.

٤. وقفَ الجاحِظُ مَوقفاً مَنهجيّاً مُنصفاً حين دعا إلى فَهمِ الثَّقافاتِ الأجْنبيّة فَهماً صَحيحاً، ونفي المُشوّهاتِ التي أساءت إلى تلك الثَّقافاتِ جَراءِ نقلها إلى اللّسانِ العَرَبيّ.

٥. وقفَ الجاحِظُ مَوقفَ الشَّكِّ العِلميّ من كثيرٍ ممّا اشتملت عليه تلك الثَّقافاتُ، وطبّق بذلك قَواعدَ مَنهجيّةً رائدةً.

٦. على الرُّغم من تأثّرِ الجاحِظِ بالثَّقافاتِ الأجْنبيّةِ وتفاعله معها، وجّه إليها انتقاداتٍ شديدةً، وأخذ عليها: التّعصّب، والتّبعيّة، والتّقليد غير المُبصر، والإغراق في المُبالغات.

٧. وجد الجاحِظُ أنّ كثيراً من المعارف الأجْنبيّة موجُودة عند العَرَب، ممّا يُؤكّدُ أصالةَ الثَّقافةِ العَرَبيّةِ الإسْلاميّة وقُوّتها.

٨. كان مُنطلق الجاحِظ وهو يَتناولُ الثَّقافاتِ الأجْنبيّةَ الإيمان الرّاسخ بفَرادةِ الثَّقافةِ العَرَبيّةِ الإسْلاميّةِ وتميّزها، فهو ينطلقُ من قوةٍ، لا من ضعفٍ.

٩. بدا الجاحِظُ في حديثه عن الثَّقافات المُجاورة حُرّاً جَريئاً مُتفاعلاً، يتَعاملُ مع القضايا بمنهجيّةٍ عِلميّةٍ جيّدة.

١٠. يُؤخذُ على الجاحِظِ في نَظرتهِ إلى الثَّقافةِ الأجنبيّةِ تعميمُهُ حِيناً، وعدمُ وفائه باستكمالِ بحث بعض القضايا المُهمّة حِيناً آخر.

وأخيراً، يُوصي الباحثُ بإجراء مَزيدٍ من الدّراساتِ المنهجيّة التي تتبيّن مواقفَ العُلماء والمُفكرين والأُدباء في الحضارةِ العَرَبيّةِ الإسْلاميّةِ من الثَّقافات الأُخرى؛ ابتغاءَ تأكيدِ أصالةِ الثَّقافةِ العَرَبيّةِ الإسْلاميّةِ وإيجابيتها، بما يكونُ مَدْفعاً لطعنِ أعْدائها، وبيانِ تهافتِ ما يُثيرونه حولها – في زمنِ العولمةِ– من شُكُوكٍ وشُبهاتٍ.

الحَواشِي

(١) الجاحِظ، أبو عُثمان، عمرو بن بحر(ت٢٥٥هـ/ ٨٦٩م): البَيان والتّبيين، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، الطّبعة الخامسة، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. ج١، ص٣٨٤.

(٢) انظر: الجاحِظ، أبو عُثمان، عمرو بن بحر(ت٢٥٥هـ/ ٨٦٩م): رسائل الجاحِظ، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، الطّبعة الأُولى، القاهرة، ١٣٨٤- ١٣٩٩هـ/١٩٦٤- ١٩٧٩م. ج٣،ص٣١٤-٣١٥.

(٣) المَصْدر نَفْسه: ج١،ص٣١٥.

(٤) انظر: الجاحِظ، أبو عُثمان، عمرو بن بحر(ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م): الحَيَوان، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبيّ، الطّبعة الثّانية، القاهرة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م. ج١، ص١١٣، ١١٧-١٢٠، ج٣، ص١٤٦، ٢٤٠، ٢٤٥، ٤٣٤، ٤٣٥، ج٤، ص٧٢، ٨٦، ١٠٩، ج٥، ص٣٦، ج٦، ص٧١، ج٧،ص٨٥، ١٩٩، ٢٣٦، والجاحِظ، البَيان والتّبيين: ج١، ص٢٥، ٦٩، ٧٤، ١٣٧، ١٦٢، ٢٩٣، ٣٨٣، ج٢، ص٣٣١، ج٣، ص٣١، والجاحِظ، رسائل الجاحِظ: ج١ ،ص١٦٨، ٢٦٨، ٣٠٧، ٣٢٥، ٣٢٧.

(٥) انظر: الجاحِظ، الحَيَوان: ج١، ص٧١.

(٦) المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٤٦.

(٧) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٤٦، والجاحِظ، البَيان والتّبيين: ج١، ص ١٤، ٤٦، والجاحِظ، رسائل الجاحِظ: ج١، ص٢٢٣- ٢٢٥.

(٨) انظر: الجاحِظ، رسائل الجاحِظ: ج١، ص٢٢٣.

(٩) انظر: الجاحِظ، الحَيَوان: ج٥، ص٣٦.

(١٠) انظر المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٥، ٨٠، والجاحِظ، البَيان والتّبيين: ج٣، ص ٢٧- ٢٨، والجاحِظ، رسائل الجاحِظ: ج١، ص٧١.

(١١) انظر: الجاحِظ، الحَيَوان: ج١، ص٧٥، والجاحِظ، البَيان والتّبيين: ج٣، ص٢٧، والجاحِظ، رسائل الجاحِظ: ج١، ص٧١، ج٣، ص٣١٤-٣١٥.

(١٢) الجاحِظ، الحَيَوان: ج١، ص٧١.

(١٣) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٢.

(١٤) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٢-٧٣.

(١٥) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٢.

(١٦) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٥٥-٥٦.

(١٧) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٥.

(١٨) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٣.

(١٩) انظر: المَصْدر نَفْسه : ج١، ص٧٣.

(٢٠) انظر: المَصْدر نَفْسه : ج١، ص٣٢.

(٢١) انظر: الجاحِظ: البَيان والتّبيين: ج١، ص٨٨، ٩٢-٩٣.

(٢٢) الجاحِظ، الحَيَوان: ج٣، ص١٣١.

(٢٣) المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٣٣.

(٢٤) المَصْدر نَفْسه: ج١، ص١١.

(٢٥) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٥٤، ٧٤، ٧٦، ٨٠، ٩٠، ١٠١- ١٠٢، ١٤١، ٢٧٩، ٢٩٠، ج٣، ١٤٦، ٢٦٩، ٢٨٤، ج٧، ص٢٠٣، ٣٧١-٣٧٢(الفهارس)، ووديعة طه النجم، منقولات الجاحِظ عن أرسطو في كتاب الحَيَوان، منشورات معهد

المخطوطات العربيّة، الطّبعة الأُولى، الكويت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، وجليل أبو الحبّ، نُقول الجاحِظ من أرسطو في كتاب الحَيَوان، دار الشُّؤون الثّقافيّة العامة، بغداد، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(٢٦) انظر: إبراهيم أمين الشواربي، بحث فيما نقله الجاحِظ من أخبار الفرس في كتابيه: البَيان والتّبيين والحَيَوان، مجلّة كُلية الآداب، الجامعة المصريّة، المجلد الرّابع ، الجزء الثّاني، ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م. ص١٦٩-٢٢٠.

(٢٧) انظر: الجاحِظ، الحَيَوان: ج٧، ص٤٩٨(الفهارس)، والجاحِظ، البَيان والتّبيين: ج١، ص٦٤، ٩٢ – ٩٣، والجاحِظ، رسائل الجاحِظ: ج١، ص٢٢٣- ٢٢٤، وتشارلس بلاط، الهَند والهُنود في نظر الجاحِظ، مجلّة ثقافة الهِند، المجلد ١٤، العدد الثّاني، الهند، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م. ص ٥٨- ٦٩.

(٢٨) انظر: الجاحِظ، الحَيَوان، ج١، ص١١٣، ١١٧-١٢٠، ج٣، ص١٤٦، ٢٤٠، ٢٤٥، ٤٣٤، ٤٣٥،ج٤، ص٧٢، ٨٦، ١٠٩، ج٥، ص٣٦، ج٦، ص٧١، ج٧،ص٨٥، ١٩٩، ٢٣٦، والجاحِظ، البَيان والتّبيين: ج١، ص٢٥، ٦٩، ٧٤، ١٣٧، ١٦٢، ٢٩٣، ٣٨٣، ج٢، ص٣٣١، ج٣، ص٣١، والجاحِظ، رسائل الجاحِظ: ج١ ،ص١٦٨، ٢٦٨، ٣٠٧، ٣٢٥، ٣٢٧.

(٢٩) الجاحِظ، الحَيَوان: ج١، ص٨٠.

(٣٠) المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٨٠.

(٣١) انظر: داود سلّوم، النقد المنهجيّ عند الجاحِظ، عالم الكتب ومكتبة النّهضة العربيّة، الطّبعة الثّانية، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م. ص٣٨-٣٩.

(٣٢) انظر: الجاحِظ، الحَيَوان: ج١، ص٧٩-٨٢.

(٣٣) المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٤.

(٣٤) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٢١٥.

(٣٥) من الدّراسات التي اهتمت ببحث تأثر الجاحِظ بالثّقافات غير العربيّة، ولا سيما الفارسيّة واليونانيّة:

- إحسان عباس، ملامح يونانيّة في الأدب العربيّ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- جليل أبو الحبّ، نُقول الجاحِظ من أرسطو في كتاب الحَيَوان.
- شوقي ضيف، العصر العبّاسيّ الثاني، دار المعارف، الطّبعة الثّانية، القاهرة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- الفن ومذاهبه في النثر العربيّ، دار المعارف، الطّبعة العاشرة، القاهرة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- عيسى العاكوب، تأثير الحكم الفارسيّة في الأدب العربيّ، دار طلاس، الطّبعة الأُولى، دمشق، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- محمّد المصريّ، أثر الفكر اليونانيّ على الناقدين العربيين: الجاحِظ وقُدامة بن جعفر، دار العدوي، الطّبعة الأُولى، عمّان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- مجيد عبد الحميد ناجي، الأثر الإغريقيّ في البلاغة العربيّة من الجاحِظ إلى ابن المعتز، مطبعة النجف، النجف، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
- وديعة طه النجم، منقولات الجاحِظ عن أرسطو في كتاب الحَيَوان.

(٣٦) انظر: شوقي ضيف، الفنّ ومذاهبه في النثر العربيّ: ص١٨٠.

(٣٧) البغداديّ، عبد القاهر بن طاهر(ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م): الفَرق بين الفِرق، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، مُصورة عن الطّبعة المصريّة، المكتبة العصريّة، صيدا، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م. ص١٧٧.

(٣٨) انظر: العسكريّ، أبو هلال، الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م): كِتاب الصّناعتين، تحقيق: علي محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، مُصورة عن الطّبعة المصريّة، المكتبة العصريّة، صيدا، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. ص١٩٧. وابن رشيق، أبو علي، الحسن بن رشيق القيروانيّ(ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م): العُمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمّد قرقزان، دار المعرفة، الطّبعة الأُولى، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. ج٢، ص١٠٣٩.

(٣٩) انظر: الجاحِظ، الحَيَوان: ج١، ص٧٥-٧٩، ج٢، ص٥٢.

(٤٠) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج٧، ص٣٧١-٣٧٢ (فهرس الأعلام).

(٤١) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج٢، ص٥٥، ج٣، ص٥١٣، ج٥، ص٣٦٥.

(٤٢) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج٧، ص٣٩٣ (فهرس الأعلام).

(٤٣) انظر: محمّد محمود الدروبيّ، التُّهم المُوجهة إلى الجاحِظ: نظرٌ نقديٌّ، مجلّة عالم الفكر، المجلّد٣٥، الكويت، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م. ص٢٤٥-٢٤٦.

(٤٤) سامح كريم، الحَيَوان بين أرسطو والجاحِظ، مجلّة العربيّ، العدد٥٣٦، الكويت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. ص٦٣.

(٤٥) الجاحِظ، الحَيَوان: ج١، ص ٨٠.

(٤٦) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٥-٧٨.

(٤٧) المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٦.

(٤٨) المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٧.

(٤٩) المَصْدر نَفْسه: ج٢، ص٥٢.

(٥٠) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٧-٧٨.

(٥١) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٨.

(٥٢) المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٩.

(٥٣) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٩٠.

(٥٤) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٣١٩.

(٥٥) انظر على سبيل المثال: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص١٨٣، ج٢، ص٥٠، ٥٨، ج٣، ص١٧٨، ٤٩٩، ج٤، ص١٤٥، ١٩٣، ٢٠١، ٢٢٣.

(٥٦) المَصْدر نَفْسه: ج١، ص١٥٢، ج٤، ص١٥٥.

(٥٧) المَصْدر نَفْسه: ج١، ص١٩٠، ج٤، ص٩٥.

(٥٨) المَصْدر نَفْسه: ج٣، ص٢٩٨، ج٤، ص٢٩٦.

(٥٩) المَصْدر نَفْسه: ج٤، ص٣١٩، ج٧، ص٢١٠، ٢٢٠.

(٦٠) المَصْدر نَفْسه: ج٧، ص٢٢٦.

(٦١) المَصْدر نَفْسه: ج٦، ص٣٥.

(٦٢) الجاحِظ، البَيان والتّبيين: ج٣، ص٢٩.

(٦٣) انظر: الجاحِظ، الحَيَوان: ج٤، ص٢٠٢-٢٠٣.

(٦٤) المَصْدر نَفْسه: ج٧، ص٢١٤.

(٦٥) انظر: الجاحِظ، البَيان والتّبيين: ج٣، ص٢٨.

(٦٦) انظر: داود سلّوم، النقد المنهجي عند الجاحِظ: ص٦٩- ٨٧.

(٦٧) الجاحِظ، رسائل الجاحِظ: ج١، ص١٩٥.

(٦٨) انظر: الجاحِظ، الحَيَوان: ج٤، ص٣٥.

(٦٩) الجاحِظ، البَيان والتّبيين: ج٣، ص٢٨.

(٧٠) المَصْدر نَفْسه: ج٣، ص٢٧.

(٧١) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج٣، ص٢٧-٢٩.

(٧٢) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلاميّ، دار المعارف، الطّبعة السّابعة، القاهرة، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م. ص٤٠٥.

(٧٣) محمّد محمود الدروبيّ، شوقي ضيف مُؤرخاً للنثرِ العَرَبيّ القديم، مجلّة الأحمديّة، العدد٢١، دار البُحوث للدّراسات الإسلامّية وإحياء التُّراث، دبي، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. ص٣٤٣-٣٤٤.

(٧٤) الجاحِظ، البَيان والتّبيين: ج٣، ص٢٧.

(٧٥) الجاحِظ، رسائل الجاحِظ: ج١، ص٢٢٣.

(٧٦) المَصْدر نَفْسه: ج١، ص١٩٥.

(٧٧) انظر: الجاحِظ، الحَيَوان: ج٧، ص٢٠٦، والجاحِظ، البَيان والتّبيين: ج٣، ص١٢-١٣.

(٧٨) الجاحِظ، الحَيَوان: ج١، ص٧٤-٧٥.

(٧٩) المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٥.

(٨٠) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٢- ٧٤.

(٨١) المَصْدر نَفْسه: ج٣، ص٢٦٨.

(٨٢) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٧٥.

(٨٣) المَصْدر نَفْسه: ج٧، ص١٨٩.

(٨٤) الجاحِظ، رسائل الجاحِظ: ج٣، ص٢٠.

(٨٥) انظر: الجاحِظ، البَيان والتّبيين: ج٣، ص١٢.

(٨٦) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج٣، ص٣٠.

(٨٧) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج٣، ص٣٠-١٢٤.

(٨٨) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج٣، ص٢٩-٣٠.

(٨٩) انظر: الجاحِظ، الحَيَوان:ج١، ص٥٧- ٥٨.

(٩٠) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج٣، ص٤٤١- ٤٤٢.

(٩١) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج٧، ص١٠٣-١٠٩، ١٣٩-١٤٠، والجاحِظ، البَيان والتّبيين، ج١، ص٩٢.

(٩٢) انظر: الجاحِظ، الحَيَوان: ج٧، ص١٩١.

(٩٣) الجاحِظ، رسائل الجاحِظ: ج٣، ص٣١٥.

(٩٤) المَصْدر نَفْسه: ج٣، ص٣١٤-٣١٥.

(٩٥) الجاحِظ، الحَيَوان: ج١، ص١٨٥.

(٩٦) المَصْدر نَفْسه: ج٧، ص٥٣٨.

(٩٧) المَصْدر نَفْسه: ج٧، ص٢٢٦.

(٩٨) انظر: المَصْدر نَفْسه: ج٥، ص٢٢٠، ٥٠٢- ٥٠٣، ٥١٤.

(٩٩) انظر: وديعة طه النجم، منقولات الجاحِظ عن أرسطو في كتاب الحَيَوان: ص٧٧-٨٢.

(١٠٠) الجاحِظ، أبو عُثمان، عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/٨٦٩م): البرصان والعرجان، تحقيق: محمّد مرسي الخولي، مؤسسة الرّسالة، الطّبعة الثّانية، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م. ص٣٦.

(١٠١) الجاحِظ، الحَيَوان: ج٥، ص٣٢٧-٣٢٨.

(١٠٢) الجاحِظ، رسائل الجاحِظ: ج٣، ص٣٢٤.

(١٠٣) المَصْدر نَفْسه: ج٣، ص٣١٤.

(١٠٤) الجاحِظ، البَيان والتَّبيين: ج١، ص١٨٨.

(١٠٥) الجاحِظ، رسائل الجاحِظ: ج١، ص٢١.

(١٠٦) المَصْدر نَفْسه: ج١، ص٢١.

النَّحْت في العربيّة قديماً وحديثاً

أ. د. رفعت هزيم
رئيس قسم النقوش بجامعة اليرموك سابقاً
ورئيس قسم اللغة العربيّة بجامعة تعز سابقاً

ملخّص البحث

النّحت هو أن تعمد إلى كلمتين أو ثلاث، أو إلى جملة فتؤلّف من بعض حروفها كلمة جديدة تكون دلالتها موافقة لدلالة ما أُخذت منه. وقد عرفت العربية قديماً ضربين منه هما: النّحت الفعلي والنحت النسبي، وضرباً ثالثاً – على قلّة – هو النحت الاسمي والوصفي. وذهب أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠هـ، في معجمه المعروف "مقاييس اللغة" إلى أن معظم الرباعي والخماسي من الأسماء والصفات والأفعال منحوت.

أما في العصر الحديث فقد تأثّرت العربية بلغات الغرب – وخاصة الإنجليزية– وأخذت منها مئات من الألفاظ في شتّى المجالات، ولو تأملنا هذا الدخيل لوجدنا بعضه من ألفاظ النحت الاسمي وبعضه الآخر من ألفاظ النحت الاستهلالي الذي لم تعرفه العربية من قبل. أما أنواع النحت الأخرى التي أراد بعض الباحثين والمترجمين أن يقابلوا بها المركّب – بأنواعه– في الإنجليزية والفرنسية، فإن هذا البحث يثبت أن العربية لم تتقبلها لأن معظمها ما يزال حبيس المؤلّفات التي وردت فيها.

النَّحْت في العربية قديماً وحديثاً

أولاً- النحت عند المتقدمين:

الخليل – سيبويه – ابن فارس

المُحْدَثون وابن فارس

النحت الاسمي والوصفي

المُحْدَثون والنحت من الرباعي

تقويم ونتائج

ثانياً- النحت في العصر الحديث:

النحت في الإنكليزية

النحت والتركيب المزجي

نحت الدُّعابة والنحت الجاد

أنواع النحت الجاد:

ترجمة السوابق- ترجمة اللواحق – النحت من المُركَّبات – النحت من أسماء المقادير

مؤيّدو النحت ومعارضوه

قرارات مجمع القاهرة

أنواع النحت الشائعة: النحت الأعجميّ المُعَرَّب – النحت الاستهلالي- النحت الاستهلالي وظواهر المختصرات والرموز وتقصير الألفاظ

أضرب النحت الاستهلالي

نتائج البحث

أول من ذكر النحت هو الخليل بن أحمد، فقد عرّفه وسمّاه ومثّل لضربين منه، فقال: "...وقد أكثرت من الحيعلة؛ أي من قولك: حيَّ على، وهذا يشبه قولهم: تعبشمَ الرجلُ وتعبقسَ، ورجل عبشميّ: إذا كان من عبد شمس أو من عبد قيس، فأخذوا من كلمتين واشتقوا فعلاً... فهذا من النحت"[١]. ثم أشار إليه سيبويه دون أن يسمّيه بقوله: "وأما حَيَّهَلَ التي للأمر فمن شيئين، يدلّك على ذلك: حيَّ على الصلاة...، وقد يجعلون للنّسب في الإضافة اسماً بمنزلة جعفر ويجعلونه من حروف الأول والأخير ولا يخرجونه من حروفهما ليعرف...، فمن ذلك: عبشميّ وعبدريّ"[٢]. فهذان هما الضربان اللذان سمّاهما المحدثون: النّحت النّسبي والنحت الفعليّ[٣]؛ فأمّا أوّلهما فهو اسم منسوب إلى علم مركّب تركيباً إضافياً، نحو: عبشمي (نسبةً إلى عبد شمس) و: عبقسيّ (إلى عبد القيس) و: عبدريّ (إلى عبد الدار) و: عبدليّ (إلى عبدالله) و: تيمليّ (إلى تيم الله) و: مرقسي (إلى امرئ القيس)[٤]، ومنه أيضاً: دربخيّ (إلى دار البطّيخ) و: سقزنيّ (إلى سوق مازن) و: رسعنيّ (إلى رأس العين) و: بهشميّ (إلى بني هاشم)[٥] وقد يكون منسوباً إلى غير ذلك، نحو: طبرخزيّ (إلى طبرستان وخوارزم) و: حنفلتيّ (إلى أبي حنيفة والمعتزلة) و: شفعنتيّ (إلى الشافعي وأبي حنيفة)[٦].

وأمّا الآخر– أي الفعلي– فهو أن يُنحت فعل من لفظ جملة[٧] اختصاراً لها، نحو: حَيْعَلَ الرّجلُ و: سَبْحَلَ: مِنْ سبحان الله، و: حَسْبَلَ: حسبي الله، و: حمدَلَ: الحمد لله، و: سمعَلَ: السلام عليكم، و: دمعزَ: أدام الله عزك، و: كبتعَ: كبت الله عدوك، و: جعفدَ أو جعفلَ: جُعلت فداءك، و: طلبقَ أو طبقلَ: أطال الله بقاءك، و: بسملَ: بسم الله الرحمن الرحيم، و: حولق أو حوقل: لا حول ولا قوة إلا بالله، و: بأبأ: بأبي أنت، و: هلّل أو هيلل: لا إله إلا الله، و: ترجّع واسترجع: إنا لله وإنا

إليه راجعون[٨]. ولم تستعمل العرب هذه الأفعال وحدها، بل أضافت إليها – غالباً– مصادرها، كالسّبحلة والحسبلة والحمدلة والسمعلة والبسملة والتهليل والاسترجاع، وبعض مشتقّاتها أحياناً، فمن شواهد ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

لقد بسملتْ ليلى غداة لقيتها فيا حبّذا ذاك الحديث المُبَسْمَلُ[٩]

ورواية الخليل:

أقول لها ودمعُ العين جارٍ ألم تحزنك حَيْعَلَةُ المنادي[١٠]

ورواية ابن الأنباري:

فداك من الأقوام كل مُبَخّ‌ٍلِ يحولق إمّا ساله العُرْفَ سائلُ[١١]

وقول الشاعر:

بحَيَّهلاً يُزْجَون كلَّ مطيّةٍ أمام المطايا سَيْرُها المُتقاذفُ[١٢]

ومنه أيضاً شاهدان نقلهما السيوطي، أحدهما قول الشاعر:

لا زلت في سعدٍ يدوم ودَمْعَزَة

والآخر قولهم: فلان كثير المَشْأَلة: إذا أكثر من قول: ما شاء الله[١٣]. ومن هذا الضرب كذلك المصدر: الفنقلة، من قولهم: فإن قيل كذا قيل كذا، والفعل: تلاشى: من: لا شيء[١٤].

وسمّى المحدثون الضربين الآخرين منه: النّحت الاسمي والنّحت الوصفي، ويريدون بهما أن يُنحت من كلمتين اسمٌ أو صفةٌ، نحو: جُلْمُود (من: جلد وجمد) و: ضِبَطر للرجل الشديد (من: ضبط وضبر)[١٥]. ومن الواضح أن هذين

الضربين اللذين ينبغي أن يكونا فرعين لضرب واحد[١٦]، إنما يستندان إلى ما ذهب إليه ابن فارس – إمام القائلين بالنحت بين المتقدّمين– من أن معظم الرباعي والخماسي – أسماءً وأفعالاً– منحوت، إذ بنى معجمه "مقاييس اللغة" على هذا المذهب في كل مادة رباعية أو خماسية أمكنه أن يرى فيها شيئاً من النّحت. ويرى بعض الباحثين أنه "لم يبتدع هذا المذهب إلا حين رأى رأي العين فساد الأدلّة على أصالة الحروف في الأسماء الرباعية والخماسية، وإذا هو ينكر هذه الأصالة لا في الأسماء وحدها بل في الأفعال والصفات أيضاً"[١٧]. على أن هذا لا يعني أن ابن فارس يجعل كل ما جاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف ضرباً واحداً، فهو – عنده – ثلاثة أضرب: "فمنه ما نُحت من كلمتين صحيحتي المعنى مطّردتي القياس، ومنه ما أصله كلمة واحدة وقد أُلحق بالرباعي والخماسي بزيادة تدخله، ومنه ما يُوضع كذا وضعاً"[١٨]. فممّا ذكره من أمثلة الرباعي من الضرب الأول – أي المنحوت– في الأسماء قولهم: جمهور للرّملة المشرفة (من جَمَرَ وجَهَرَ)، و: جَلْمَد للحجر والإبل الكثيرة (من الجَلَد والجَمَدَ)، و: جَعْفَر للنهر (من جَعَفَ: صُرعَ، والجَفْر: البئر التي لم تطوَ)، وفي الصفات قولهم: الزُّهْلوق: الخفيف (من زلق وزهق)، و: القَلْقَم: الواسع (من قَلَقَ ولَقَمَ)، و: الهِبْلع: الأكول (من الهَلَع والبَلْع)؛ وفي الأفعال: جُعفلَ الرّجل: إذا صُرعَ (من جُعف وجَفَلَ)، و: افرنقعوا: إذا تنحّوا (من فَرَقَ وفَقَعَ)، و: ازلغبَّ الشّعرُ: إذا نبتَ بعد الحلق (من زَغَبَ ولَغَبَ). ومن أمثلة الخماسي منه: الخِنْثَعْبة: الناقة الغزيرة اللّبن (من خنث وثعب)، والدَّلَهْمَس: الأسد (من دالسَ وهمسَ)، و: الهَمَرْجَل: الفرس الجواد (من همد وهجل)[١٩].

وتكون الزيادة في الضرب الثاني منه بحرف في أول اللفظ أو في وسطه أو في آخره، فمن أمثلته في الأفعال: بَلْذَمَ: إذا فرِق فسكت، (من: لذِمَ: إذا لزم بمكانه فرقاً لا يتحرّك) والباء زائدة، و: برجمَ: أغلظَ في الكلام (من البَجْم) والرّاء زائدة، و:

برعمَ النبتُ: إذا استدارت رؤوسه (من: برع إذا طال) والميم زائدة. ومنها في الأسماء: القُطْرب: دويبة (من الطرب) والقاف زائدة، و: الشِّرْذمة: القليل من الناس (من: شرمتُ الشيء إذا مزّقته) والذال زائدة، و: البَرْزَخُ: الحائل بين الشيئين كأنّ بينهما برازاً أي متّسعاً من الأرض والخاء زائدة. ومنها في الصفات: برْدس: الرجل الخبيث (من الردس أي اقتحام الأمور) والباء زائدة، و: الدِّعبل: الجمل العظيم (من: دَبلتُ الشيء: إذا جمعته) والعين زائدة، و: الشُّبرم: القصير (كأنه في قدر الشِّبْر) والميم زائدة[٢٠].

أمّا أمثلة الضرب الثالث أي الموضوع وضعاً، فمنها في الأفعال: طربلَ الرجلُ: إذا مدّ ذيوله، و: اجلخَمَّ: استكبر، و: اقذعلَّ: عَسُرَ، وفي الأسماء: السّنّور والضفدع والفَرْقد، وفي الصفات: الدّردبيس: الدّاهية، و: الزِّعنف: اللئيم، و: الهَبَنْقع: الأحمق[٢١].

ولو تفحّصنا مذهب ابن فارس هذا، لوجدنا فيه أوجه ضعفٍ منهجاً وتطبيقاً، فأمّا في المنهج فالضّعف من وجهين: أحدهما أنه تحدّث أول الأمر عن ضربين من الرباعي "أحدهما المنحوت.. والآخر: الموضوع وضعاً"[٢٢]، ثم ما لبث أن جعله –كما رأينا– ثلاثة أضرب، ممّا دفع بعض الباحثين إلى الاستنتاج بأنه "لا فرق عند ابن فارس بين رباعي كان في الأصل ثلاثياً ثم زيد عليه حرف في آخره أو أوّله أو وسطه، ورباعي آخر مستخرج على طريق النّحت من ثلاثيين اختُزلا معاً، أو اختُزل أحدهما دون الآخر، فهذا وذاك إنما تمّ الأمر فيهما بالنّحت"[٢٣]. غير أن تعريف ابن فارس للأضرب الثلاثة وأمثلته لبيانها يشيران إلى أن ضرباً واحداً من الثلاثة هو المنحوت فحسب، فقد أورد أمثلة أجاز فيها أن تكون منحوتة أو أن تكون مزيدة بحرف، نحو: جَنْدل: للحجر، من الجَدْل وهو صلابة في الشيء، ويجوز أن يكون منحوتاً من هذا ومن الجَنَد وهي أرض صلبة، و: العَشَنَّق: الطويل الجسم، من العَنَق أو منحوت منه ومن الشَّنَق، و: العملّس:

الذئب زِيدت فيه اللام أو من عمل وعمس[٢٤]. بل إنه نصَّ في أحد المواضع على الفصل بين هذين الضربين، فقال: "وليس ذلك منحوتاً، ولكنه ممّا زيدت فيه الميم"[٢٥]. ووجه الضعف الآخر: أنَّه عرّف هذا المنحوت بأنه ما نُحت من كلمتين اثنتين، في حين أن بعض أمثلته منحوت –عنده– من ثلاث كلمات، نحو: العَسْلَق: كل سبُع جرؤ على الصيد، من: عَسِقَ به وعلِق وسلق، و: العِلكد: الشديد، من: عَكدَ والعِلْود واللّكد، و: العَصْلَبيّ: الشّديد الباقي، من: عصبَ وصلبَ وعصلَ، و: القَلْفَع: ما يبس من الطين على الأرض فيتقلّف، من: قفعَ وقلعَ وقلفَ، والكُرْدوس: الخيل العظيمة، من: كردَ وكرسَ وكدسَ، و: النّقرشة: الحسّ الخفيّ، من: نقرَ وقرشَ ونقشَ، و: الهَمْرجة: الاختلاط، من: همج وهرج ومرج[٢٦].

وأمّا في التطبيق فمن أوجه الضعف عنده أنه يتردّد أحياناً في تحديد الضرب الذي يُصنّف فيه اللفظ، فيُجيز – كما ذكرنا– أن يكون اللفظ منحوتاً أو أن يكون مزيداً بحرف، ومنها: أن بعض أمثلته من المنحوت أو المزيد إنما هو من الدّخيل المعرّب، نحو: الفَرزْدَقَة: القطعة من العجين (من: فَرزَ ودقَّ)، و: جردبَ الرجلُ طعامه: إذا ستره بيديه (من: جدب والجراب)، و: البرزخ (المزيد بالخاء)[٢٧]، فالألفاظ الثلاثة فارسية، وأصولها هي: پرازده: بالمعنى نفسه، و: كَرده بان: حافظ الرغيف، و: فَرْسخ: المقياس المعروف[٢٨]، ومنها: الخلط بين المنحوت والمشتقّ كادّعائه أن الجذمور – وهو الباقي من أصل السعفة إذا قُطعت– منحوت من الجذم والجذر، وأن البرجد – وهو الكساء المخطّط– من البجاد والبُرد، وأن الصَّهْصَلِق – وهو الشديد الصوت– من صهل وصلق[٢٩]، لأن الأصلين اللذين نحت ابن فارس منهما –في هذه الأمثلة– متّفقان في الدلالة، فينبغي إذاً أن تكون الألفاظ المذكورة مشتقّة من أحد الأصلين وليست منحوتة؛ لأن النحت لا يكون من كلمتين متّحدتين معنىً[٣٠]، ومنها أيضاً: أنه لا يفرّق تفريقاً واضحاً بين نوعي

المزيد اللذين ذكرهما؛ أي المزيد بحرف للمبالغة والمزيد بحرف لغيرها، ولكننا نستنتج ممّا أورده من أمثلة أن حروف المبالغة –عنده– محصورة في النون والميم وأنها لا تقع إلاّ كسعاً، نحو: امرأة خَلْبَن: خرقاء، و: رَعْشن، و: سِمْعَنّة نِظْرَنَّة: للمرأة الكثيرة التسمّع والنّظر، و: زُرْقم: للشديد الزّرق، و: بلعوم[٣١]. على أنه يورد في موضع آخر أمثلة كثيرة "يزيدون فيها تعظيماً للشيء أو تهويلاً وتقبيحاً"[٣٢]، نحو: العَبْهر: الضخم الخَلْق (من البهر)، و: العَلْهَب: التّيس الطويل القرنين (من: العُلَب وهو النّخل الطوال)، و: العُرقوب (من العَقِب)، و: العقرب (من العَقر)، و: العَنْبَس: الأسد (من العبوس)[٣٣]. ويُلاحظ هنا أن الحروف المزيدة متنوّعة كالعين والهاء والرّاء والباء والنّون؛ وأنها تقع حشواً لا كسعاً.

ولعلّ هذه المآخذ وغيرها هي التي جعلت فريقاً من اللغويين المحدثين يرفض مذهب ابن فارس رفضاً تاماً؛ لأنه "إن يكن يدلّ على شيء فعلى قدرة لغوية فقط وتحيّل عقلي"[٣٤]، وهو "لا يعدو الظنّ والتخمين والتأويل البعيد"[٣٥]، بل إن بعضهم وجد فيه "تحايلاً" وتعسّفاً وتعارضاً مع المناهج العامة التي تسير عليها اللغات الإنسانية بصدد الكلمات الدالَّة على الحدث وتصريفها بعضها من بعض"[٣٦]. وأظهر آخرون إعجابهم به، ولكنهم –مع ذلك– رموا صاحبه "بالتكلّف في بعض ما ادّعى فيه النحت"، وأقرّوا بأنه "يتعسّف في التفسير ويجانب الدقّة في بعض المواطن"[٣٧]. ومنهم من عدّل مذهبه بعض التعديل، فرأى أنّ النحت في الرّباعي هو من أصلين ثلاثيين يدلان على كيفية وقوع الحدث الذي يعبّر عنه المنحوت، ففعل دحرجَ منحوت من: دحره فجرى، و: هرولَ: من: هربَ وولّى، و: خرمش الكتاب: أفسده، من: خرم وشوّه أو من: خرم وشرم، و: دعثره: إذا صرعه، من: دعّه فعثر، و: بحثرت الدّجاجةُ من: بحثتْ وأثارت التراب لتلتقط الحَبَّ[٣٨]. وأخذ بعضهم بمذهب ابن فارس في تفسير نشوء الثلاثي كذلك"؛ لأن بعض الأفعال الثلاثية تقبل الحلَّ إلى أصلين لكل منهما معنى في نفسه، نحو:

"قطف" ويفيد القطع والجمع، والأصل فيه: "قطْ لفْ" الأولى قطعَ والثانية جمعَ، وبالاستعمال أُهملت اللام ونُقلت حركتها إلى ما قبلها فصارت قطف، و: "قمش"... و"بعج""... ومن يسلّم بإمكان حدوث النحت في الرباعي... لا يستبعد حدوثه في الثلاثي"(٣٩).

ولم تكتفِ طائفة منهم بالنّقد والرّفض، بل تجاوزت ذلك إلى اقتراح مذهب بديل يرى أن كثيراً من الرباعي ليس منحوتاً ولا مزيداً، ويردّ نشأته في العربية إلى ظاهرة المخالفة الصوتية Dissimilation؛ أي "إبدال أحد الحرفين المتماثلين في صيغة فَعَّلَ حرفاً يغلب أن يكون من الحروف المائعة أو المتوسطة (وهي اللام والميم والنون والرّاء)، مثل: تَقَرْصَعَ فأصلها تقصَّع"(٤٠). وفسّر هؤلاء –بذلك– بعض أمثلة ابن فارس – أسماء وأفعالاً– نحو: دحرجَ وبعثقَ وقرضبَ والبُحتر وبحثر وجَنْدل والجمهور وبَلْطَحَ وتبلْخَصَ وبرجَمَ، فهي –عندهم– من المضعّف العين: درَّجَ وبثَّقَ وقضّبَ(٤١) وبتَّرَ وبذَّرَ – المنقلبة عن بَحْذَرَ(٤٢)– وجَدَّلَ وجَمَّرَ(٤٣) وبَطَّحَ وتبخَّصَ وبجَّمَ(٤٤)، في حين أنها عند ابن فارس من المنحوت أو المزيد بحرف(٤٥). كما فسّروا الكلمات المنتهية بالميم مثل: بلعوم وحلقوم وزلقوم وخرطوم بأنّ الميم فيها هي "علامة التنوين في اللغة الحميرية القديمة"(٤٦).

فمن الواضح إذاً أن الجميع – قدامى ومحدثين– يسلّمون بأن العربية عرفت قديماً ضربين من النّحت هما: النّحت النّسبي والنّحت الفعليّ المصوغ من لفظ الجملة، فينحصر – بذلك– الخلاف في الضرب الثالث منه أي النّحت الاسمي أو الوصفي. وأيّاً كان الرأي في مذهب ابن فارس فإنه يمكن البرهنة على وجوده – على قلّة– بأمثلة لا يمكن تفسير صوغها بغير النحت، فمنها ثلاثة أمثلة طريفة نقلها ابن منظور عن الأزهري هي: "المُحَبْرَم": من مرقة حبّ الرمّان، و: "مِشْلَوْز" للمشمشة الحلوة المخّ، من: مشمش ولوز، و: "الفِرْنب" لولد الفأرة من اليربوع، من: فأر وأرنب(٤٧)، ورابعٌ ذكره السيوطي هو: "العَجَمْضى" لضربٍ من التمر، من:

عَجَم: النّوى و: ضاجم: وادٍ معروف[٤٨]. ولعلّ منها كذلك: "الإمّعة" للّذي لا رأي له ويقول لكل أحد: أنا معك[٤٩]، و: "العَرَاجلة" أو "العَرْجَلة" للجماعة من الناس، أي: لمن يمشي على رجليه، فيكون منحوتاً من الجار والمجرور، ويؤيّد هذا قول اللغويين إن هؤلاء لا يكونون إلاّ مشاةً[٥٠]. ونضيف إليها مثالين للثلاثي المنحوت هما اللون الأسمر: من الأسود والأحمر[٥١]، واللون الأصحر: للأحمر الضارب إلى غبرة[٥٢]: من الأصفر والأحمر، ما لم يكن مشتقاً من لفظ الصحراء.

أمّا في العصر الحديث فالظاهر أن استعمال النّحت في العربية الفصيحة يعود إلى تأثّرها بأساليب التعبير في اللغات الأجنبية وخاصة الإنجليزية، ممّا يستدعي أن يكون الحديث عنه فيها مدخلاً إلى البحث فيه في العربية. وبالرغم من أن الباحثين الغربيين يختلفون في ظاهرة النّحت اصطلاحاً وتعريفاً، فإن أكثر المذاهب شيوعاً وقبولاً يجعل المصطلحات: **blend** و: **contamination** و: **telescoped word** و: **portmanteau word** مترادفة، ويعرّف أصحابه المنحوت بأنه اللفظ الناتج عن ضمّ اثنتين أو أكثر من الوحدات الصرفية المنفصلة **free morpheme** متضمّناً دلالات تلك الوحدات[٥٣]. وينبغي هنا التذكير بأن الشبه الواضح بين النّحت والتركيب المزجي **compounding** أدّى إلى تداخلهما عند الباحثين، فكلاهما لفظ مركّب من كلمتين أو وحدتين صرفيتين، غير أن الفارق الدقيق بينهما هو أنّ المركّب المزجي يحتفظ بالعناصر المكوّنة له تامّةً دون نقصان، نحو: bathroom "الحمّام" و: washing machine "الغسّالة" و: father-in-law "حمو الزّوج أو الزّوجة" في الإنجليزية، و: "برمائيّ" و: "لاسلكيّ" في العربية، في حين يلحق عناصر المنحوت حذف واختصار[٥٤]، ممّا جعل بعض المحدثين يقرنون بين النّحت والاختزال[٥٥]، بينما رأى الأكثرون أنه ضرب من الاشتقاق وسمّاه بعضهم الاشتقاق الكُبّار[٥٦].

أمّا من حيث كيفية نشوئه واستعماله، فهو ضربان: أحدهما عفويّ غير متعمّد؛

لأنه ينشأ غالباً عن خطأ من المتكلّم أو زلّة لسان، إذ يؤدي وجود كلمتين مترادفتين أو شبه مترادفتين في ذهنه تكادان تكونان متساويتين في ملاءمتهما لما يريده إلى منعه من اختيار إحداهما وإغفال الأخرى ممّا يضطره –كي لا يتوقف عن الكلام– إلى اختيارهما معاً، فينتج عن ذلك كلمة منحوتة من كلتيهما، نحو: herrible (من: **h**orribe+t**errible** فظيع) و: smever (من: **cl**e**ver** + **sm**art ذكيّ)، و: preet (من: sw**eet** حلوٌ +**pr**etty ظريف)[٥٧]. والآخر متعمّد مقصود، وهو نوعان: نوع تصوغه أقلام الكتّاب والمحرّرين في الكتب والصحف وغيرها من وسائل الإعلام على سبيل الدّعابة أو التهكّم، كلفظ "الفنقلة" الذي استعمله طه حسين في كتاب "الأيّام"[٥٧أ]، ولفظ "متشائل" – نحتاً من "متفائل" و"متشائم"– في عنوان إحدى المسرحيات[٥٨]، وقول بعضهم: "فيرحبانيّ" وصفاً لفنّ فيروز والأخوين الرحبانيين، وقوله: صرخة "يوسهبيّة" نسبةً إلى الممثّل يوسف وهبي، ولفظ "طِينْطاطس" الذي ورد في صحيفة مصرية وصفاً لكمية من البطاطس أُنزلت إلى الأسواق دون إزالة الطّين الملتصق بها. ولعلّ منه – في القديم– رواية الأزهري: "فلان يبرقل علينا، و: دَعْنا من البَرْقلة، وهو أن يقول ولا يفعل، ويَعد ولا يُنجز، أُخذ من البرق والقول"[٥٩]، ولفظ "البَلْكَفَة" في بيت للزمخشري يردّ به على قول أهل السنّة: إن الله تعالى يُرى بلا كيف، وهو قوله:

قد شبّهوه بخلقه فتخوّفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفة[٦٠]

وكذلك لفظ "جبّاعة" (من: جبّة ودرّاعة)[٦١]. ويتداول الناس ألفاظ هذا النوع بعض الوقت ثم ينصرفون عنها ليحلّ محلّها غيرها؛ ولذا فإنه قصير العمر لا يكاد يدخل معجم اللغة إلا نادراً.

والنوع الثاني منه مِن وضع الباحثين والمشتغلين بالعلوم والآداب والفنون لصياغة المصطلحات وألفاظ الحضارة، فيُفتح له بذلك باب الاستعمال في لغة

الكتابة ليُصبح جزءاً أصيلاً فيها، ومن ألفاظه في الإنكليزية تعبيراً عن شؤون الحياة المعاصرة: smog (من: **fog** ضباب + **sm**oke دخان) وصفاً للدّخان الكثيف الذي يغطِّي سماء بعض المدن مشبهاً الضّباب، و: stagflation (من: in**flation** تضخّم+**stag**nation ركود) بياناً لحالة تجمع بين الرّكود الاقتصادي والتضخّم، و: brunch (من: **lunch** اغداء + **br**eakfast وجبة الفطور) وهي (وجبة تنوب عن وجبتي الفطور والغداء) و: motel (من: **mo**torist راكب السيارة + ho**tel** فندق) وهو فندق على الطرق العامة خارج المدن للمسافرين بسياراتهم. ويُلاحظ أن بعض أمثلته يغدو قادراً على صوغ كلمات جديدة، نحو: smog التي صيغ منها الصفة smoggy والمركَّب antismog.

ومازال نحتُ الدعابة والتهكّم بعيداً عن العربية الفصيحة، لأن استعماله ضيّق جداً لا يتجاوز لغة الخطاب عند المثقفين العرب – وخاصة الدارسين في جامعات الغرب – إذا التقوا في جلسات خاصة أو حلقات مغلقة، في حين تحمّس كثيرون– ولا سيّما الباحثين في العلوم والفنون والمترجمين– للنوع الثاني أي الجادّ منه، وكان من أشدّهم حماسة أحمد فارس الشدياق وساطع الحصري وإسماعيل مظهر ومنير البعلبكي[٦٢]، الذين حاولوا تطبيقه تطبيقاً عملياً فقابلوا بما صاغوا من أمثلته المنحوتَ والمركَّبَ – بأنواعه – في الإنجليزية وغيرها، فضلاً عن نقلهم بعض المنحوتات الأعجمية بالتعريب. ولو نظرنا في مؤلفاته – وخاصة المعجمات ثنائية اللغة بضربيها العام والمتخصص– لوجدنا أنها سعت إلى إدخال أربعة أنواع من النّحت إلى العربية، وهي:

١– ترجمة السوابق (**prefixes**)، ثم اختصارها ونحت اسمٍ أو صفة منها ومن ترجمة ما يليها: والمقابل لمعظم هذه السوابق ظروف في العربية، ومنها: pre– "قبل" ← قَبْ، نحو: Prehistoric قَبْتاريخيّ؛ و: super– و: hyper–

و: ultra- وكلّها بمعنى "فوق" ← فَوْ، نحو: supernatural فَوْطبيعيّ، و: hypergeometric فَوْهندسيّ، و: ultraviolet فَوْبنفسجيّ؛ و: sub- و- under و infra- وثلاثتها بمعنى "تحت، دون" ← تَحْ / دُوْ، نحو: subaverage تَحْمُعَدّليّ أو: دُومتوسطيّ، و: undersea تَحْبَحْريّ، و: infrared rays الأشعة الدُّوحمراء؛ و: semi- "شِبْه" ← شِبْ، نحو: semisolid شِبْصُلْب؛ و: circum- "حَوْل" ← حَوْ، نحو: circumsolar حَوْشمسيّ؛ و: inter- "بين" ← بَيْ، نحو: interdental بَيْسِنيّ أو: بَيْأسناني؛ و: extra- "خارج" ← خا، نحو: extracardial خاقلبيّ، و: mid- "منتصف، نصف" ← نِصْ، نحو: middorsal نِصْظَهريّ (أي: واقع في منتصف الظَّهْر). ويُضاف إليها ثلاث أخريات، أولاها: di- ذات الأصل اليوناني الدّاخلة على الأسماء ومعناها "اثنان، مرّتان"، وتختصر إلى "ثِنْ"، نحو: dichroic ثِنْلونيّ، و: digastric ثِنْبَطنيّ (أي: ذو بطنين، أو: مزدوج البطن)؛ والثانية: tri- وهي كالتي سبقتها أصلاً وعملاً، ومعناها "ثلاثة، ثُلاثيّ"، وتُختصر إلى: "ثِلـ"، نحو trilateral ثِلْضلعيّ (أي: ثلاثيّ الأضلاع)، و: trimorphic ثِلْشكليّ (أي: مادّة ذات ثلاثة أشكال)؛ والأخيرة: de- ذات الأصل اللاتيني ومعناها "ينزع، يُزيل" وهي تدخل على الأفعال فتدلّ على ضدّ معانيها، نحو: magnetize يُمغنط؛ و: demagnetize يُزيل المغنطة. وطريقة النّحت المتّبعة هنا هي نقل هذه الأفعال إلى العربية ترجمةً أو تعريباً ثم نحت فعلٍ مؤلّفٍ من أحد الفعلين: "يزيل أو ينزع" بعد اختصارهما إلى "يُز" أو: "يُنز" ومن الفعل الأصلي قبل دخول -de عليه، نحو: demagnetize يُزَغْنط، و: dehydrogenate يُزهرج (أي: يزيل الهدرجة)، و: dehumidity يُزَرْطب (أي: يُزيل الرّطوبة)، و: decarbonize يُنزْكر (ينزع الكربون)، و: decarbonate يُنَزْكر (ينزع أكسيد الكربون)، و:

decalcity يُنزكل (ينزع الكالسيوم)[٦٣].

٢ – ترجمة اللواحق (**suffixes**) ثم اختصارها ونحت فعلٍ منها وممّا يُركّب معها على وزن فَعْلَلَ: فمنها ترجمة ectomy – إلى "استئصال" واختصارها إلى "صَلْ"، و: algia– إلى "وَجَع" واختصارها إلى "وَجـ"، stomy– إلى "فَتْح" واختصارها إلى "فَتْ" و: tomy إلى "قَطْع" واختصارها إلى "قَطْ "، فإذا كان الحديث عن استئصال الكلية nephrectomy –مثلاً– فالمنحوت هو: صَلْكَلَ صلكلةً، وعن وجعها nephralgia فهو: وَجْعَلَ وجعلةً، وعن فتحها nephrostomy فهو: فَتْكَلَ فتكلةً، وعن قطعها nephrotomy فهو: قطكل قطكلة[٦٤]، وهلم جرّا.

٣ – النحت من الأسماء والصفات المركّبة: ويكون بترجمة المركَّب اسماً أو صفةً ثم بنحت كلمة من عناصر الترجمة، نحو: sleepwalking السَّرْنمة[٦٥] (أي: السّير أثناء النوم)، و: surf-riding الرّكْمَجة (ركوب الأمواج)، و: linsey-woolsy الكَتْصوف (الكتّان والصوف)، و: leukocyte الكُرَيْضة[٦٦] (الكريّة البيضاء)، و: airborne المُجَوْقل (المنقول جوّاً) و: hydroelectric الكهرمائيّ (كهربيّ مائيّ)، و: seriocomic هَزْجدّي (هزليّ جدّيّ)، و: medieval قروسطي (منسوب إلى القرون الوسطى)، و: transliteration النَقْحرة (نقل حروف اللفظ من لغته إلى حروف لغة أخرى)، و: space-time الزَّمْكان (الزمان والمكان)، و: espace-temps الحَيْزَمَن (الحيّز والزمن)[٦٧]، و: zoophyte الحَيْنَب والحَيْنبات (الحيوان والنبات)[٦٨]، و: oenomel الخَمْسَل (الخمر والعسل)، و: megathere البَهْضَم (بهيمة ضخمة)، و: nasalized consonant أنفميّ (للصوت الذي يتّخذ مجراه من الأنف والفم معاً)[٦٩]، و: triphibian بَرْماجيّ (معدّ للاستعمال في البرّ والماء والجوّ)، و:

secco الرَّجْصَفة (الرّسم على الجصّ الجاف)[٧٠]. وقد يكون النحت من المعَرَّب لا من المترجم، نحو: electro-magnetic أو: magnetoelectricity كَهْرَطيسيّ (كهربائيّ مغناطيسيّ). وإذا ما ورد من هذه الألفاظ أفعالٌ أو مشتقاتٌ في الأصل المترجم عنه فإننا نجد نظائر له بالنّحت أيضاً، فالفعل "sleepwalk" يسير وهو نائم" يقابله "يُسَرْنم"، واسم الفاعل منه sleepwalker يقابله "المُسَرْنم". ومن الطريف هنا مقابلة المنحوت الأجنبيّ بمنحوت على شاكلته في العربية، نحو: brunch فَطَرْغَد (الفطور والغداء)، و: smog الضَّبْخَن[٧١] (الضباب والدخان) و: libocedrus لُبْأَرز (لبنان وأَرْز) اسماً لشجرٍ من الصنوبريات[٧٢].

٤- النّحت من أسماء المقادير (أي: المقاييس والمكاييل والمساحات والأوزان): ومعظمها دخيل في العربية كالمتر والميل واللِّتر والإردب والهكتار والآر والكيلو والرّطل والقنطار والغرام. فمن المنحوت منها: العَشْرَغ decagram (أي: عشرة غرامات)، و: العَشْرَل decaliter (عشرة لترات)، و: العَشْرَم decameter (عشرة أمتار)، و: العَشْرَر decaare (عشرة آرات). أمّا صيغ أجزائها فهي على الترتيب: العُشْرُغ decigram (عُشْر الغرام)، و: العُشْرُل deciliter (عُشْر اللتر)، و: العُشْرُم decimeter (عُشْر المتر)، و: العُشْرُر deciare (عُشْر الآر)[٧٣].

والخلاف في الأخذ بالنّحت في العربية المعاصرة مماثل للخلاف في قبول التركيب المزجي، لأنهما متشابهان – كما بيّنا– في كيفية بنائهما. فقد رأى بعض الباحثين أن النّحت يمكنه أن يُسهم في نقل هذا السّيل الذي لا ينقطع من مصطلحات العلوم وألفاظ الحضارة إلى العربية، على أن تُراعى في صوغه شروط، أهمّها: أن يكون المنحوت منسجم الحروف، وعلى وزن من أوزان العربية، وأن

يؤدّي حاجات اللغة من إفراد وتثنية ونسب وإعراب[٧٤]. وعارض آخرون اللجوء إليه محتجين بأنه – لقلّته في العربية قديماً– سماعيٌّ لا قياسي، وبأنه يستغلق على الفهم لغموض أصله، ورأوا أن الوسائل الأخرى كالاشتقاق والمجاز والترجمة تغني عنه، "فلا حاجة بنا– إذاً– إليه لأن علماء العصر العباسي مع كل احتياجاتهم إلى ألفاظ جديدة لم ينحتوا كلمة علمية واحدة"[٧٥]، ولأن النّحت – عندهم– يشوّه كلم العربية[٧٦].

وما كان لمجمع اللغة العربية في القاهرة – وهو المؤسسة اللغوية العُليا في الوطن العربي– أن يبقى بعيداً عن بحث هذه المسألة؛ فشغل نفسه بها طوال ثلاثة عقود اشتدَّ خلالها الخلاف بين الراغبين في استعمال النّحت والرافضين له[٧٧]. وكانت البداية بُعيد تأسيس المجمع في الدّورتين الأولى عام ١٩٣٤ والثانية عام ١٩٣٥. ثم عُرض على مؤتمر المجمع في دورته الرابعة عشرة عام ١٩٤٨ تقريرٌ أعدّته لجنة الأصول مصحوباً بمنحوتات وضعتها لجنة الكيمياء والطبيعة، فانتهى المؤتمر إلى الموافقة على جواز النحت عندما تُلجئ إليه الضرورة العلمية. ثم قُدّم إلى مؤتمر المجمع في دورته الثالثة والعشرين عام ١٩٥٧، بحثٌ ذكر فيه صاحبه[٧٨] أن المصطلح العلمي الأجنبي ينبغي أن يقابله مصطلحٌ من كلمة عربية واحدة، فإذا لم يتيسّر ذلك فإمّا أن يُعرَّب المصطلح وإمّا أن يُعرَّف أو يُوصف بكلمتين أو أكثر، وأحسن من ذلك – عنده– أن يُنحت من تعريف المصطلح أو وصفه أو ترجمته كلمةٌ مفردة مستساغة، وذيّل البحث بمنحوتات في الطبّ تشرح طريقته في النّحت، فأُحيل البحث والمنحوتات إلى لجنتي الأصول والطب. وعاد المجمع إلى النظر في المسألة في دورته الحادية والثلاثين عام ١٩٦٥، فراجعت لجنة الأصول الملفّ كله، وأوصت في تقريرها بإجازة النّحت وفقاً

لضوابط وضعتها له. وهكذا أصدر المجمع قراراً "يجيز أن يُنحت من كلمتين أو أكثر اسمٌ أو فعلٌ عند الحاجة، على أن يُراعى –ما أمكن– استخدام الأصلي من الحروف دون الزّوائد؛ فإن كان المنحوت اسماً أُشترط أن يكون على وزن عربي والوصف منه بإضافة ياء النّسب، وإن كان فعلاً كان على وزن فَعْلَلَ إلا إذا اقتضت غير ذلك الضرورة، وذلك جرياً على ما ورد من الكلمات المنحوتة"(٧٩).

فإذا كان المراد في قرار المجمع أنواع النّحت التي أوردناها، فإنّ تتبّع الاستعمال اللغوي يُظهر أن العربية المعاصرة لم تتقبّل سوى أمثلة قليلة منه، نحو: "مجوقل" و "نقحرة" و "كهرمائيّ" و "كهرطيسي"، بالرّغم من موافقة معظم المنحوتات للضوابط المحدّدة في القرار. أمّا إذا كان المراد النّحت من الألفاظ العربية بعيداً عن التأثّر بالترجمة، فإنّنا لا نكاد نجد منه إلا منحوتات معدودات، نحو: "دَرْعميّ" لخرّيج كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، و"فصعميّة" نحتاً من الفصيحة والعامية، و: "مَسْرواية" الذي نحته توفيق الحكيم ليصف به مؤلَّفه "بنك القلق" لأنّه يمزج فيه المسرحية والرواية، و"طحاسنة" وقد ذكره أنور الجندي– في كتابه "اللغة العربية بين حماتها وخصومها" –وصفاً لمريدي طه حسين، و"فقلغيّة" الذي صاغه محمد عبد الجواد –محقّق كتاب "المسلسل في غريب لغة العرب" لأبي الطاهر التميمي – لما يتّصل بفقه اللغة. ولكن هذه المنحوتات – ما عدا أوّلها– غير متداولة، وأغلب الظنّ أن شيوعه يرجع إلى أسباب ثقافية، إذ ظلّ الأزهريون والدّرعميون طوال عقودٍ من السّنين يمثّلون نظامي التعليم القديم والجديد في مصر، فساعدت المقابلة المستمرّة بينهما – وكذلك خفّته وانسجام حروفه– على تداول هذا المنحوت.

ويبدو أن عدم تقبّل النّحت يرجع إلى أمرين؛ أحدهما: أن النّحت يؤدّي –

غالباً- إلى غموض الأصول المنحوت منها ممّا يجعل المعنى مستغلقاً، فأنّى للمرء أن يهتدي إلى الأصول والمعاني لأسماء كالرّكمجة والسّرنمة والرّجصفة والصلكلة والعَشْرَغ والعَشْرمَ والعَشْرَل؛ وأفعالٍ مثل: زَغْنَطَ ونَزْكرَ وسَرْنَمَ وصَلْكَلَ؟، والآخر: أن النّحت في بعض المنحوتات يجعلها شبيهة بالمركّب المزجي الذي لم تستسغه العربية أيضاً. ومن الواضح أن العربيّ يفضّل أن يقول: خارق للطبيعة، و: ثنائي اللّون، و: واقع خارج القلب - بالرّغم من طولها- على أن يختزلها بالنّحت إلى: فَوْ طبيعيّ، و: ثنْلوني، و: خاقلبيّ. وهكذا أدرك المتحمّسون للنّحت من المشتغلين بالعلوم والترجمة بعد زهاء قرنٍ من الجدال النّظري وصوغ المنحوتات بطرق شتّى، صحّة الرأي القائل "إن ترجمة الكلمة الأعجمية بكلمتين عربيتين كثيراً ما تكون أصلح وأدلّ على المعنى من نحت كلمة عربية واحدة يمجّها الذوق ويستغلق فيها المعنى"(٨٠). ومن أقوى الأدلّة على ذلك أن المعجم الطبّي الموحّد -وهو معجم عربي ثلاثي اللغات أنجزه باحثون من سبع دول عربية من المشرق والمغرب بتكليف من اتحاد الأطباء العرب- "لم يلجأ إلى النحت أو التركيب إلاّ فيما ندر، كأن تكون الكلمة قد شاع استعمالها أو تكون اللفظة مقبولة مفهومة، أو في النّسبة، مع اتّباع القواعد والضوابط المقرّرة"(٨١)، ولذا لا نجد فيه المنحوتات: زهرج و: سرنمة و: ثنبطني و: فوبنفسجيّ و: كريضة و: صلكلة، بل يقابلها فيه على الترتيب: نزع الهيدروجين و: سَيْرنوميّ و: ذو بطنين، و: فوق البنفسجيّ، و: كريّة بيضاء، و: استئصال الكلية.

غير أنّ قلّة المنحوت- مِن الأنواع التي ذكرناها - في العربية المعاصرة ليست مؤشّراً على انصرافها عن النّحت انصرافاً تاماً، وبرهان ذلك أنها تقبّلت نوعين آخرين منه هما المنحوت الأعجميّ المُعَرَّب والنّحت الاستهلالي.

فأمّا أوّلهما فهو نقل المنحوت في لغة أجنبية نقلاً حرفياً إلى العربية، ومن أمثلته الشائعة: الأكسيد oxide (من: oxys + acide)، و: الترانزستور transistor (من: transfer + resistor)، و: الإنتربول interpol (من: international + police)[٨٢]، و: التليثون telethon (من: television + marathon)[٨٣]، و: التِّلكس telex (من: exhchange + teleprinter)، و: الإنترفون interphone (من: telephone + intercommunication)، و: الجيوبوليتيكية[٨٤] geopolitical (من: politices + geography)، و: الإنترنت (من interconnected + network).

وأمّا النّحت الاستهلالي[٨٥]، فهو مصطلح نقترحه لما يُسمّى في لغات الغرب **Acronym**[٨٦]، وقد شاع فيها منذ منتصف القرن العشرين، ثم ازداد استعماله في العقود الأخيرة ازدياداً كبيراً. والمراد به نحت لفظٍ مصوغ من مجموع الحروف التي يُستهل بها عدد من الألفاظ –لا يقل عن ثلاثة– ليحلّ محلّها في الاستعمال. وينبغي قبل الكلام عليه في العربية أن نتنبّه إلى ضرورة التمييز بينه وبين ثلاث ظواهر لغوية شبيهة به، وهي:

أ– المختصرات **(Abbriviations)**: وهي الحروف التي يستعملها المؤلّفون والمترجمون والمفهرسون، اختصاراً للألفاظ التي يكثر ورودها في ما يصنّفون على النحو الذي نجده في المعجمات والموسوعات والفهارس تجنّباً لتكرارها. ولا يخفى أن العربية عرفت ذلك قديماً كاستعمال اللغويين من مؤلّفي المعاجم الحروف: د، ة، ع، ج، م، جج اختصاراً للكلمات: بلد و: قرية و: موضع و: جمع و: معروف، و: جمع الجمع، واستعمال علماء الحديث النبوي الحروف: صح، ح، ض لبيان درجة الحديث: أهو صحيح أم حسن أم ضعيف[٨٧]. وليس ثمة حدّ أو

شرط لاستعمال المختصرات في عصرنا هذا، إذ يكفي تواضع أهل الاختصاص عليها إذا كانت خاصةً بعلم من العلوم أو بفنٍّ من الفنون، أو تقبّل أصحاب اللّغة لها إذا كانت عامةً كي تستقرّ وتشيع، ولا تختلف العربية المعاصرة من حيث شيوع هذه الظاهرة فيها عن لغات الغرب، والمختصرات فيها ثلاثة أضرب؛ أوّلها: عربيّ خالص يماثل ما رأيناه عند القدامى، ومنه استعمال المعلّمين اليوم الحروف: ض، ل، ج، ج ج، م لتقدير درجات الطلبة في الامتحانات، فهي تعني: ضعيف ومقبول وجيّد وجيّد جداً وممتاز. وثانيها: عربيّ مأخوذ من ألفاظ معرَّبة، كاستعمال ألفاظ الأوزان والمقاييس والمكاييل فإنها في العربية –كما في غيرها– لا تكاد تُكتب إلا مختصرة، نحو: غ (غرام) و: كغ (كيلوغرام) و: م(مِتْر) و: كم (كيلومتر) و: ل(لِتْر) وهلمّ جرّا. وثالثها: معرَّب وإن كانت أصوله المختصر منها غير معرَّبة، نحو: مبيد الحشرات: دِدِتِ (DDT)، والمادة المتفجّرة: تي إن تي (TNT)، والموجة الإذاعية إف إم (FM)، وهيئة الإذاعة البريطانية: بي بي سي (BBC)، ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية: سي آي إيه (CIA)، ومكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي: إف بي آي (FBI)، والقرص المضغوط أو المدمج: سي دي (CD).

ب– الرّموز **(Symbols)**: وهي ما اصطلح عليه المؤلّفون في علم من العلوم أو فنٍّ من الفنون للدلالة على معنى أو مفهوم أو شيء. وقد تكون الرموز إشارات وعلامات أو أشكالاً ورسوماً، كاستعمال الإشارات الخاصّة بالضّرب والجمع والطّرح والقسمة، واستعمال الإشارة > بين عددين للدلالة على أن أوّلهما أكبر من الآخر؛ أو الإشارة < للدلالة على العكس، واستعمال رسم النّجم *(asterisk) في اللغات الأجنبية لدلالات شتّى يحدّدها المؤلّفون. وما يهمّنا هنا

أنّ الرموز قد تكون حروفاً – وهذا شائع في علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء – كاستعمال حرف السّين في العربية، وحرف **x** في الإنجليزية للدلالة على المجهول(٨٨).

ج- تقصير (أو: قَصْر) الألفاظ (**clipping**)(٨٩): وهو استعمال اللفظ مختصراً كتابةً ونطقاً، إمّا بحذف جزئه الأول؛ نحو: phone (من: telephone هاتف) و bus (omnibus) باص، حافلة، و: van (caravan) عربة تجرّها سيّارة وتستعمل للسّكن، وإمّا بحذف جزئه الأخير؛ نحو: lab (laboratory) مُخْتَبر، و: photo (photograph) صورة، و: fax (facsimile) فاكس، و: exam (examination) امتحان، اختبار، و: kilo (kilogram) كيلوغرام، و: ad (advetisment) إعلان، و: cab (cabriolet) سيّارة أجرة، و: fan(fanatic) مولعٌ بشيء، و: euro (european currency) اليورو: العملة الأوروبية الموحّدة، و: mobile (mobile phone) الهاتف المحمول/الجوّال. وقد يُحذف هذان الجزآن كلاهما، ويُحتفظ بالجزء المتوسط بينهما نحو: flu (influenza) إنفلونزا. فإذا كان التقصير كتابةً لا نطقاً، نحو: prof (professor) و: diss (dissertation) و: dept (department أو: deputy) فيكون اللفظ من المختصرات. ولا تعرف العربية هذه الظاهرة إلا فيما عرّبته من أمثلتها، نحو: باص وفاكس وكيلو وموبايل.

ويتبيّن من هذا أن المختصرات هي أكثر الظواهر الثلاث شبهاً بالنّحت الاستهلالي ممّا يؤدّي إلى وقوع اللَّبس بينهما، ولكن الفرق بين هاتين الظاهرتين من جهتين؛ إحداهما: أن حروف المنحوت الاستهلالي تأتلف لتولّد لفظاً جديداً لا يكاد يختلف عن الألفاظ غير المنحوتة سواء في نطقه أو في استعماله؛ في حين

تبقى حروف المختصرات منفصلة غير مؤتلفة، فينطق اللفظ المختصر – بذلك– حرفاً حرفاً، والأخرى: أن ألفاظ المنحوت الاستهلالي تُضاف إلى اللغة وتدخل معجمها بوصفها مواد لغوية جديدة، فيُستعمل لفظ "النازية" مثلاً – وهو منحوت– اسماً وصفةً استعمال "الفاشية" وهو لفظ غير منحوت، في حين تنوب حروف المختصر عن ألفاظه ولكنها لا تحلّ محلها على سبيل الإلغاء أبداً(٩٠).

وقد دخل العربية في النصف الثاني من القرن العشرين منحوتات استهلالية تمثّل شتّى مجالات الحياة المعاصرة، فهي أسماء لشركات أو لمخترعات أو لأمراض أو لمنظّمات وأحزاب قومية وإقليمية ودولية أو لغير ذلك، فمنها: الرادار **Radar** من: Radio detecting and ranging و: اللّيزر **Laser** من: Light amplification by stimulated emission of radiation، و: سام **SAM** من: Surface to Air Missile وهو صاروخ من الأرض إلى الجوّ، و: أواكس **Awacs** من: Airborne Warning & control system وهي طائرة للإنذار المبكّر، و: بال **PAL** من: Phase Alternating Line، و: سيكام **SECAM** من الفرنسيّة: Séquentiel couleur à mémoire وهما نظامان للإرسال التلفزيوني؛ أوّلهما بريطاني والآخر فرنسي، و: الإيدز **AIDS** من: Acquired Immone Deficiency Syndrome متلازمة عوز المناعة المكتسبة، و: النازية **Nazism** من الألمانية: Nationalsozialistische Deutshe Arbeiterpartei حزب العمّال الاشتراكي الألماني، و: الغستابو **Gestapo** من الألمانية: Geheime Statspolizei الشرطة السرّية؛ أي جهاز المخابرات، و: الناتو **NATO** من: North Atlantic Treaty Organization حلف شمالي الأطلسي، و: اليونسكو **UNESCO** من: Unit Nations Educational, Sientific & Cultural Or المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة، ونظيرها:

الإيسيسكو **ISESCO** المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، و: الأونروا **UNRWA** من: U.N. Relief & Works Agency وكالة غوث وتشغيل اللاجئين، و: اليونيسيف **UNICEF** من: U.N. International Children's Emergency Fund الصندوق الدولي لرعاية الطفولة، و: الفاو **FAO** من: Food & Agriculture Org. of the U.N. المنظمة الدولية للأغذية والزّراعة، و: الأوبك **OPEC** من:Organ. of Petroleum Exporting Countries منظمة الدول المصدّرة للنفط، و: الفيفا **FIFA** من الفرنسية: Fédération Intern. Football Association الاتحاد الدولي لكرة القدم، و: الجات **GATT** من: General Agreement on Tariffs & Trade المعاهدة الدولية للتعرفة الجمركية والتجارة، و: إياتا **IATA** من: Intern. Air Transport Assoc. الاتحاد الدولي للنقل الجوّي، و: الأيزو (شهادة الجودة) **ISO** من: Intern Standards Or المنظمة الدولية للمقاييس والمواصفات.

ومن الطريف أن المنحوت الاستهلالي قد يطابق لفظاً معروفاً في اللغة المستعمل فيها، فمن ذلك في الإنكليزية: Pen "قلم" والمنحوت **PEN** اتحاد الكتّاب الدولي؛ من: Intern. Assoc. of Poets, Playwrights, Editors, Essayists & Novelists، وفي الألمانية: Tee "شاي" والمنحوت: **TEE** قطار أوروبا السريع؛ من: Trans-Europ-Express.

ولم تكتفِ العربية المعاصرة باستعمال المنحوتات الاستهلالية الشائعة عالمياً، بل تجاوزت ذلك إلى محاكاتها بترجمة التسمية العربية إلى الإنكليزية، ثم بصوغ منحوت استهلالي من تلك الترجمة، فمن ذلك مثلاً: سانا **(SANA)** Syrian Arab News Agency الوكالة العربية السورية للأنباء، و:

كونا(**KUNA**) Kuwait News Ag وكالة الأنباء الكويتية، و: جانا Jamaheeriyya News Ag (**JANA**) وكالة الأنباء الليبية، و: الأليكسو **ALECSO**: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، و: الأوابك **OAPEC** منظمة الدول العربية المصدرة للنفط، وغيرها كثير. أما في أسماء الشركات، فيغلب أن ينتهي المنحوت بالنهاية "كو" المقتطعة من كلمة Company محاكاة للمنحوت: أرامكو؛ من:**Ar**ab **Am**erican Oil **Co**mpany شركة الزيت العربية الأمريكية، الذي دخل العربية أواخر الحرب العالمية الثانية، فمن أمثلته: تاميكو (Thameco): The Arabian Medical Co. الشركة الطبية العربية، و: جويكو (Jwico) Jordan wood Industries Co.الشركة الأردنية للصناعات الخشبية، و: سيسكو (Sesco) Saudi Electric Supply Co الشركة السعودية للمواد الكهربائية، وهلمّ جرّا.

ويبدو لي أن القصد كان –أول الأمر– استعمال هذه المنحوتات في غير العربية فحسب، أي في المراسلات والاتفاقيات مع الدول الأجنبية ومؤسساتها وشركاتها محاكاة للأسلوب المتّبع هناك، ولكن وسائل الإعلام المختلفة أشاعت استعمالها في العربية أيضاً. وربما ساعد على ذلك أمران، أحدهما: طول التسميات، فالكثير منها يتجاوز أربع كلمات والناس أميلُ إلى المختصر؛ والآخر: تشابهها إذا كانت لمؤسسات أو شركات عاملة في مجال واحد، كالمنظمات الثلاث: الدولية والعربية والإسلامية لشؤون التربية والثقافة والعلوم، وإن كان تشابه المنحوتات –هنا– أي اليونسكو والأليكسو والإيسيسكو قد يؤدي إلى اللَّبس.

غير أن الملاحظ أنّ أولي الأمر – أو بعضهم– أدركوا أن هذه المنحوتات الاستهلالية ليس لها في العربية معنى، فضلاً عن عجمتها ومخالفتها أصول العربية وقواعدها، فتحوّلوا إلى تسميات عربية واضحة. وصارت شركات الأدوية

ومستحضرات التجميل مثلاً تحمل أسماء الأطباء كالرازي وابن سينا وابن النفيس، أو أسماء تتّصل بمجال عملها كالشّفاء والحكمة ودار الدواء، أو أسماء مدن ومواقع أثرية وسياحيّة نحو: أوغاريت وعمريت وأفاميا. واستبدلت المؤسسات والشركات الحكومية في سورية بأسمائها المنحوتة أسماء عربية خالصة، فحلّت "مؤسسة سيّارات" الخاصة بشؤون النّقل محل "أفتوماشين"، و: "مؤسسة صيدلية" المسؤولة عن صناعة الدواء محل "فارمكس"، و: "مؤسسة محروقات" المسؤولة عن تسويق النفط ومشتقّاته محل "سادكوب"، ونهجت اليمن هذا النّهج فاختارت لوكالة الأنباء اليمنية اسم مملكتها القديمة "سبأ".

وإذا كانت بعض هذه التسميات تستعصي على الترجمة إلى اللغات الأجنبية لأنها أسماء أعلام، فإنها جميعها تمتاز بالقِصَر ممّا يتيح لها الانتشار في العربية وغيرها، ويجعلها في غنى عن النّحت.

ثم انتقلت هذه الظاهرة اللغوية من الاستعمال في التسميات المترجمة إلى الاستعمال في التسميات العربية كذلك، فلقيتْ هنا قبولاً. ولعلّ مردّ ذلك إلى الصِّلة الواضحة بين المنحوت الاستهلالي وما يتضمّنه من دلالة موحية، فاسم حركة "حماس" (من: حركة المقاومة الإسلامية) مرتبط بالحماسة للإسلام ليكون ركيزة المقاومة للاحتلال الإسرائيلي في فلسطين، واسم منظّمة "أمل" (من: أفواج المقاومة اللبنانية) أُريد به بعث الأمل لدى الطائفة الشّيعيّة في لبنان لنيل حقوقها التي كانت محرومة منها، و"الحشد" (من: حزب الشعب الديمقراطي الأردني) اسم يتّفق مع برنامج هذا الحزب الدّاعي إلى ضمّ جميع الأحزاب والقوى الديمقراطية في جبهة واحدة. ولا شكّ أن الرّبط الدلالي بين المنحوت والدلالة هو السبب في القلب المكاني الذي لحق بالمنحوت "واف" (من: وكالة الأنباء الفلسطينية) فحوّله إلى "وفا"، فكأنّ واضع المنحوت أراد التعبير عن الوفاء لفلسطين والالتزام بتحريرها. أمّا

المنحوت الذي لا يوحي لفظه بمعناه، نحو "واس" (من: وكالة الأنباء السعودية) فلا يشفع له نحته من العربية، لأنه –حينئذ– لا يختلف من حيث غرابته وغموض أصله ورطانته عن المنحوتات التي ذكرناها من الترجمة الإنكليزية، نحو: سانا و: كونا و: جانا، وما شابهها. وقد فطن لهذا القائمون على "الشركة السعودية للتنمية الصناعية": Saudi Industrial Development Co؛ فحوّلوا التسمية وهي المنحوت الأجنبي "Sidc" إلى اللفظ العربي "صِدْق" مستفيدين بذلك ممّا "تتضمنه الكلمة من معانٍ محبّبة في المعاملات التجارية"(٩١).

ويتّضح ممّا عرضناه أن دور النحت في العربية كان في العصور السابقة محدوداً، فهو عند اللغويين والنحاة سماعيّ لا قياسي، وهو عند الناطقين بالعربية أمثلة محفوظة من النحت النسبي والنحت الفعلي لا يكادون يجاوزونها، وهو عند ابن فارس ومَن تابعه اجتهاد نظري أفاد البحث اللّغوي ولكنه لم يغيّر من حال اللغة شيئاً. أمّا في العصر الحديث فقد كانت الغلبة بعد صراع دام قرناً أو يزيد – بشأن الأخذ بالنحت – لمعارضيه ومنكريه، فبالرغم من التزام معظم المتحمِّسين له بالشروط التي وضعها مجمع اللغة العربية في القاهرة ليضمنوا –بذلك– لمنحوتاتهم المقترحة في كتبهم ومعجماتهم الحياة والبقاء، فإنها ظلّت –حتى الآن– حبيسة تلك المؤلّفات. ولا ينفي هذه النتيجة تقبّل العربية المعاصرة للنّحت المُعَرَّب والنّحت الاستهلالي لأنّ ذلك يرجع إلى عاملين مهمين؛ أحدهما: أن هذه المنحوتات اكتسبت – لكثرة استعمالها– صفة العالمية، ممّا جعلها شائعة في معظم لغات العالم بما فيها العربية؛ والآخر: أن الناطقين بالعربية لا يفطنون للبناء اللغوي المركّب لهذه الألفاظ، بل ينظرون إليها نظرتهم إلى اللفظ المعرَّب المفرد، فلا فرق عندهم –مثلاً– بين لفظَيْ "التلكس" و"النازية" المنحوتين، ولفظَيْ "الامبريالية" و"البلشفية" غير المنحوتين. ولعلّ هذا يؤكّد أن قرارات المجامع اللغوية واجتهادات المجتهدين في مسائل اللغة لا تستطيع – وإن كانت مبرّأة من كل عيب – أن تجد

سبيلها إلى الاستعمال ما لم يتقبّلها الذوق اللغوي العام. فهل سيكون مستساغاً – مثلاً– أن يصف مؤلّفو كتب الأعلام ساطع الحصري –الذي وُلد في اليمن وعاش في سورية ثم في العراق ثم في مصر– بأنه "سُوراقيّ" (نحتاً من: سوريّ وعراقيّ) أو "يَمَريّ" (من: يمنيّ ومصريّ) أو "يَمْسَريّ" (من: يمنيّ وسوريّ) على طريقة القدماء في النّحت النسبي[٩٢]؟ أو أن يصوغ الباحثون في علم الأحياء للهجين من النبات والحيوان منحوتاً اسميّاً مثل "اليُوسُفينا" (من: اليوسفيّ والكلمنتينا)، و: "البُرْتمون" (من برتقال وليمون)، و: "الشّاعِز" (من: شاة وماعز)، و: "البقروس" (من: بقر وجاموس) على مذهب المُحْدَثين في النّحت المعرَّب[٩٣]؟

الحواشي

١) العين ٦٠/١-٦١. وفي لسان العرب (شمس): "تعبشم الرّجل وتعبقس: إذا تعلّق بسبب من أسباب عبد شمس أو عبد القيس إمّا بحلفٍ أو جوارٍ أو ولاء".

٢) كتاب سيبويه ٣٠٠/٣، ٣٧٦.

٣) الاشتقاق والتعريب للمغربي ١٣-١٤ و: فصول في فقه العربية لرمضان عبد التواب ٣٠٢.

٤) المزهر للسيوطي ٤٨٤/١-٤٨٥.

٥) يبدو أن هذه المنحوتات متأخّرة زمناً عن سابقاتها، وقد وردت في تقرير لجنة الأصول بمجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الرابعة عشرة عام ١٩٤٨، انظر: العربية الفصحى الحديثة لـ ستتكيفتش ١١٩.

٦) رجّح محققو المزهر أن تكون الصيغة الأخيرة: شفعنفيّ، ولكنها وردت هكذا: شفعتنيّ -بالتاء قبل النون- في: العربية لستتكيفتش ١٠٦، في حين وردت سابقتها بصيغة حنفليّ في: من أسرار اللغة لأنيس٨٩.

٧) الشائع في تعريفه أنّه نحت من كلمتين أو أكثر. وما ذكرناه أدقّ وأضبط لأنه يفسّر اختلاف القدامى في صحّة بعض منحوتاته، نحو: جعفلَ، وحولق، وطبقلَ، انظر: النّحت في اللغة العربية لنهاد الموسى ١٤٥-١٤٦.

٨) المزهر ٤٨٣-٤٨٥، و: من أسرار اللغة ٨٦-٨٩، و: النحت للموسى: ١٣٨-١٤٦.

٩) هذه روايته في ديوانه في بيت مفرد منسوب إليه، أما الرواية في اللسان (بسمل) فهي: الحبيب المبسمِل بكسر الميم.

١٠) العين ٦٠/١، وأورد الخليل هنا شاهدين آخرين للفعل "حيعل" نفسه.

١١) اللسان (حلق).

١٢) اللسان (حيا، هلل)، وفيه شواهد أخرى.

١٣) المزهر ٤٨٤/١.

١٤) النحت للموسى ١٤٦، ١٥٠. وجعل الموسى منه قولهم: "فذلَكَ الحسابَ: إذا أجمله قائلاً: فذلك كذا وكذا"، ولست أراه منحوتاً. أما "العنعنة" في اصطلاح علماء الحديث وعلماء اللغة، فهو اشتقاق صرفي من حرف الجر "عن".

١٥) الاشتقاق والتعريب ١٣-١٤، و: فصول ٣٠٢.

١٦) لأنهما كما قال الموسى متشابهان في طريقة النحت، انظر: النحت ٢٢١، وقارن بفقه اللغة لعلي عبد الواحد وافي ١٨٦-١٨٧.

١٧) دراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح ٢٤٦. وقد أحصى المؤلّف ما ذكره ابن فارس في أبواب مزيدات الثلاثي وحدها، فبلغ أكثر من ثلاثمئة كلمة منحوتة بين فعل وصفة، انظر ص ٢٥٨ منه.

١٨) مقاييس اللغة ٥٠٥/١.

١٩) المقاييس: ٥٠٦/١-٥٠٨، و: ٢٤٤/٢، ٣٣٨، و: ٥٣/٣، و: ٥١٣/٤، و: ٧١/٦-٧٢.

٢٠) المقاييس: ٢٣٤/١، ٣٣٣، و: ٣٣٩/٢، و: ٢٧٢/٣، ٢٧٤، ٤٥٧، و: ١١٨/٥.

٢١) المقاييس: ٥١٢/١، و: ٣٤٢/٢، و: ٥٤/٣، ١٦٠، ٤٠٢، ٤٥٩، و: ٥١٤/٤، و: ١١٩/٥، و: ٧٣/٦.

٢٢) المقاييس: ٣٢٩/١.

٢٣) دراسات للصالح ٢٤٨.

٢٤) المقاييس: ٥١٢/١، و: ٣٥٩/٤، ٣٦٧.

٢٥) المقاييس: ١٤٣/٢.

٢٦) المقاييس: ٣٥٩/٤، ٣٦١، ٣٧٠، و: ١١٧/٥، ١٩٤، ٤٨٣، و: ٧١/٦.

٢٧) المقاييس: ٣٣٣/١، ٥٠٦، و: ٥١٣/٤.

٢٨) فعل "جردبَ" مأخوذ من "گرده بان" الذي تذكر المعجمات أصله ومعناه. وقد عرّبت العرب قديماً "گرده" إلى "جردقة" و"جردق" بمعنى "الرّغيف"، انظر: اللسان (جردب، جردق). أما "فرسخ" فهي من: فرسنك.

٢٩) المقاييس: ٣٣٠/١، ٥٠٥، و: ٣٥١/٣.
٣٠) انظر: دراسات للصالح ٢٦٨-٢٦٩، وقارن بـ: النحت للموسى ١٨٤-١٨٥.
٣١) المقاييس: ٣٢٩/١، ٣٣٢.
٣٢) المقاييس: ٣٥٧/٤.
٣٣) المقاييس: ٣٥٧/٤-٣٦٩.
٣٤) النّحت للموسى ١٨٠ نقلاً عن: مقدمة لدرس لغة العرب لعبدالله العلايلي.
٣٥) المباحث اللغوية لمصطفى جواد ٨٦.
٣٦) فقه اللغة لوافي ١٨٨-١٨٩.
٣٧) دراسات للصالح ٢٦٧، ٢٧١.
٣٨) الاشتقاق والتعريب ١٥. ويبدو أن القُدامى سبقوا إلى هذا المذهب، فقد نُقل عن الزمخشري أنه جعل "بُعثرَ" منحوتاً من: بُعث وأُثير. انظر: النّحت للموسى١٥٢.
٣٩) الفلسفة اللغوية لجرجي زيدان ١٠٢-١٠٥.
٤٠) فصول لعبد التواب ٣٠٥.
٤١) النّحت للموسى ١٨١-١٨٣ نقلاً عن: فقه اللسان لـ: كرامت الكنتوري. وذكر الموسى أن الكتاب المذكور نُشر عام ١٩١٥ فيكون الكنتوري – بذلك– الأسبق إلى هذا المذهب.
٤٢) المباحث لجواد ٩٥.
٤٣) فقه اللغة المقارن لإبراهيم السامرائي ٧٤. والأصل عنده هو "جمّ"، ولكنه يرى أنّ "دحرج" منحوت من: دحَرَ ودرَجَ.
٤٤) فصول ٣٠٦. وقد تحدّث المؤلّف عن نشوء الرباعي بطرق أخرى، انظر ص١٩٣ منه.
٤٥) بعثق: من بعقَ وثبق، و: قرضب: من قرضَ وقضبَ، والبُحتر: من بتَرَ وحتَرَ، وجندل: من جدل والجَنَدَ أو بزيادة النون، والجمهور: من جمرَ وجهرَ، و: بلطح: من بُطحَ وأُبلطَ، و: تبلخص: من اللّخص والبخَص، و: برجم: بزيادة الرّاء. انظرها في: المقاييس ٣٢٩/١-٣٣٣، ٥١٢/٥٠٦، و: ١١٧/٥.

٤٦) مـن أسـرار اللغـة ٩٠. والصـواب أن يُقـال: فـي النقـوش اليمنيـة القديمـة، لأن المصطلحين غير مترادفين. ويُلاحظ أن ابن فارس جعل البلعوم والزلقوم وحدهما من المنحوت، وجعل الحلقوم والخرطوم من المزيد بحرف.

٤٧) اللسان (حبرم و: شلز و: فرنب)، و: القاموس (محبرم و: مشلوز و: فرنب) ولم يرد في كليهما أنّ "فرنب" منحوت، وأورده ابن فارس في المقاييس ٥١٥/٤ في باب ما وضع وضعاً. ولكن إبراهيم أنيس ذكر أنه منحوت، انظر: من أسرار اللغة ٨٩-٩٠.

٤٨) المزهر ٤٨٤/١.

٤٩) اللسان (أمع). والأرجح أنه من قولهم: إنّي معكم.

٥٠) وله في اللسان وتاج العروس دلالة أخرى هي: القطعة أو الجماعة من الخيل. وذكر كلا المعجمين أنّه بصيغة "حرجلة" بالحاء المهملة بلغة تميم، انظر: اللسان (عرجل وحرجل) و: التاج (عرجل).

٥١) فصول ٣٠٥.

٥٢) اللسان (صحر).

٥٣) انظر: Hartmann, p.28 و: Crystal, (1).pp. 46, 276. وانظر تفصيل المسألة في: Cannon. p 275 ff. ويُلاحظ أنّ بعضهم أورد تعريفات مختلفة للمصطلحات المذكورة، ولكنه أورد لها الأمثلة نفسها، انظر: Pei , pp. 30, 214, 276

٥٤) انظر: Emery, PP. 33-34 و: Cannon , P. 749 و: التركيب المزجي لـ: هزيم ١٩٤، وقارن بـ: منهجيّة وضع المصطلحات وتطبيقها لأحمد شفيق الخطيب: ٥٢٣ و: في الطريق إلى وضع مصطلح علمي موحّد لمحمد أحمد الدالي: ٧٣٩-٧٤١.

٥٥) من أسرار اللغة ٨٦، وانظر: النّحت للموسى ٦٧-٦٩.

٥٦) الاشتقاق لعبدالله أمين ٣٧٩: و: دراسات للصالح ٢٤٣.

٥٧) انظر Cannon , P. 732 f

٥٧أ) ورد عنده بصيغتي المفرد "الفنقلة" والجمع "الفناقل"، ومن الواضح أن طه حسين ينحته من الأسلوب الشائع عند الأزهريين: فإنْ قيلَ (قالوا/قلتم) قلنا. وانظر الحاشية ١٤ أعلاه.

٥٨) "أبو سعيد المتشائل" لإميل حبيبي.

٥٩) انظر: اللسان (هلل، و: كتاب الحاء المهملة).

٦٠) انظر: النّحت للموسى ١٤٦ نقلاً عن حاشية الخضري على شرح ابن عقيل.

٦١) النّحت للموسى ٨٩ نقلاً عن أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي.

٦٢) انظر: سرّ الليال في القلب والإبدال للشدياق و: آراء وأحاديث للحصري، و: تجديد العربية؛ و: قاموس النهضة لمظهر، وقاموس المورد للبعلبكي.

٦٣) معظم هذه الأمثلة من قاموس المورد للبعلبكي، وثمة أمثلة مشابهة في معجمات أخرى، انظر مثلاً: معجم المنهل الفرنسي العربي لسهيل إدريس وجبور عبد النور.

٦٤) الأمثلة لرمسيس جرجس. ولاحظ نهاد الموسى أنه نحتَ "وَجْعَلَ" لوجع الكلية، وينبغي أن تكون– وفقاً لمذهبه– "وجكلَ"، انظر مذهب جرجس في: النّحت للموسى ٢٩١–٢٩٨.

٦٥) وقال بعضهم: السَّرْمَنة، انظر: النحت للموسى ٢٤٥.

٦٦) وفي قاموس النهضة لإسماعيل مظهر: الكريض.

٦٧) المصطلحان من مصطلحات نظرية النسبيّة، وهما بمعنى واحد لأن الأول من الإنجليزية وهو في قاموس المورد للبعلبكي، والثاني من الفرنسية، وهو في: المباحث اللغوية ٩٨.

٦٨) المراد به الحيوانات البحرية الشبيهة بالنبات كالإسفنج والمرجان.

٦٩) من أسرار اللغة ٩١.

٧٠) اللفظان الأخيران منحوتان من ثلاث كلمات، ومثلهما: مُزَمْلَق (مزوّد بزمام منزلق) ترجمة لـ: zippered، وقد رأينا أمثلة منه عند ابن فارس.

٧١) المنحوتان الأخيران في قاموس المورد للبعلبكي، وثانيهما بصيغة "دُخْباب" في معجم المغني الأكبر لحسن الكرمي.

٧٢) المصطلحات العلمية للشهابي ١٤.

٧٣) جميع الأمثلة من قاموس المورد للبعلبكي.

٧٤) انظر: تجديد العربية ١٦، و: الاشتقاق لأمين ٤٣١-٤٣٢.

٧٥) هذا رأي أنستاس الكرملي، انظر: المباحث اللغوية ٨٥.

٧٦) العبارة لمصطفى جواد في: المباحث اللغوية ٨٦، وانظر مناقشة لآراء الفريقين في النّحت للموسى ٢٣٢-٢٥١.

٧٧) من أعضاء المجمع المؤيّدين للنّحت: علي الجارم وعبد القادر المغربي وإبراهيم حمروش، ومن المعارضين: أنستاس الكرملي وأحمد الإسكندري ومصطفى الشهابي.

٧٨) هو الطبيب رمسيس جرجس، وقد تقدّم الحديث عن مذهبه.

٧٩) انظر عرضاً لمناقشات المجمع ونصّ قراره في: النّحت للموسى ٢٨١-٣٠٢، و: العربية لستتكيفتش ١١٩-١٢٢.

٨٠) المصطلحات العلمية ١٨، وانظر: دراسات ٣٢٤.

٨١) من مقدمة الطبعة الثالثة للمعجم عام ١٩٨٣. وفي ثلاثة معاجم – أصدرها مكتب تنسيق التعريب– في الطب والفيزياء والنفط، لا يوجد من مصطلحاتها التي تتجاوز أحد عشر ألفاً سوى ثلاثة عشر مصطلحاً صيغت بالنحت؛ انظر: منهجية بناء المصطلحات للخطيب: ٥٢٢.

٨٢) اسم الإنتربول كاملاً هو: intern. Criminal Pol. Org "المنظمة الدولية للشرطة الجنائية"، وأنشأ الاتحاد الأوروبي منظمة مماثلة نُحت اسمها على هذا

النحو، وهو: اليوروبول europol.

٨٣) التليثون هو برنامج تلفزيوني طويل لتحقيق غرض معيّن كحثّ الناس مثلاً على التبرّع لمشروع خيري.

٨٤) تستعمل صفةً، وبعضهم يترجم الجزء الثاني من الكلمة، فيقول: العوامل الجيوسياسية.

٨٥) هو "كلمة أوائلية" في: معجم علم اللغة للخولي ٣، و "منحوتات البدوء" في: منحوتات البدوء لنصير ١١٥ وكذلك في: الرموز والمختصرات الأجنبيّة لجلال محمد صالح: ١٠١٨، و "المختصرات اللغوية" في: المختصرات اللغوية لأبي سليم ٢٥٥.

٨٦) انظر McCull, P. 27f، و: Crystal (2) , PP. 90, 414

٨٧) انظر مثلاً القاموس المحيط للفيروزآبادي، و: الجامع الصغير للسيوطي.

٨٨) انظر المزيد عن المختصرات والرّموز في العربية وغيرها في: العلامات والرّموز لمحفوظ، و: المختصرات والرّموز للسامرائي، و: منحوتات البدوء لنصير، و: الرموز والمختصرات لصالح.

٨٩) ترجمه معجم علم اللغة النظري للخولي: ٤٣ إلى "ترخيم". قارن بـ: من أسرار اللغة ٩١-٩٤.

٩٠) انظر في تعليل عدم تحوّل المختصرات إلى منحوتات استهلالية: McCully, p.30

٩١) المختصرات اللغوية ٢٦٩.

٩٢) من طريف النحت النسبي لفظ "تَلْحَميّ" اسماً لأسرة فلسطينية من بيت لحم.

٩٣) من طريف النحت الاسمي لفظ "إسراطين" من: إسرائيل + فلسطين.

تذييل:

وقع في يدي – بعد الانتهاء من طباعة البحث – كتاب "النَّحت في العربيّة: دراسة ومعجم" لأحمد مطلوب (بيروت ٢٠٠١م)، فلمْ أجدْ فيه ما يدعو إلى التعديل، وقرأتُ بحثاً لغويّاً يقتبس فيه كاتبه من كتاب "النَّحت وبيان حقيقته ونبذة من قواعده" لمحمود شكري الآلوسي (المتوفى سنة ١٩٢٤م)، والظاهر أنّه لا يعدو أنْ يكون جمعاً وتبويباً لما ورد في كتب المتقدّمين.

المراجع

أولاً- بالعربيـة:

- آراء وأحاديث في اللغة والأدب: ساطع الحصري. بيروت ١٩٥٨م.
- الاشتقاق: عبدالله أمين. القاهرة ١٩٥٦م.
- الاشتقاق والتعريب: عبد القادر المغربي. ط٢، القاهرة ١٩٤٧م.
- تجديد العربية: إسماعيل مظهر. القاهرة ١٩٤٧م.
- التركيب المزجي في العربية المعاصرة: رفعت هزيم. **مجلة الدراسات اللغوية**، مركز الملك فيصل، الرياض، مج٢، العدد الأول ٢٠٠٠م، ص١٩٣-٢٠٧.
- دراسات في فقه اللغة: صبحي الصالح. ط٣، بيروت ١٩٦٨م.
- الرّموز والمختصرات الأجنبيّة بين الترجمة والتعريب: جلال محمد صالح. **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق**، العدد ٧٥ (٢٠٠٠م)، ص ١٠٠٩-١٠٢٨.
- العربية الفصحى الحديثة: ج. ستتكيفتش، ترجمة: محمد حسن عبد العزيز. القاهرة ١٩٨٥م.
- العلامات والرموز: حسين محفوظ. بغداد ١٩٦٤م.
- العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بغداد ١٩٨٠-١٩٨٥م.
- فصول في فقه العربية: رمضان عبد التواب. ط٢، القاهرة ١٩٨٠م.
- فقه اللغة: علي عبد الواحد وافي. ط ٧، القاهرة ١٩٧٣م.
- فقه اللغة المقارن: إبراهيم السامرائي. بيروت ط٣، ١٩٨٣م.
- الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية: جرجي زيدان، مراجعة مراد كامل. بيروت ١٩٨٢م.
- في الطريق إلى مصطلح علمي عربي موحَّد: محمد أحمد الدالي. **مجلة مجمع دمشق**، العدد ٧٥ (٢٠٠٠م)، ص ٧١٥-٧٥٤.

- القاموس المحيط: الفيروزآبادي. بيروت. د.ت.
- قاموس النهضة: إسماعيل مظهر. القاهرة. د.ت.
- الكتاب: سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة. ١٩٦٦-١٩٧٧م.
- لسان العرب: ابن منظور. بيروت. د.ت.
- المباحث اللغوية في العراق: مصطفى جواد. بغداد ١٩٦٥م.
- المختصرات اللغوية الحديثة في اللغة العربية: عصام أبي سليم. **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، العدد ٥٢، ١٩٩٧م، ص ٢٥٥-٢٧٢.
- المختصرات والرموز في التراث العربي: إبراهيم السامرائي. **مجلة المجمع الأردني**، العدد ٣٢، ١٩٨٧م، ص١٠٥-١١٤.
- المزهر في علوم اللغة: السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى ورفيقيه. القاهرة ١٩٥٨م.
- المصطلحات العلمية في اللغة العربية: مصطفى الشهابي. ط٢، دمشق ١٩٦٥م.
- المعجم الطبي الموحد: ط٣ بإشراف محمد هيثم الخياط. سويسرا ١٩٨٣م.
- معجم علم اللغة النظري: محمد علي الخولي. بيروت ١٩٨٢م.
- المقاييس: ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون. ط٢، القاهرة ١٣٨٩هـ.
- من أسرار اللغة: إبراهيم أنيس. ط٥، القاهرة ١٩٧٥م.
- منحوتات البدوء: عبد المجيد نصير. **مجلة المجمع الأردني**، العدد ٣٢، ١٩٨٧م. ص ١١٥-١٢٠.
- منهجيّة بناء المصطلحات وتطبيقاتها: أحمد شفيق الخطيب، **مجلة مجمع دمشق**، العدد ٧٥ (٢٠٠٠م)، ص ٤٩٧-٥٧٠.
- المورد: قاموس إنكليزي-عربي: منير البعلبكي. ط٢، بيروت ١٩٨٦م.
- النّحت في اللغة العربية: نهاد الموسى. الرياض ١٩٨٤م.

ثانياً- بالإنجليزية:

Cannon, G: Blends in English Words formation. In: ***Linguistics*** 24 (1986), PP. 725-753.

Crystal, D.(1): A First Dictionary of Linguistics & Phonetics.

London 1980

------- (2): The Cambridge Encyclopedia of Language. Cambridge 1987

Emery, P.G: Compound Words in Modern Standard Arabic. In: ***Linguistics*** 24 (1986), PP. 32-43.

Hartmann, R. & F.C. Stork: Dictionary of Language & Linguistics. London 1972.

McCully, C.B. & M. Holmes: Some Notes on the Structure of Acronym. In: ***Lingua*** 74 (1988), PP. 27-43.

Pei, M.: Glossary of Linguistics Terminology. New York 1966.

تحريرُ اسمِ الفاعلِ من مزاعمِ المُجاراةِ

د. حامد علي أبو صعيليك

جامعة البلقاء التّطبيقيّة

كليّة الأميرة عالية الجامعيّة

ملخّص البحث

يُعدُّ اسم الفاعل من أكثر الأبنية الصرفية العربية إثارة لاختلاف النحاة، وبخاصة عند إضافته، إذ ينبني على إضافته قدر غير قليل من أوجه الخلاف، ويدرس هذا البحث أولاً المشابهة اللفظية والمعنوية بين اسم الفاعل والفعل المضارع، ثمَّ يدرس ثانيًا اسم الفاعل المضاف ودلالته الزمنية، ثمَّ يعرض ثالثًا لإضافة اسم الفاعل بين الأصلية والفرعية وموقف النحاة منها، ثمَّ ينتهي رابعًا إلى ما تفضي إليه إضافة اسم الفاعل من قيم دلالية، ويتّكئ هذا البحث على ما يقدّمه الدرس اللغوي العربي القديم، وجهود بعض علماء اللغة المحدثين، بغية الوصول إلى وصف علمي دقيق للظاهرة، يزيل ما علق بها من مشكلات.

مُقدِّمـة

يُعدُّ اسم الفاعل من أكثر الأبنية الصرفية إثارةً لاختلاف النحاة؛ ومرَدُّ ذلك ما لاحظه النُّحاة من شبه تركيبيّ ودلاليّ بينه وبين صيغة الفعل المضارع، فكثُرت اجتهاداتهم في ما يتعلّق بدلالة اسم الفاعل على الحدث مقترناً بزمن تارة، وغير مقترن به تارة أخرى، وإذا كان مقترناً بزمن، فهل يختص بزمن ما، أم أنه يستغرق الأزمنة الثلاثة؟

وينبني على هذا الاختلاف جملة من القضايا التّركيبيّة والدلاليّة، ولعل القضية الأبرز هي مسألة إعماله وإضافته، ومقتضى هذا أنّ لاسم الفاعل ذي الدّلالة على الحال والاستقبال بنيتين تركيبيّتين في الاستعمال، يرِدُ في الأولى عاملاً ناصباً لمعموله، نحو: "هذا ضاربٌ زيداً"، وفي الثّانية مضافاً إلى معموله، نحو: "هذا ضاربُ زيدٍ" وأهمُّ ما يسترعي النَّظر اعتبار النّحويين إحدى البنيتين أصلاً لقسيمتها، أو لِنقُل الإعمال أصل الإضافة وما ينبني على إضافته من دلالة توافق دلالته أو تغايرها إذا كان منقطعاً عن الإضافة.

وسأناقش المسألة في أربعة محاور، أرى أنها مثار الخلاف وموضع الاجتهاد:

١- المشابهة اللفظية والمعنوية للفعل المضارع.

٢- اسم الفاعل المضاف ودلالته الزمنية.

٣- إضافة اسم الفاعل بين الأصل والفرع.

٤- القِيَم الدلالية المتحَصّلة من إضافة اسم الفاعل.

١- المشابهة اللفظيَّة والمعنويَّة للفعل المضارع:

ارتبطت فكرة الإضافة اللفظية (غير المحضة) عند النحاة بالوصف العامل المراد به الحال أو الاستقبال، يقول الأزهري: "وضابطها –غير المحضة– أن يكون المضاف صفة تشبه المضارع في كونها مراداً بها الحال أو الاستقبال"(١). ويقول الرضي: "أمّا إضافة اسم الفاعل والمفعول إضافة لفظية، فنقول كون إضافة الصفة المشبهة إضافة لفظية، مبني على كونها عاملة في محل المضاف إمّا رفعاً وإما نصباً، وذلك إذا كان كذا، فالذي هو مجرور في الظاهر ليس مجروراً في الحقيقة، والتنوين المحذوف في اللفظ مقدّر منويّ، فتكون الإضافة كلا إضافة وهو المراد بالإضافة اللفظية"(٢).

ويقول أبو حيّان: "ومن غير المحضة إضافة اسم الفاعل واسم المفعول والأمثلة إذا أُضيفت إلى المفعول وكانت بمعنى الحال أو الاستقبال، وإضافة الصّفة المُشَّبهة وهذا مُجمَعٌ عليه عند أصحابنا"(٣).

ومقتضى ما تقدم أن الحكم على الإضافة لفظية أم غير لفظية مبنيّ على أمرين: الوصفية العاملة، والزّمنية المقيّدة (الحال أو الاستقبال). وأساس الإعمال قائم على ما لحظه النحاة من شبه شكليّ ومعنويّ بين اسم الفاعل والفعل المضارع.

لاحظ علماء اللغة أن ارتباطاً ما يوجد بين صيغتي (اسم الفاعل والفعل المضارع) من جهة اللفظ والمعنى(٤)، فقالوا بحمل إحدى الصيغتين على الأخرى

في العمل لهذا الشبه. والارتباط الذي قال به النحويون بين الصيغتين، ارتباط لفظيّ أولاً ومعنويّ ثانياً.

أمّا اللفظي فلأن حركات حروف الأصل توجد في الصيغتين المتشابهتين بالترتيب نفسه، وإن اختلف الهيكل، كالمشاكلة بين (ينطَلِقُ ومُنْطَلِق)؛ ولذا حُملت إحدى الصيغتين على الأخرى، يقول ابن الخشاب: "ومعنى جريُ هذا الاسم على الفعل في حركاته وسكناته أنّ عدد حروف ضارب كعدد حروف يضرب، وضاد ضارب مفتوحة كما ياء يضرب مفتوحة، والألف الثانية ساكنة، كما ثاني يضرب ساكن، والرّاء فيهما ثالثة مكسورة، والباء فيهما حرف إعراب، وكذلك مُكرِم كيُكْرِمُ"(٥).

ويقول ابن عقيل: "وإنما أُعمل – اسم الفاعل– لجريانه على الفعل الذي هو بمعناه، وهو المضارع، ومعنى جريانه عليه: أنه موافق له في الحركات والسكنات لموافقة "ضَارِب" لـ "يَضْرِب"(٦).

وتعطينا هذه الأقوال صورة واضحة عن مفهوم المضارعة اللفظية، التي تحصل في عدد الحروف وفي الحركات المتشابهة؛ إذ الأصل في هذه الحركات هو كسر ما قبل آخره كما في (ضارِب) و(يضرِب).

ويقف علماء السّلف حيارى في تعليل قوة الشّبه بين اسم الفاعل والفعل؛ لأن بعضهم لا يعترف بالترتيب في حروف الصيغة وحركاتها كشرط من شروط المشابهة، ويعتمد في دعوى المجاراة على تأويل المراد بالمشابهة، أنها تَقَابُل حركة بحركة لا حركة بعينها، أما توافق أعيان الحركات فغير معتبر.

يقول ابن هشام: "ونبّهت على أن عدم المجاراة هو الغالب، بتقديم مثال ما لا يُجارى، وهذا بخلاف اسم الفاعل؛ فإنه لا يكون مجارياً للمضارع كضارب فإنه

مُجارٍ ليضرب. فإن قلت هذا مُنتَقض بداخل ويدخل؛ فإن الضمّة لا تقابل الكسرة قلت: أُعْتُبِرَ في المجاراة تقابل حركة بحركة، لا حركة بعينها، فإن قلت: كيف تصنع بقائم ويقوم، فإن ثاني قائم ساكن، وثاني يقوم متحرك؟ قلت: الحركة في ثاني (يقوم) منقولة من ثالثة، والأصل يَقْوُمُ كَيَدْخُلُ، فنُقلت الضمّة لعلّة تصريفية"(٧).

وهذا التفات من ابن هشام يضعف علل النحاة في هذا الجانب، إذ يلاحظ هنا أن الاتّفاق اللفظي في ترتيب الحروف تعليل لا يقوى على إقامة حجة المشابهة اللفظية بين الصيغتين.

فإن اتفق جريان بعض الصيغ على بعض في الحروف والحركات، أمكن القول بانعدام اطّراد المجاراة في مثل (سالم ويَسْلَمُ وداخل ويَدْخُلُ)...إذ لا يبقى لأسماء الفاعلين هذا الكسر الذي قبل أواخرها في الأفعال التي اشتُقّت منها نحو: يَذْهَب ويَقْتُل(٨)، وغيره كثير مما لا يُحصى، ممّا يجعل علّة المجاراة اللفظية واهية ضعيفة، ويهدم ما بُني عليها من أحكام(٩).

والنظرة الفاحصة تكشف عن مبلغ تضارب الحجج في منطقها، حتى لو قيل إن صاحب كل حجة منها غير قائل الحجة الأخرى، فهذه الحجج تكشف عن عدم الوحدة في بعض جوانب فلسفة النظرية النحوية.

أما قول ابن هشام: "إن اسم الفاعل لا يكون مجارياً للمضارع كضارب فإنه مجارٍ ليضرب، فإن قلت: هذا منتقض بداخل ويدخُلُ، فإن الضمة لا تقابل الكسرة. قلت: اعتبر في هذه المجاراة تقابل حركة بحركة لا حركة بعينها".(١٠) قول

مردود، بدليل ورود غير صفة توافق المضارع في حركاتها ولا تعمل عمله، فاسم المفعول وصيغ المبالغة والمصادر تعمل باتفاق مع أنها لا تجري على الفعل المضارع، ممّا يجعل علّة المجاراة في الحركات ضعيفة(١١).

فضلاً عن هذا، فإننا نجد كثيراً من الأبنية الصرفية التي تعمل من دون مضارعة للفعل المضارع، كاسم المفعول وصيغ المبالغة والمصدر، "فإن قيل: لعملها علّة أخرى، قلنا: مهما أمكن أن تكون العلة بلا كلفة كان أولى"(١٢).

ويبدو لي أن الذي دفع النحاة إلى هذه التأويلات حرصهم على تعليل الظاهرة النحوية بما يضمن لهم اطّراد منهجهم القائم على تنظيم الظواهر، وفق كلّيات عامة ترتدّ إليها.

والذي ينبغي أن يُقال: إن عمل اسم الفاعل المحمول على الفعل مردّه ما يتضمنه من الحدث الذي يشكّل قاسماً مشتركاً بينه وبين زمرة الأبنية العاملة كالأفعال مثلاً، أما المشابهة الصوتية المزعومة، فينقضها إعمال بعض الأبنية التي لا مجاراة بينها وبين الأفعال كأبنية المصادر مثلاً.

أما الشبه المعنوي الدلالي، فلأن الملاحظ أن الصيغتين المتشابهتين تعبّران عن معنى واحد عام، تختلفان في دائرته، كما تختلف الصيغتان، وهذا الشبه لا يزيد عندهم على صحة وقوع الفعل موقع اسم الفاعل العامل(١٣)، دون أن يوازنوا موازنة فعلية بين معنى الفعل ومعنى اسم الفاعل.

واكتفوا بما نصّ عليه سيبويه من المجاراة المعنوية بالقول: "باب من اسم الفاعل الذي جرى مجرى المضارع في المفعول في المعنى، فإذا أردت فيه من

المعنى ما أردت في (يفعل) كان منوّناً نكرة وذلك قولك: هذا ضارب زيداً غداً، فمعناه وعمله: هذا يضرب زيداً غداً"[١٤].

وواضح من قول سيبويه أن جملة (محمدٌ ضاربٌ زيداً) تساوي جملة (محمدٌ يضربُ زيداً)، بمعنى أنه يمكن وضع كلمة (ضارِب) وهي اسم فاعل مكان (يضربُ) ولا يتغيّر من المعنى شيء –على حد قول سيبويه–، ولذلك قيل في معناه: "ما دلّ على الحدث والحدوث وفاعله".

فضلاً عن ارتباط كلمة (ضارب) بضمائمها ارتباطاً علائقياً سياقياً، بمثل ما ارتبط به الفعل (يضرب) بضمائمه[١٥].

ويقول ابن يعيش: "اعلم أن اسم الفاعل الذي يعمل عمل الفعل هو الجاري مجرى الفعل في اللفظ والمعنى، فإذا أُريد ما أنت فيه، وهو الحال أو الاستقبال صار مثله من جهة اللفظ والمعنى، فجرى مجراه وحُمل عليه في العمل، كما حُمل فعل المضارع على الاسم في الإعراب، لما بينهما من المشاكلة"[١٦].

وممّا يؤكد أن مشابهة اسم الفاعل للمضارع مبنية على المعنى، قول السيوطي: "وقال الكوفيون إلا الفرّاء ووافقهم النحاس يعمل مصغراً –اسم الفاعل– بناء على مذهبهم أن المعتبر شبهه للفعل في المعنى لا الصورة"[١٧].

ولعلنا نرى أن النحاة هنا قد خرجوا في محاجتهم عن شكلية المجاراة، إلى إيجاد وجه آخر من الشبه بين الصيغتين، لكنهم لم يكونوا أبعد في تعليلهم عن المجاراة الشكلية، إذ ذهبوا إلى أن الصيغتين تعبِّران عن معنى واحد، يقول ابن

جنّي: "ومن المضاف على تقدير التنوين أيضاً قولك: رأيتُ ضاربي زيدٍ ومررت بضاربي زيد، إذا أردت بضارب يضرب"(١٨).

فضلاً عن هذا، فإننا نجد من النحاة من أجاز إعمال اسم الفاعل (ماضياً أو حالاً أو استقبالاً) خاصةً إذا كان صلة لِـ "أل"، برغم انتفاء المشابهة بين بنيتيهما.

يقول الفارسي: "وقد أجاز بعضهم ذلك، واحتجّ بقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨]، ومقتضى هذا القول عدم مجاراة اسم الفاعل للفعل إذا كان بمعنى الماضي، لعدم تماثل الحركات أو تقابلها؛ لأن اسم الفاعل الذي يعمل عمل الفعل هو الجاري مجرى الفعل في اللفظ والمعنى"(١٩).

ووجه القول كما أراه عدم حمل اسم الفاعل على الفعل من جهة المطابقة في المعنى والعمل، وقد كان الأولى بهم أن يعدّوا هذه المشتقات في عداد الأفعال ما دامت ترد ومعها منصوبات ترتبط بها على نحو ما ترتبط بالأفعال، ويترك اصطلاح اسم الفاعل لما لا يرد من أسماء الفاعلين بهذه الصورة أو أن يُنظر إلى الارتباط بين هذه المشتقات وبين المنصوبات التي معها، لا باعتباره ارتباط عامل بمعمول، وإنما يدل كل اسم في الجملة بحركته الإعرابية على باب من أبواب النحو، والمبرر الوحيد لوجود صورة تركيبية ما، هو هذه الدلالة لا الشبه بالمضارع كما يقول النحاة، الأمر الذي أدركه البلاغيون برؤيتهم أن اسم الفاعل دالّ على الثبوت لا الحدوث بخلاف الفعل المفيد للتجدّد والحدوث"(٢٠).

ويكفينا عبد القادر الجرجاني* مؤونة توضيح هذا بالقول: "إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدّده شيئاً بعد شيء. وأما

الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدّد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء، فإذا قلت: زيدٌ منطلقٌ، فقد أثبتّ الانطلاق فعلاً له من غير أن تجعله يتجدّد ويحدث منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: زيد طويل، وعمرو قصير.

فكما لا يُقصد هاهنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدّد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق. كذلك لا تتعرض في قولك: زيد منطلق لأكثر من إثباته لزيد.

وأما الفعل فإنه يُقصد فيه إلى ذلك، فإن قلت: زيد هاهو ذا ينطلق. فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً، وجعلته يزاوله ويزجيه، وإن شئت أن تُحس الفرق بينهما من حيث يلطف، فتأمل هذا البيت:

لا يَأْلَفُ الدِّرهم المَضروب صُرَّتنا لكن يمرُّ عليها وهو منطلقُ

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلته بالفعل: لكن يمرّ عليها وهو ينطلق لم يَحسن. وإذا أردت أن تعتبره بحيث لا يخفى أن أحدهم لا يصلح في موضع صاحبه. فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨] فإن أحداً لا يشكّ في امتناع الفعل ههنا وأن قولنا: "وكلبهم يبسط ذراعيه بالوصيد" لا يؤدي الغرض، وليس ذلك إلا؛ لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدّد الصفة في الوقت. ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئاً فشيئاً. ولا فرق بين "وكلبهم باسط "، وبين أن يقول: و"كلبهم واحد" مثلاً في أنك لا تثبت مزاولته، ولا تجعل الكلب يفعل شيئاً، بل تثبته بصفة هو عليها، فالغرض إذن هو تأدية هيئة الكلب.

ومتى اعتبرت الحال في الصفات المشبّهة وجدت الفرق ظاهراً بيّناً، ولم يعترضك الشّك في أن أحدهم لا يصلح في موضع صاحبه. فإذا قلت: زيد طويل وعمرو قصير، لم يصلح مكانه يطول ويقصر. وإنما تقول: يطول ويقصر إذا كان الحديث عن شيء يزيد وينمو كالشجر والنبات والصبي، ونحو ذلك ممّا يتجدّد فيه الطول أو يحدث فيه القصر. فأما وأنت تتحدث عن هيئة ثابتة، وعن شيء قد استقرّ طوله، ولم يكن ثم تزايد وتجدّد فلا يصلح فيه إلا الاسم"(٢١).

إن عبد القاهر المؤمن بنظرية النظم القائمة على حسن الصياغة، وتوخّي معاني النحو ودقّة استعمال الألفاظ ووضعها في مواضعها، ينظر إلى ما تتشابه به الألفاظ والمعاني من علاقات لغوية نتيجة التحامها وشدة ارتباطها.

وليس من شكّ في أن ما أبانه الجرجاني، خير دليل على أن ثمة فرقاً كبيراً بين اسم الفاعل والفعل المضارع، إذ لا يصلح أحدهما للقيام مقام الآخر، ومن ثمَّ اقتضى هذا سقوط المجاراة اللفظية وسقوط المجاراة المعنوية كذلك.

٢- اسم الفاعل المضاف ودلالته الزمنيّة:

تتألف الصيغ الصرفية من عناصر عديدة، أو من أجزاء يقوم كل عنصر منها بوظيفة حيوية تتحد جميعاً؛ لتسهم في تكوين المعنى ضمن تركيب لغوي. ويثير النحاة كثيراً من القضايا التي تخصّ طبيعة العلاقة بين مكونات الصيغة.

ومن القضايا الأساسية في الصيغ الصرفية دراسة عنصر الزمن، وهي مسألة مركزية في أبنية اسم الفاعل، من حيث إن بناء (فاعل) يدل على الحدث وفاعله بحكم بنائه الصَّرفي. فقد ذكر النحاة في حدهم لاسم الفاعل أنه اسم يدل على

الحدث والذات التي قامت بهذا الحدث ولمَّا كان كذلك، أي حدثاً وفاعلاً لذلك الحدث لم يخلُ بأصل وضعه من تصوّر فكرة الزمن فيه(٢٢).

ففي قول الله –عزّ وجل– : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، يبيّن الشاهد أن صيغة (خالق) تدل على ثلاثة أمور: حدث الخلق، وفاعله، وزمن الخلق، إذا كان ثمة قرينة لغوية أو سياقية تصرف صيغة اسم الفاعل إلى زمن ما، وتقوم الصيغة بهذه الأشياء الثلاثة.

وعليه فدلالة اسم الفاعل على الزمن دلالة وضعية حاصلة من كونه دالاً على الحدث وصاحبه، وإذا تحقّق وجود الحدث تحقّق أن يكون الحدث صدر من صاحبه في زمن معين يُستفاد من القرائن والسياق، ويُقصد به الزمن النحوي المعبّر عنه بالمضي والحال والاستقبال(٢٣).

وقد ترتّب على القول بفكرة الزمنية في اسم الفاعل جملة من الأحكام التركيبية والقضايا الدلالية المتعلّقة بإضافة كل بنية وارتباطها بزمن معيّن.

فالصيغة الصرفية قد لا تكون كافية بمفردها لأداء المعنى المراد، فهي إذ ذاك في حاجة إلى قرينة لتوضّح ما فيها من غموض وتزيل ما فيها من اشتراك، فصيغة (قاتل) مثلاً مشتركة بين اسم الفاعل والصفة المشبهة، لعدم وجود قرينة تحدّدها، وعندها نحتاج إلى الاستعانة بقرينة تعين في تحديد المراد، تلك القرينة هي التنوين، إذا أُريد الحال أو الاستقبال، والإضافة إذا أُريد المضيّ أو الثبوت، أو تقييد الوصف بما يشعر بزمنيته كقولنا: "زيدٌ ضاربُ عمرو أمسِ".

ومن الأحكام التّركيبيّة المتعلّقة بالزمن، ما ذهب إليه النحاة من أن اسم الفاعل إذا كان دالاً على (المضيّ)، نحو "زيد ضاربُ عمروٍ أمسِ"، امتنع تنوينه؛ لأن التنوين قرينة ترشّح صيغة اسم الفاعل للزمن المستقبل[٢٤]، ووجب استعماله مضافاً إلى ما يليه، مما هو في أصله مفعولاً للفعل الذي أُشتُقَّ منه اسم الفاعل، وفي الدلالة تكون إضافته من قبيل الإضافة المحضة التي تكسبه التعريف والتخصيص[٢٥].

وعلّة ذلك أن اسم الفاعل عندهم لا يعمل بمعنى المضي، لأنه لا يوجد في مثال الماضي تلك المشابهة اللفظية والمعنوية السالفة.

أما إن كان اسم الفاعل دالاً على الحال أو الاستقبال نحو: "هذا ضاربٌ زيداً" جاز تنوينه ونصب معموله، أو إضافته، وتكون إضافته من قبيل الإضافة اللفظية التي لا تفيد تعريفا أو تخصيصاً[٢٦].

واختلفوا في إضافة اسم الفاعل المراد به الاستمرار في جميع الأزمنة، من غير تقييد بزمان معين، فذهبت طائفة إلى أن إضافته لفظية، وذهبت طائفة – وهم الأكثرون– إلى أن إضافته معنوية، وذهب بعضهم إلى أن إضافة اسم الفاعل المستمر تكون محضة تارة وغير محضة أخرى بالنظر إلى جانب المضيّ فيه أو الحال والاستقبال[٢٧].

وإذا كان اسم الفاعل بالمعنى السابق مشتقّاً من فعل يتعدّى إلى مفعولين أو ثلاثة، وجب إضافته كذلك إلى ما يليه مما كان مفعولاً به لفعله الأصلي، ويُترك الباقي منصوباً على حاله.

٣- إضافة اسم الفاعل بين الأصل والفرع:

لم يكتفِ النحويون بمجرد القول بعلاقة المشابهة بين الصيغ، وإنما وجّهوا العلاقة توجيهاً آخر، فقرروها على أساس الأصل والفرع، بمعنى أن أحد التركيبين هو أصل، والتركيب الآخر معدول عنه.

فذهب سيبويه ومن تابعه من النحاة إلى أن اسم الفاعل المجرد من "أل" والتنوين، إذا أُضيف بمعنى الحال أو الاستقبال، فإضافته لفظية، والأصل في هذا الضرب من الإضافة ثبوت النون أو التنوين، ففي تعليقه على قول الشاعر:

[الكامل]

نـــاجٍ مُخَـــالِطِ صُـــهْبَةٍ متعـــيِّس سـلِّ الهمـومَ بكـلِّ مُعْطـي رأسِـه

قال: "فهو على المعنى، لا على الأصل والأصل التنوين؛ لأن هذا الموضع لا يقع فيه معرفة، ولو كان الأصل ههنا ترك التنوين لما دخله التنوين ولا كان ذلك نكرة، وذلك أنه لا يجري مجرى المضارع فيما ذكرت لك"(٢٨)، وقريب منه قول الرضي: "فالذي هو مجرور في الظاهر ليس مجروراً في الحقيقة، والتنوين المحذوف في اللفظ مقدّر منويّ، فتكون الإضافة كلا إضافة وهو المراد بالإضافة اللفظية"(٢٩).

وعلّة حذف النون أو التنوين من الاسم المضاف هي (التخفيف)، يقول سيبويه*: "وَاعْلَمْ أَنَّ العَرَب يَسْتَخِفّون، فَيَحْذِفُونَ التَّنوين والنُّون، ولا يَتَغَيَّر من المعنى شَيء"(٣٠).

ومقتضى هذا الكلام أن لاسم الفاعل ذي الدلالة على الحال والاستقبال بنيتين تركيبيتين في الاستعمال، يرد في الأولى عاملاً ناصباً لمعموله، نحو: "هذا ضاربٌ زيداً "، وفي الثانية مضافاً إلى معموله، نحو: "هذا ضاربُ زيدٍ".*

وأهم ما يسترعي النظر اعتبار النحويين إحدى البنيتين أصلاً لقسيمتها، أو لِنَقُل الإعمال أصل الإضافة، ومما يؤكد هذه المسألة، جعل سيبويه ومن تابعه التنوين منوياً في التركيب الإضافي بل هو أصل(٣١). ومن ثَمّ، فالأصل في الإضافة اللفظية الإعمال، وهذا معنى قول الرضي: "إنَّ الإضافة كلا إضافة".

وقد ترتّب على هذا القول جملة من الأحكام والقضايا الدلالية هي:

١- لا فرق في المعنى بين التركيب الذي أُضيف فيه اسم الفاعل إلى معموله، وذلك الذي عمل فيه اسم الفاعل في معموله. على الرغم من تخالف التركيبين على مستوى البنية المكونية فإن قيمتهما الدلالية متّفقة.

٢- مقتضى ما تقدّم عن النحاة أن الغاية من الإضافة هي التخفيف بحذف النون أو التنوين، ومن ثَمَّ، فإن إضافة الوصف العامل إلى معموله لفظية لا تفيد المضاف تعريفاً أو تخصيصاً.

وعودة إلى مسألة الأصل والفرع، فلقد كنا نفهم أن يؤدي منطق النحويين بهم إلى حمل اسم الفاعل على الفعل المضارع في الشبه اللفظي والمعنوي، ومن ثَمَّ الإعمال أو الإضافة، بحكم ما لاحظوه من شبه في جوانب تزيد وتضعف لما تتضمنه أبنية الفاعل من دلالة على الحدث المقترن بزمن.

أما أن تُجعل إحدى البنيتين فرعاً على الأخرى، فهذا لا يتماشى ومنهج النّحاة في وصف الظواهر التي يحدّدها الاستعمال لا المنهج، "والأصل أن يُقال:

لدينا وجهان، وجه يجري فيه اسم الفاعل على الإضافة، ووجه يجري فيه على التنوين، وليس أحدهما أصلاً للآخر"[٣٢].

وخير شاهد على ذلك تواتر القراءات القرآنية بالوجهين "الإضافة والإعمال" كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧] وقرأ اليزيدي: (ذائقةٌ) بالتنوين، و(الموتَ) بالنصب، وذلك فيما نقله عنه الزمخشري[٣٣]ونقلها ابن عطية[٣٤] عن أبي حيوة. وكقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، قرأ ابن كثير والكسائي وخلف وحفص (مُتِمُّ) بغير تنوين (نُورِهِ) بالخفض، وقرأ الباقون بالتنوين والنصب[٣٥]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣] قرأ حفص (بَالِغُ) بغير تنوين (أَمْرِهِ) بالخفض وقرأ الباقون بالتنوين والنصب[٣٦].

يُضاف إلى ما قيل تفاوت نظرة العلماء حول قضية الأصل والفرع؛ إذ إننا نجد من النحاة من لا يفاضل بين الإعمال والإضافة، ويرى أنّ الإضافة والإعمال سيّان[٣٧].

بينما يرى فريق آخر أن الإضافة أصل، يقول أبو حيّان في تعليقه على قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَ﴾ [البقرة:٣٠] "جاعل: اسم فاعل بمعنى الاستقبال، ويجوز إضافته للمفعول إلا إذا فُصل بينهما كهذا، فلا يجوز. وإذا جاز إعماله، فهو أحسن من الإضافة، نصّ على ذلك سيبويه... والذي أختاره أن الإضافة أحسن"[٣٨].

ويقول أيضا: "وقد قررنا .. أن الأصل الإضافة؛ لأن العمل إنما هو بالشبه، والإضافة هي أصل في الأسماء"[٣٩].

وقريب منه قول السيوطي: "يظهر لي أن الجر أولى؛ لأن الأصل في الأسماء إذا تعلّق أحدهما بالآخر الإضافة، والعمل إنما هو بجهد الشّبه للمضارع فدلّ على أن الأصل أولى"[٤٠].

والقول بأن بنية تركيبية ما، أصل لبنية أخرى مما يتنافى مع المنهج اللغوي الحديث؛ إذ لا يَصحُّ أن تكون بنية تركيبية أصلاً لأخرى، والوجه أن تدرس كل ظاهرة بما يميزها من قسيمتها، وفقاً لما يظهره الاستعمال، وعلى هذا لا يصحّ أن تكون إحدى القراءتين أصلاً للأُخرى، "والوجه أن يُقال كُلٌّ منهما أصل قائمٌ برأسه غير محمول على الآخر"[٤١].

القِيَم الدِّلاليّة المُتحصِّلة من إضافة اسم الفاعل

أمّا قول النحاة: إن الإضافة والإعمال في المعنى سيّان، وهو ما أراده سيبويه بقوله: "فيحذفون النون أو التنوين ولا يَتَغَيَّر من المعنى شَيّء".[٤٢]، وقوله: "وليس يُغير كفّ التنوين إذا حذفته مستخفاً شيئاً من المعنى"[٤٣]. وهو عين قول ابن مالك: "ومعنى المضاف والمتروك الإضافة واحد"[٤٤]، فرأي مرجوح لغة واصطلاحاً ودلالة.

أمّا من حيث اللغة فقد نصّت المعجمات اللغوية على أن "الإضافة" هي "الإلصاق"؛ ولذا قيل: إن "الْمُلْزَقَ بِالْقَومِ هُوَ المُضَافُ... وَقيل: أَضَفتَه إِذَا أَمَلْتَه إِلَيْكَ..ومنه يُقال: هو مضاف إلى كذا أي مُمال إليه[٤٥]، وفي الحديث: "نُهِيَ عن الصلاة إذا تضيَّفت الشَّمس للغروب"[٤٦]، يعني: إذا مالت للمغيب.

والذي تشير إليه جملة الدلالات المذكورة أن محور ما تدل عليه الإضافة هو "الإلصاق والتقريب" وهذا المعنى لا يتحقّق للتركيب في حال الإعمال والفصل

بالتنوين. ومن ثَّم، فإننا نلحظ في كل تركيب إضافي مما يمكن حمله على صورتي الإعمال والإضافة، أن صورة الإضافة من مثل قولنا: "زَيْدٌ بالِغُ هَدَفِه" فيها قُرب وإلصاق وتحقّق وقوع، في حين أن تركيب الإعمال في نحو قولنا: "زَيْدٌ بالِغٌ هَدَفَهُ" فيه استقبال وتوقّع تحقّق.

أمّا اصطلاحاً فقد نصَّ النحاة على أن الإضافة هي "نسبة تقييدية بين اسمين توجب لثانيهما الجر"(٤٧)، وأن إضافة الاسم إلى الاسم إيصاله إليه من غير فصل، وجعل الثاني من تمام الأول يتنزَّل منه منزلة التنوين"(٤٨).

ولا يخفى أن هذه الدلالات لا يحققها تركيب "زيدٌ ضاربٌ عمراًَ" كما تتحقّق في "زيدٌ ضاربُ عمرو". فضلاً عن قول النحاة إن المضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد.

ولقد كان بعض النحاة والأصوليين واعياً بدلالة هذا الاختلاف، الذي تعكسه الشواهد، فهم يمايزون طبقتين من التراكيب: تركيب متحقِّق وآخر محتمل، وقد أشار الأخفش إلى هذه المسألة بالقول: ".. وإنما أضاف إذا كان قد وقع الفعل، تقول: "هُمْ ضارِبو أبيكَ" إذا كانوا قد ضربوه. وإذا كانوا في حال الضرب أو لم يضربوا قلت: "هُمْ ضَارِبو أخاك"(٤٩)؛ لأن موقف المتكلم في البناء الأول غير موقفه في التركيب الثاني، فليس كل منهما إعادة لكلمات سابقة فقط، بل هو إنشاء لتركيب ودلالة جديدين؛ لأنه لا يمكن أن يكون التركيب كقسيمه في كل تفاصيله، ففي الأول نجد المرسل موكولاً إلى الإقرار، والثاني موكولاً إلى الإنكار، ولا شكّ أن تحليل النحاة عملية شكلية إلى أقصى حد.

ومّما يُعزّز هذه الفكرة ما نقله السيوطي من حديث المرزباني عمّن سمع الكسائي يقول: "اجتمعتُ وأبو يوسف القاضي عند هارون الرشيد، فجعل أبو

يوسف يذمّ النحو، ويقول: ما النحو؟ فقلتُ – وأردتُ أن أُعلّمه فضل النحو–: ما تقول في رجل قال لرجل: أنا قاتِلُ غُلامِكَ، وقال له آخر: أنا قاتِلٌ غُلامَكَ، أيُّهما كنتَ تأخُذُ بـه؟ قال آخذهما جميعاً، فقال له هارون: أخطأتَ، وكان له عِلْمٌ بالعربية، فاستحيا، وقال كيف ذاك؟ فقال: الذي يُؤخذ بقتل الغلام الذي قال: أنا قاتِلُ غلامِكَ بالإضافة، فأما الذي قال: أنا قاتِلٌ غُلامَكَ – بلا إضافة – فإنه لا يُؤْخَذ؛ لأنه مستقبل لم يكن بعد"(٥٠)، كما قال الله تعالى: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ٢٣]، ويظهر من الرواية أن اسم الفاعل إذا أُضيف دلّ على تحقّق وقوع الفعل، وإذا عمل دل على عدم تحقّق وقوعه.

وممّا نقله صاحب الكوكب الدريّ: "إذا قال شخص: أنا قاتِلُ زَيْدٍ، ثم وجدنا زيداً ميتاً واحتمل أن يكون قد مات قبل كلامه وأن يكون بعده؛ فإن نوّنه ونصب به ما بعده لم يكن ذلك إقراراً، لأن اللفظ لا يقتضي وقوعه ..لكن جزم القاضي حسين في فتاويه: إذا جُرَّ كان إقراراً بخلاف ما لو نُصب"(٥١).

ولعلّ القول بوحدة دلالة التركيبين، يسوق إلى إلغاء دور الحركة الإعرابية، إذ المقصود من أي حركة إعرابية هو الربط بينها وبين معنى وظيفي خاص، فإمّا أن يُقال: إن مجيء الإضافة في نمطية اللغة؛ لأن العرف قد ارتضاها كذلك، أو أن يكون هناك ارتباط تام بين اختلاف الحركات واختلاف الأبواب النحوية التي ترمز إليها.

أما مقتضى كلام النحاة أن الحكم على الإضافة لفظية كانت أو غير لفظية مبنيّ على العمل، والعمل – كما هو معلوم– مبنيّ على المشابهة بين اسم الفاعل والفعل، فقد قادهم إلى بناء حكم آخر هو سلب دلالة التعريف والتخصيص من الإضافة غير المحضة واعتبار الإضافة لفظية تفيد التخفيف، وأن اسم الفاعل

الدّال على الحال والاستقبال تُحذف منه النون والتنوين، ولا يكون الاسم بالإضافة إلى معرفة إلا نكرة.

يقول سيبويه: "وليس يُغيّر كفّ التنوين إذا حذفته مستخفاً شيئاً من المعنى، ولا يجعله معرفة"[٥٢]؛ لأن التنوين حُذف استخفافاً، فلمّا ذهبت النون عاقبتها الإضافة والمعنى معنى ثبات النون[٥٣].

ويرى سيبويه[٥٤] ومن تابعه أن إضافة اسم الفاعل المراد به الحال أو الاستقبال، لا تُكسب المضاف تعريفاً أو تخصيصاً؛ لوقوعها وصفاً للنكرة، كما في قول الله تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] فقوله: (بالِغَ الكَعْبَة) من نعت الهدي وصفته. وإنما جاز أن يُنعت به وهو مضاف إلى معرفة؛ لأنه في معنى النكرة، وذلك أن معنى قوله: (بالِغَ الكَعْبَةِ) يبلغ الكعبة، فهو وإن كان مضافاً فمعناه التنوين، لأنه بمعنى الاستقبال.

ومن الشواهد التي ساقها النحاة، على عدم تمحض اسم الفاعل الدالّ على الحال والاستقبال، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤]. فلو لم يكن "مستقبل أوديتهم" في معنى النكرة لم توصف به النكرة "عارضاً".

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] "فلو لم يكن قوله "مُمْطِرُنَا" في معنى النكرة والتنوين لم توصف به النكرة كذلك"[٥٥] فـ(بالغ) و(ممطرنا) اسما فاعل مضافان إلى ما بعدهما ولو أفادا التعريف؛ لصارا صفتين معرفتين للموصفين النكرتين، وذلك غير وارد في اللغة.

يقول سيبويه: "ومما يكون مضافاً إلى المعرفة ويكون نعتاً للنكرة، الأسماء التي أُخذت من الفعل وأُريدَ بها معنى التنوين، من ذلك مررتُ برجل ضاربك، فهو نعتٌ على أنه سيضرِبه، كأنك قلت: مررتُ برجلٍ ضاربٍ زيداً."(٥٦).

ومن أدلّة النحاة على تنكير الوصف المضاف إلى المعرفة، مجيء قرينة التنكير (رُبّ) ومدخولها اسم فاعل مضاف، في قول جرير(٥٧):

[البسيط]

يَـا رُبَّ غَابِطَنَـا لَـوْ كَـانَ يَطْلُـبُكُمْ لاقَـى مُبَاعَـدَةً مِـنْكُم وَحِرْمَانـا

فدخول "رُبَّ" على اسم الفاعل دليلٌ على أنَّ إضافته غير محضة؛ لأنَّ "رُبّ" لا يقع بعدها إلا نكرة، فذلك يدلّك على أن "غابطنا" نكرة"(٥٨).

ومن الشواهد التي ذكرها النحاة على عدم تمحض اسم الفاعل، وقوع اسم الفاعل المضاف إلى معرفة "حالاً " في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنيرٍ ثَانِيَ عِطْفِه﴾ [الحج: ٩]، فـ "ثَانِيَ عِطْفِه" منصوب على الحال والحال لا تكون إلا نكرة.

ويرى الدكتور محمد حسن عواد:(٥٩) أن إضافة اسم الفاعل بمعنى المضيّ أو الحال أو الاستمرار، معنويةٌ شأنها شأن أي إضافة حقيقية. ذاهباً إلى أن كل من "بالغ الكعبة" و"ممطرنا" يحتمل أن يكون بدلاً، لجواز إبدال النكرة من المعرفة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ٍ(٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

أما مجيء اسم الفاعل المضاف حالاً، في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ [الحج: ٩]، فيرى فيه أن تنكير الحال ليس واجباً في جميع الأحوال؛ بل الغالب في الحال أن يكون نكرة[٦٠]، مستدلاً على ذلك بمذهب البغداديين ويونس، الذين يجيزون تعريف الحال مطلقاً بلا تأويل، كما في "جاء زيدٌ الراكبَ"[٦١].

فضلاً عن مجيء الحال معرفة في قول الشاعر[٦٢]:

وَلَمْ يُشْفِقْ عَلَى نَغَصِ الدّخَالِ فَأَرْسَلَهَا العِرَاكَ وَلَمْ يَزُدْهَا

وقول العرب: "اجتهد وحدك وكلَّمتُه فاهُ إلى فِيَّ"[٦٣]. والحق أن جملة الشواهد المذكورة أدلّة كافية على مجيء الحال معرفة في الشعر والنثر على حدّ سواء، وحملها على الظاهر خير من التأويل الذي لجأ إليه النحاة.

ونحن نعلم أن النحاة قد حملوا هذه الشواهد على التأويل، يقول أبو البركات: "فأما قولهم أرسلها العراك، وطلبته جهدك، وطاقتك، ورجع عوده على بدئه؛ فهي مصادر أُقيمت مقام الحال؛ لأن التقدير "أرسلها تعترك" و"طلبته تجتهد"، وتعترك وتجتهد جملة من الفعل والفاعل في موضع الحال، كأنك قلت أرسلها معتركة، وطلبته مجتهداً إلا أنه أضمر وجعل المصدر دليلاً عليه، وهذا كثير في كلامهم[٦٤].

أما استدلال النحاة بأن "رُبَّ" قرينة تنكير؛ لاختصاصها بالنكرات، بدليل دخولها على اسم الفاعل (ممطرنا)، – وهو دليل على تنكير اسم الفاعل–، فمردود بدخول "رُبَّ" على (مَنْ) [٦٥] في قول الشاعر[٦٦]:

قَدْ تَمَنَّى لِيَ مَوْتَاً لَمْ يُطَعْ رُبَّ مَنْ أَنْضَجْتُ غَيْظَاً قَلْبَهُ

و"مَنْ" كما هو معلوم من أبنية المعارف في العربية، ودخول "ربَّ" عليها ينقض اختصاصها بالنكرات.

وتجدر الإشارة إلى أن النحاة قد عدّوا (من) في هذا البيت نكرة موصوفة، وليست معرفة[٦٧]، يقول الزجاج: "وتكون نكرة يلزمها النعت، كقولك: "مررتُ بمَن مُحسنٍ"، أي "بإنسانٍ مُحسنٍ". وممّا حُمل على تنكيرها كذلك قوله:

[الكامل]

حُـــبُّ النبـــيّ محمـــدٍ إيانـــا فكفـى بنـا فضـلاً علـى مَـنْ غيرِنـا

يريد "على قوم غيرنا" [٦٨].

وإن كان بعض العلماء قد ارتضى مجيء "منْ" نكرة كما ذكرنا، فإنه لم يفت بعضهم تقييد ذلك بوقوع "مَنْ" موقع النكرة، يقول الكسائي: "إن العرب لا تستعمل (من) نكرة موصوفة إلا بشرط وقوعها في موضع لا يقع فيه إلا النكرة"[٦٩].

ويقول أبو حيّان: "وأكثر لسان العرب أنها لا تكون نكرة موصوفة إلا في موضع يختص بالنكرة، كقول سويد: ويقلّ استعمالها في موضع لا يختصّ بالنكرة"[٧٠].

ويبدو لي أن القول بتمحض إضافة اسم الفاعل (الدّالّ على الحال والاستقبال) على إطلاقه، غير مسلّم به؛ لما تقدم من عدم إمكانية إغفال التنكير في الشواهد التي تقطع كل قول بالإطلاق، كما أن قول النحاة بعدم دلالة الإضافة غير المحضة على التعريف أو التخصيص – على إطلاقه – غير سائغ كذلك.

والذي أراه أن الإضافة المعنوية تفيد التعريف والتخصيص، والإضافة اللفظية يجوز أن تفيد التخصيص أو التعريف إذا تضمّن التركيب قرينة لغوية أو سياقية تحقّق ذلك. فالتعريف والتخصيص في الإضافة المحضة، والتخصيص في غير المحضة دلالتان مركزيتان في كل مركّب إضافي، ثُمّ تفترق تلك الأنماط باختصاص كل نمط بدلالة بعينها.

ولعلّنا لا نعدم في ثنايا أقوال النحاة من الإشارات ما يؤيد هذا الزعم، يقول سيبويه: "وزعم يونس والخليل أن هذه الصفاتِ المضافةَ إلى المعرفة، التي صارت صفة للنكرة، قد يجوز فيهن كُلُّهُنَّ أن يكنَّ معرفة، وذلك معروف في كلام العرب، يدلّك على ذلك أنه يجوز أن تقول: مررت بعبد الله ضاربك فجعلت ضاربك بمنزلة صاحبك"(٧١). وقد نصّ ابن مالك على أن إضافة اسم الفاعل قد تفيد التخصيص؛ لما لاحظه من أنّ ضارب زيد أخص من ضارب"(٧٢). ويقول ابن عصفور: "وقد تُجعل إضافة جميع ما ذُكِر – يعني الصفات – مَحضة ....."(٧٣).

ويوضّح أبو حيّان هذا الرأي بقوله: "وحلّ هذا الإشكال هو أن اسم الفاعل، إن كان بمعنى الحال أو الاستقبال، جاز فيه وجهان:

أحدهما: ما قدّمناه من أنه لا يتعرّف بما أضيف إليه، إذ يكون منوياً فيه الانفصال من الإضافة، ولأنه عمل النصب لفظاً.

الثاني: أن يتعرّف به إذا كان معرفة، فيلحظ فيه أن الموصوف صار معروفاً بهذا الوصف، وكان تقييده بالزمان غير معتبر، وهذا الوجه غريب النقل، لا يعرفه إلا من له اطّلاع على كتاب سيبويه وتنقيب عن لطائفه"(٧٤).

وواضح أن في هذا القول غناء عن كثير من الجدل والخلاف المفضي إلى تعقيد اللغة، باعتباره توصيفاً لظاهرة لغوية، وفق سياق استخدامها، وأن الأخذ بهذا القول يقطع كل مجال للخلط والاضطراب.

وممّا يقوّي هذا الرأي أننا نجد في كتاب الله تعالى بعض أسماء الفاعلين، التي تدل على الحال والاستقبال، وقد وقعت معرفة على غير نيّة الانفصال، ولو نوي التنوين لكانت النكرة صفة للمعرفة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] بالجر للإضافة، فلو قُرئ بالتنوين لصار "مالك" صفة لمعرفة وهو "رَبُّ العالمين"، ولا اعتداد بقول من يقول: إنه لا يصلح صفة للمعرفة"(٧٥).

يقول الزمخشري: "فإن قلت: فإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية فلا تكون معطية معنى التعريف، فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة؟ قلت: إنما تكون غير حقيقية إذا أُريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال، فكان في تقدير الانفصال، كقولك: مالك السّاعة الآن أو غداً. فأما إذا قُصِدَ معنى الماضي، كقولك: "هو مالك عبده أمسِ"، أو زمان مستمر كقولك: "زيدٌ مالك العبيد"، كانت الإضافة حقيقية كقولك: مولى العبيد"، وهذا هو المعنى في: ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّين﴾(٧٦).

ومما يُحمل على هذا، قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ [فاطر: ١] عند من جعلهما على إرادة الاستقبال، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥]، يقول العكبري: قوله تعالى: (فالق الحب): يجوزُ أنْ يكونَ معرفةً؛ لأنه ماضٍ، وأنْ يكونَ نكرة على أنه حكاية حال"(٧٧).

وإذا كان الأمر على ما يقول النحاة، فإنَّ الأوصاف المتّصف بها الحق – جلّ شأنه– ليست أوصافاً عارضةً ولا طارئةً ولا محددة بزمن.

وقد أطلق النحاة "مصطلح" الإضافة اللفظية على هذا الضرب من الإضافة؛ لما لاحظوه من أن الإضافة اللفظية لا تُكسب المضاف تعريفاً ولا تخصيصاً.

يقول الزجاجي في حدّها: "التي لا يكتسب المضاف بها من المضاف إليه تعريفاً إن أُضيف إلى معرفة ولا تخصيصاً إن أُضيف إلى نكرة"[٧٨]، ويقول السيوطي: "وأمّا المُضاف إضافة لفظية فلا يتخصّص بالإضافة ولا يتعرّف بها، بل هو معها على إبهامه قبل ..."[٧٩]، وبذلك نرى أن التعريف والتخصيص أثران معنويان لا صلة للإضافة غير المحضة بجلبهما للمضاف – على حد تعبير النحاة–.

ومن التعليلات التي يعلّلها النحاة في التماس أصول الظواهر اللغوية، الميل إلى الخِفّة في النطق؛ لأن المقصود بها مجرد تخفيف اللفظ بحذف التنوين أو نون التثنية أو الجمع، على حدّهما كما في (حسن الوجه)[٨٠].

فلما كانت فائدة هذه الإضافة مقصورة في الأغلب على التخفيف بحذف التنوين، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، سُمّيت هذه الإضافة لفظية؛ لأنّ فائدتها ليست عائدة إلا إلى اللفظ، إما إلى تخفيفه وإما إلى تحسينه [٨١]؛ لما بين جزئي التركيب المتضايف من تقدير للانفصال[٨٢] وَلِوقوع أثرها المباشر على الألفاظ دون المعاني[٨٣].

والخفّة التي أشار إليها النحاة تتسق ومنطق اللغة؛ فالمتكلم ينزع في كلامه إلى التخفيف من الزوائد؛ لتوفير الجهد، وبخاصة إذا بان المعنى المقصود، فهذا مسلك لغوي يتوخّاه المتكلّم.

وإن كنا نوافق النحاة على أن حذف النون والتنوين للإضافة ضرب من ضروب الخفّة؛ فإننا لا نرى أن التخفيف قيمة دلالية أُقيمت الإضافة لأجله، فلم يكن قصد الناطق ساعة أضاف الوصف إلى معموله، إحداث التخفيف فحسب، وإنما قصد من ضم البنيتين إحداث قيمة دلالية لا تَحْسُن إلاّ بمجموع المتضايفين. وقد أدرك بعضهم هذه الحقيقة، يقول الفارسي في تعليله لقراءتي النصب والجر في قوله تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ [الزمر: ٣٨] وقوله: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٠٣٨]، يُقرآن بالتنوين والنصب، وبحذف التنوين والخفض، فالحجّة لمن نوّن أنه أراد الحال والاستقبال، ولمن أضاف أنه أراد ما ثبت ومضى[٨٤].

لأن اللغة حين تجد في تركيب ما، بياناً أكثر ممّا في تركيب آخر، تهجر هذا إلى ذاك، وقد ذكرنا في ما مضى طائفة من القراءات القرآنية التي قُرئت بالوجهين: بالإضافة تارة وبالتنوين والنون أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، قرأ الجمهور بثبوت النون وقرأ الأعمش بحذف النون والإضافة[٨٥].

ولو كان الأمر على ما يقول النحاة لما عدل الناطق من الخفّة إلى الثقل مع قدرته على تحقيق ذلك؛ ولعُدل إلى الإضافة ولخلت اللغة من كل تركيب مظنّة الثّقل، لكن التخفيف هو آخر ما يتحكّم في اللغة وتراكيبها.

أمّا التخفيف فهو مظهر سياقيّ يحدثه الذوق الاستعمالي الذي يكره توالي التنوين مع الإضافة في سياق تركيبي واحد، أو لِنقل هو سلوك نطقي يُجلب لحلّ

إشكال التعارض بين ظاهرتين يأبى نظام اللغة اجتماعهما في سياق واحد، وهما (التنوين أو النون والإضافة).

أمّا قَصْر القيم الدلالية للإضافة غير المحضة على دلالة "التّخفيف" دون غيرها من الدلالات، فمؤشر غير دقيق في فهم المعنى النحوي؛ إذ إن القول بأن الإضافة غير المحضة هي "لفظية" تفيد التخفيف حسب، فصل بين المقال والمقام، أو لِنَقُل فصل بين التركيب والدلالة، وهو فصل غير عادل، إذ جعل النحاة المعنى من خصوصيات الإضافة المعنوية وليس من الإضافة اللفظية في شيء، مع أنّ المعنى النّحوي لا يستوي ولا يكتمل إلا بتضافر القرائن في إطار الاستعمال أو السياق، وهذا فصل خطر للغاية بين التركيب والدلالة.

والذي نريد أن نصل إليه مدى حرص النحاة على قواعدهم وأصولهم المعيارية التي سلكوها بعد استقراء اللغة؛ ليسلم لهم اطّراد القاعدة، ولتبقى تنظيراتهم منسجمة، وهم معذورون في ذلك.

والملاحظ من تنظيرات النحاة – في باب الإضافة – أن النظرية النحوية العربية وسعت في تحليلها البعد التركيبي دون أن تغفل البعد الدلالي، الأمر الذي يضفي عليها نوعاً من الشمول والمرونة، إلا أنه يجب التنبيه إلى أمر غاية في الأهمية، فالنحاة العرب وإن شملوا ببعدهم التركيبي جانباً من البعد الدلالي، فإن اهتمامهم قد انصبّ أساساً على البنية التركيبية للغة، القائمة على نظرية العامل، لبيان العلاقات التركيبية التي تجمع بين عناصر التركيب وضبطها، ويؤكد ذلك ما رأيناه من ارتباط الوظائف النحوية، وهي القائمة بالبنية التركيبية والدلالية الأساسية

للغة بشكل أساسي. وذلك يعني أن نظرية العامل تنهض أيضاً بإيضاح العلاقات المعنوية بين عناصر التركيب.

نتائج الدراسة

١- إنّ أهم ما وصلنا إليه في هذه الدراسة، ضرورة الربط بين كل ما هو تركيبي بحت – وهو ما كان في واقع الأمر مدار انشغال النحاة – وما هو دلالي، حتى لا تبقى الأبنية والتراكيب العربية قوالب جامدة خالية من كل روح؛ لذا هدفت الدراسة إلى إيضاح الصّلة بين هذين العلمين (التركيب والدّلالة) في باب الإضافة، خاصة أن الإضافة حلقة وصل تمكّن من إقامة العلاقات بين الجمل، وتساعد في تأليف أجزاء النص، وتنسج علاقات متينة واسعة بين الجمل.

٢- أكدّت الدراسة أن التركيب الإضافي واحد من أهم التراكيب اللغوية التي يتجسّد فيها دور الحركة الإعرابية في توضيح المعنى؛ إذ إنها القرينة الوحيدة في توجيه دلالة التركيب إلى المضيّ والتحقّق، كما في قولنا: "ضاربُ زيدٍ"، وأنها القرينة الوحيدة كذلك التي ترشّح البنية إلى الاستقبال والتوقع، كما في قولنا: "ضاربٌ زيدًا".

٣- إن فكرة الأصل والفرع التي قال بها النحاة في إضافة اسم الفاعل وهي أن الإعمال أصل الإضافة، تتنافى ومنهج النحاة في توصيف الظواهر اللغوية، إذ لا يصح أن تكون إحدى البنيتين أصلاً للأخرى، والوجه أن تدرس كل ظاهرة بما يميزها من قسيمتها، وفقًا لما يظهره الاستعمال، وأن يُقال كلٌّ منها أصل قائم برأسه غير محمول على الآخر.

٤- تبين من خلال استقراء الآيات القرآنية وتحليلها صحة ما ذهب إليه بعض العلماء القدامى والمحدثين، من أن الإضافة غير المحضة يمكن أن تكون محضة وتفيد التعريف والتخصيص شأنها شأن الإضافة المعنوية إذا توافرت القرائن الدّالة على هذا، ولعلَّ من أبرز الشواهد التي يمكن الاستدلال بها وصف الله – عز وجل – لذاته الشريفة بـ (مالك الملك) و(شديد العقاب) و(غافر الذنب) إلى غير ذلك من شواهد إضافة الوصف التي توجّهت الأكثرية الكاثرة من النحاة إلى عدّها غير محضة.

الهوامش

(١) شرح التصريح: ٦٧٩/١.

(٢) شرح الكافية: ٢٢٠/١.

(٣) ارتشاف الضرب: ٥٠٤/٢.

(٤) انظر: الكتاب: ٢١/١، ٣٠، والمقتصد، ٥١٢/١- ٥١٣، وشرح الكافية: ٢٢١- ٢٢٣.

(٥) المرتجل، ابن الخشاب، ٢٣٦، وانظر اللباب في علل البناء والإعراب: ٤٣٧/١، وشرح ابن عقيل: ١٠٦/٣.

(٦) شرح ابن عقيل: ١٠٦/٣.

(٧) مغني اللبيب: ٥٩٨/١.

(٨) انظر: شرح قطر الندى: ٢٧٠.

(٩) انظر: رسالة في اسم الفاعل المراد به الاستمرار في جميع الأزمنة، أحمد بن قاسم العبادي، ٧٥.

(١٠) مغني اللبيب: ٥٩٨/١.

(١١) انظر: اسم الفاعل في القرآن الكريم: ١٠٦.

(١٢) شرح اللمحة البدرية في علم اللغة العربية، ٢٧٩.

(١٣) انظر: رسالة في اسم الفاعل: ٧٥.

(١٤) الكتاب: ١٠٢/١.

(١٥) انظر: اسم الفاعل بين الاسمية والفعلية: ٤١.

(١٦) شرح المفصل: ٧٧/٦.

(١٧) همع الهوامع، السيوطي: ٦٩/٤.

(١٨) الإيضاح العضدي، أبو علي الفارسي: ١٣٤، والمقتصد: ١/ ٥١٣، وأوضح المسالك، ابن هشام: ٢١٧/٣، وشرح المفصل: ٧٧/٦.

(١٩) انظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ٢٠٢-٢٠٣.

* نلاحظ أن ثمة فرقاً بين فكر عبد القاهر النحوي، وفكره البلاغي، يقول في المقتصد: ".. ألا ترى أنك لو أوقعت المضارع موقعه، نحو وكلبهم يبسط ذراعيه وجدته مستقيماً" ٥١٣/١.

(٢٠) دلائل الإعجاز: ٢٠٣.

(٢١) انظر: اسم الفاعل بين الاسمية والفعلية، فاضل الساقي: ٦٩.

(٢٢) انظر: مناهج البحث في اللغة، تمام حسان: ٢٤٥، واسم الفاعل بين الاسمية والفعلية:٧١.

(٢٣) انظر: حجة القراءات: يقول: "وحجتهم أن الفعل منتظر، فالتنوين الأصل، وهو وعد من الله فيما يستقبل وفي حال الفعل كأن تقول: أنا ضارب زيداً": ٧٠٨/١ واسم الفاعل بين الاسمية والفعلية:٧١.

(٢٤) انظر: اللباب، ٣٩٠، وشرح المفصل: ١٢٢/٢.

(٢٥) انظر: شرح المفصل: ١٢٢/٢.

(٢٦) انظر: شرح الكافية: ٢٢٠، وشرح التصريح: ١/ ٦٨٠-٦٨١، ورسالة في اسم الفاعل: ٧٣ وما بعدها.

(٢٧) الكتاب: ١٦٨/١. معطي رأسه: ذلول منقاد، يعني البعير، ناج: سريع، المتعيس: الأبيض تخالطه شقرة.

(٢٨) شرح الكافية: ٢٢٠/٢.

(٢٩) الكتاب: ١٦٥/١.

* والمعنى الذي يقصده سيبويه هنا هو التعريف والتنكير، بمعنى أن حذف التنوين لا يجعل اسم الفاعل معرفة.

(٣٠) الكتاب: ١٦٨/١، وانظر: رسالة في اسم الفاعل: ٣٩.

* انظر: قول سيبويه ص١٢ من البحث.

(٣١) انظر: رسالة في اسم الفاعل: ٥٩.

(٣٢) الكشاف، الزمخشري: ٤٧٦/١.

(٣٣) المحرر الوجيز، في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية: ٤٤٧/٣.

(٣٤) الكشاف: ٤٧٦/١.

(٣٥) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري: ٢٩٠/٢.

(٣٦) المصدر السابق: ٢٩٠/٢.

(٣٧) نسبه أبو حيان للكسائي، قال: "وقال الكسائي هما سواء"، البحر المحيط: ٤٠٣/١٠.

(٣٨) البحر المحيط، أبو حيان: ٢٢٦/١.

(٣٩) المصدر السابق: ٤٠٣/١٠.

(٤٠) الهمع: ٩٦/٢، والمساعد: ٢٠٠/٢.

(٤١) انظر رسالة في اسم الفاعل: ٤١.

(٤٢) الكتاب: ١٦٥/١.

(٤٣) المصدر السابق.

(٤٤) شرح الكافية: ٤٠٩/١.

(٤٥) انظر: اللسان، مادة ضيف.

(٤٦) المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، لأبي نعيم الأصبهاني: ٤٢٣/٢.

(٤٧) الهمع: ٤١١/٢.

(٤٨) شرح المفصل: ١٢٦/٢.

(٤٩) معاني القرآن، الأخفش: ٢٥٦/١.

(٥٠) الأشباه والنظائر، السيوطي: ٢١١/٦.

(٥١) الكوكب الدري، الأسنوي: ٢٤٣.

(٥٢) الكتاب: ١٦٥/١.

(٥٣) انظر المقتضب: ١٤٩/٤.

(٥٤) انظر الكتاب: ١٦٥/١-١٦٦.

(٥٥) المصدر السابق: ١٦٥/١-١٦٦.

(٥٦) المصدر السابق: ٤٢٥/١.

(٥٧) ديوان جرير، شرح، يوسف عيد: ٧٥١، والكتاب: ٤٢٧/١.

(٥٨) المصدر السابق: ٤٢٧/١.

(٥٩) انظر: رسالة في اسم الفاعل: ٥٩، واسم الفاعل في القرآن الكريم: ١٤٠٨

(٦٠) شرح ابن عقيل: ٢٤٨/٢.

(٦١) المصدر السابق: ٢٤٨/٢.

(٦٢) أسرار العربية: ١٧٩/١، واللباب: ٢٨٥، وأوضح المسالك: ٣٠٤/٢، وشرح شذور الذهب: ٣٢٤. (٦٣) المفصل، الزمخشري: ٩١.

(٦٤) أسرار العربية: ١/ ١٧٩.

(٦٥) انظر: رسالة في اسم الفاعل: ٥٩.

(٦٦) الأغاني، الأصفهاني: ١١٢/١٣، وجمهرة أمثال، أبو هلال العسكري: ٣٨٠/٢.

(٦٧) انظر البحر المحيط: ٨٥/١، ومغني اللبيب: ٣٦٤-٣٦٥، شرح شذور الذهب: ١٧٠/١.

(٦٨) الجمل في النحو: ٣٢٣.

(٦٩) البحر المحيط: ٨٥/١.

(٧٠) المصدر السابق: ٨٥/١.

(٧١) شرح شذور الذهب: ١٧٠/١. وانظر: رسالتان في اللغة: ٤١.

(٧٢) الكتاب: ٤٢٨/١، وانظر: فاتحة الإعراب في إعراب الفاتحة، الإسفراييني: ٤١.

(٧٣) انظر مغني اللبيب: ٥٦٥.

(٧٤) المُقَرِّب، ابن عصفور: ٢٠٩/١.

(٧٥) البحر المحيط: ٣٨/١.

(٧٦) فاتحة الإعراب: ١٤١.

(٧٧) الكشاف: ٥٥/١.

(٧٨) التبيان في إعراب القرآن: ا/٢٥٤.

(٧٩) شرح الجمل: ١٦٦.

(٨٠) الهمع: ٤١٦/٢.

(٨١) شرح ابن الناظم: ٢٧٤، والهمع: ٢/٤١٦.

(٨٢) شرح ابن الناظم: ٢٧٥.

(٨٣) المساعد: ٢/٢٣١.

(٨٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٦/٤٢.

(٨٥) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري.

المصادر والمراجع:

١. **اسم الفاعل بين الاسمية والفعلية**، فاضل الساقي، د٠ط، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٢. **الأشباه والنظائر**، جلال الدين السيوطي تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

٣. **ارتشاف الضَّرب من لسان العرب**، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: مصطفى أحمد النماس، مطبعة المدني، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٤. **الأغاني**، أبو فرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢.

٥. **الإيضاح العضدي**، أبو علي الفارسي، تحقيق: كاظم بحر المرجان، عالم الكتب ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٦. **الإيضاح في شرح المفصل**، ابن الحاجب، تحقيق: موسى بنيان العليلي، مطبعة العاني، د.ت، د.ط.

٧. **الإيضاح في علل النحو**، الزجاجي (٣٣٧هـ) تحقيق: مازن المبارك، مكتبة دار النفائس، ط٥، ١٤٠٦/١٩٨٦.

٨. **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيان الأندلسي (٧٥٤)، دار الفكر، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٩. **تفسير الطبري**، محمد بن جرير (٢١٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

١٠. **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، دار الكتب المصرية، دار الكاتب العربي، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

١١. **الجمل في النحو**، أبو القاسم الزجاجي، تحقيق: علي الحمد، مؤسسة الرسالة، دار الأمل، ط٢، ١٤٠٥هـ.

١٢. **جمهرة أمثال العرب**، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط٢، ١٩٨٨م.

١٣. **حجة القراءات ابن زنجله**، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢.

١٤. **الحجة للقرَّاء السبَّعة**، أبو علي الفارسي (٣٧٧هـ) تحقيق: بدر الدين فهوجي، بشير جويجاتي، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١٥. **الدُّرر اللوَّامع على همع الهوامع**، أحمد بن الأمين الشنقيطي، تحقيق: محمد باسل عيون السّود، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.

١٦. **ديوان جرير**، شرح يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

١٧. **رسالتان في اللغة**، الرُّماني، تحقيق: إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان، ١٩٨٤م.

١٨. **رسالة في اسم الفاعل**، أحمد بن قاسم العبادي (٩٩٢هـ) تحقيق: محمد حسن عواد، دار الفرقان/ عمان، ط١، ١٩٨٣م.

١٩. **شرح ابن الناظم**، تأليف عبد الله بدر الدين محمد ابن الإمام ابن مالك، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠١م.

٢٠. **شرح الأشموني** على ألفية ابن مالك، تحقيق: عبد الحميد السيد، المكتبة الأثرية، د٠ط، د٠ت.

٢١. **شرح التصريح على التوضيح**، خالد الأزهري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٢. **شرح جمل الزجاجي**، ابن عصفور (٦٦٩هـ) تحقيق: صاحب أبو جناح، ١٤٠٢/١٩٨٢م.

٢٣. **شرح كافية ابن الحاجب**، الرضي الاستراباذي، تحقيق: يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس.

٢٤. **شرح الكافية الشافية**، ابن مالك، تحقيق: محمد علي معوّض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٢٥. **شرح المفصل**، ابن يعيش، عالم الكتب.

٢٦. **فاتحة الإعراب في إعراب الفاتحة**، الأسفراييني، تحقيق: عفيف عبد الرحمن، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٢٧. **الكتاب**، سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار عالم الكتب، بيروت.

٢٨. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل**، الزمخشري (٥٣٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٢٩. **الكوكب الدّري**، فيما يتخرج على الفروع الفقهية، الأسنوي، تحقيق: محمد حسن عواد، دار عمار، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٣٠. **اللبّاب في علل البناء والإعراب**، العكبري (٦١٦هـ) تحقيق: غازي طليمات، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٣١. **لسان العرب**، ابن منظور، دار صادق، بيروت، د.ت، د.ط.

٣٢. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ابن عطية، تحقيق: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، وعبد العال السيد إبراهيم، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٣٣. **المرتجل**، ابن الخشاب، تحقيق: علي حيدر، دار الحكمة، دمشق، ١٩٧٢م.

٣٤. **المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم**، لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: محمد حسن الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٣٥. **معاني القرآن**، الأخفش، سعيد بن مسعدة، تحقيق: عبد الأمير الورد، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٣٦. **المفصل في صنعة الإعراب**، الزمخشري، تحقيق: علي أبو ملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٣٧. **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار نشر الكتب/ لاهور، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٣٨. **المقتصد في شرح الإيضاح**، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م.

٣٩. **المقتضب**، المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، د.ت، د.ط.

٤٠. **مناهج البحث في اللغة**، تمام حسان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

٤١. **النحو الوافي**، عباس حسن، دار المعارف، مصر، ط٤. د.ت.

٤٢. **النشر في القراءات العشر**، ابن الجزري (٨٣٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨.

٤٣. **همع الهوامع في شرح وجمع الجوامع**، السيوطي، تحقيق: حسن هنداوي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت، د.ط.

الرسائل الجامعية:

١- **اسم الفاعل في القرآن الكريم**، إعداد: أبو سعيد محمد عبد المجيد وحيدي، جامعة اليرموك، إشراف، د. محيي الدين رمضان، ١٤٠٨/١٩٨٨هـ.

البحوث المنشورة:

١- **اللغة العربية بين الثبوت والتحوّل، مُثل من ظاهرة الإضافة**، د. نهاد الموسى، حوليات الجامعة الكويتية.

تعقيب على بحث "شعراء عباسيون:
ملحوظات وإضافات جديدة"

هلال بن ناجي

مدار البحث المنشور في العدد السادس والسبعين من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني للدكتور عبد الرازق حويزي هو استدراك على كتاب "شعراء عباسيون" :دراسات ونصوص شعرية حبّرها المستشرق النمساوي غوستاف فون غرونباوم، وكان قد نشرها في مجلة ORIENTALIAR بين عامي ١٩٤٨-١٩٥٣، ثم ترجمها، وأعاد تحقيقها، واستدرك عليها د. محمد يوسف نجم، وراجعها د. إحسان عباس – رحمه الله- ونُشرت الترجمة في بيروت سنة ١٩٥٩.

إنّ أهمية أيّ استدراك على ديوان ما، تجيء في نشره في مدة قريبة من تاريخ صدور الديوان المستدرك عليه نفسه، وليس بعد ستة عقود من صدوره؛ لسبب علمي محض، يتلخّص في أنّ صدور عشرات المصادر، وكتب الاختيارات الشعريّة خلال هذه المدة الطويلة، يجعل أمر هذه الاستدراكات ميسوراً لظهور مصادر لم تكن مطبوعة، عندما أعدّ الباحث أو صانع الديوان الكتاب المنقود.

إنّ ظهور مجموعات شعرية ضخمة من كتب الاختيارات الشعرية أمثال: الحماسة البصرية، والتذكرة السعدية، والتذكرة الفخرية، ومنتحل الميكالي، والدّرّ الفريد، ومنتهى الطّلب، وكتاب الزهرة، وقطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور، وتاريخ دمشق، والإماء الشواعر، والجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، والمنصف، وربيع الأبرار، والأنوار ومحاسن الأشعار، والكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، وحماسة الظرفاء، والحماسة المغربية، وحدائق الأنوار وبدائع الأشعار وغيرها، قد وفّر مادة غزيرة لصُنّاع الدّواوين من الهواة

والغواة وبعض أساتذة الجامعات. وبسبب ما تقدّم، فقد أصبح البحث ذاته مُستهلَكاً بعد أن تعاقب عليه أكثر من عشرة باحثين مستدركين، خلال نصف قرن من الزمن، كان في مقدمتهم مترجم النص الدكتور محمد يوسف نجم، الذي أضاف في ذيل الكتاب ثمانية وستين بيتاً. واندفع آخرون إلى تحقيق دواوين بعضهم على انفراد.

فحقّق د. ثابت محمود معروف وواضح الصمد، كل على انفراد، شعر سلم الخاسر. وحقّقت د. كارين صادر ديوان أبي الشمقمق.

عدا استدراكات كثيرة نشرها صبيح صادق، وحاتم غنيم، ومحمد يحيى زين الدين، ووليد السراقبي، وإبراهيم صالح. وهكذا استهلك البحث، ولم يقدّم مادة فيها إضافة معرفيّة أصيلة ذات بال.

مناقشة المستدرك على شعر مطيع بن إياس

(١)

بالرقم أعلاه أورد الباحث نتفة هذا نصّها:

مـــــا رأينـــــا جـــــبلاً قَبْـــــ لـــــكَ يمشـــــي فـــــي الفضـــــاءِ
أنـــــتَ كـــــانونٌ علينـــــا لـــــيس كـــــانونَ الصِّـــــلاءِ

أقول: وقع الباحث في خطأ عدم ذكر المناسبة، ولا فيمن قيلت، ومتى؟ خلافاً لقواعد التحقيق العلمي من ضرورة شرح المناسبة التاريخية، واسم الممدوح.

(٢)

بالرقم المذكور أورد الباحث نتفة أوّلها:

إنّـــــي اتّخـــــذْت عُـــــدوَّةً فســـــقى الإلـــــهُ عُـــــدْوَّتي

أورد ما تحته خط (بشدَّة فوق الواو عليها فتحة)، وهي كلمة مغلوطة لا وجود لها في معاجم العربية. صوابها: عُدْوَةً – عُدْوَتي.

جاء في اللسان مادة (عدا): عِداءُ كلّ شيءٍ. وعُدْوَتُهُ طَوارُهُ، وهو ما انقاد معه من عرضه وطوله.

(٣)

تحت الرقم (٣) أورد الباحث البيت التالي:

لهـــا لـــونٌ كلـــون الـــور د لـــو قَطَّرْتَـــهُ قَطَـــرا

أغفل ذكر الغرض الذي نُظم فيه هذا البيت خلافاً لقواعد التَّحقيق.

مناقشة المستدرك على شعر سَلْم الخاسر

استدرك الباحث على شعر سلم الخاسر خمسة عشر بيتاً.

النتفة رقم (١)

خليلـــيَّ مـــا للعاشـــقينَ قلـــوبُ ولا لعيـــونِ النـــاظرينَ ذنـــوبُ
فيـا معشـرَ العُشَّـاقِ مـا أبغـضَ الهـوى إذا كـــان لا يلقـــى المحـــبَّ حبيـــبُ

جَرَّدها الباحث من المناسبة خلافاً لما ورد في مصدرها "الإماء الشواعر".

وفي المصدر بعد أن أورد سند الرواية قال: دخلت يوماً إلى عنان جارية النَّطاف، فسألتني أن أقيم عندها، ففعلت، وأُتينا بالطعام والشراب، فأكلنا وشربنا وغنتني، فكان غناؤها دون شعرها، وشربت ستة و(....) خمسة، فتغافلتُ، وقلتُ: غنّيني صوتي في شعر سلم، ثم أورد البيتين فغنّت: [بيتين فاحشين].

النتفة رقم (٢)

ونصّها كما أورده الباحث نقلاً عن كتاب "التدوين في أخبار قزوين":

بيـــدي أميـــر المـــؤمنين المصـــطفى هـــارون قـــام الـــدينُ والمنهـــاجُ
إنّ الخلائـــفَ مـــن قُـــريشٍ خيرُهـــا بعـــد النبـــي خليفـــةٌ حجّـــاجُ

قلت: فاتَ الباحث ذكر تفاصيل المناسبة، وشرح كلمة حجّاج الواردة في النّص.

وقد ورد في النصّ ممّا أغفله الباحث عند الحديث عن هارون الرشيد، أنّه: "كان يحجّ سنة ويغزو سنة وفتح فتوحاً كثيرة ... يُقال: إنه كان يصلّي في كل يوم مئة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلاّ أن تعرض له علّة. وكان يتصدّق في كل يوم من صُلب ماله بألف درهم. وكان إذا حجَّ أحجّ معه مئة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحجّ ثلاثمئة رجل بالنفقة السابقة والكسوة الطاهرة ...."؛ ولهذا نعته الشاعر بأنه "خليفة حجّاج" أي كثير الحجّ.

البيت رقم (٣)

وقال:

منـــع ابـــن غســـطةَ رأســـه بخراجـــه ولقـــد يكـــون ومـــا عليـــه خـــراجُ

نقله الباحث عن رسائل الجاحظ، ولم يُشر إلى الشرح التاريخي لهذا البيت. والسؤال، ماذا يفهم القارئ من هذا البيت إذا لم يُشرح؟

قلت: أمّا غسطة، وصواب اسمها (اغسطة) لضرورة الشعر. واسمها ريني امرأة الإمبراطور اليون بن قسطنطين، ولم تزل هي وابنها قسطنطين بن اليون ملكين على الروم بقية أيام المهدي، وأيام الهادي، وصدراً من خلافة الرشيد. فقسطنطين هو الذي يسميه الشاعر ابن غسطة، وذكر الطبري في أخبار سنة ١٨٢، وفيها سملت الروم عيني ملكهم بن اليون، وأقرّوا أمه ريني، وتُلقَّب (اغسطة)، وذلك في أيام الرشيد: يُنظر التنبيه والإشراف ص١٤٢.

إنّ إغفال الباحث شرح مناسبات الأشعار التاريخية والاجتماعية والأدبية، يجعلها عديمة الفائدة.

النتفة رقم (٦)

وأولها: كأنَّـــــه والقنـــــا دوانٍ يـــوم علـــى ليلـــةٍ مغيـــر

قلت: أخطأ الباحث في ضبط ما تحته خط وصوابه: ليله، بدون نقطتين.

النتفة رقم (٧)

أورد الباحث البيت الأول بالصيغة التالية:

بمُجْـرٍ يَضـلُّ الليـلُ فـي حجراتِـه سُـــرادقهُ ممـــا تُثيـــر الحـــوافر

قلت: وقع خطأ في ضبط ما تحته خط وصوابه: بِمَجْرٍ يُضِلُّ. المَجْرُ (بفتح الميم لا بضمّها): الجيش العظيم.

النتفة رقم (٨)

أورد الباحث البيت الثاني منها مغلوطاً بالصيغة التالية:

لـيس جـودُ الجـوادِ فضـل مـالٍ إنّمـا الجـود للمُقِـلّ المواسـي

والصّواب: ليس جودُ الجواد من فضل مالٍ، فقد اختلّ وزن البيت بسقوط كلمة (من). وأمّا الأول: فلم تنسبه المصادر لسلْم الخاسر.

النتفة رقم (٩)

أورد الباحث البيت الثاني منها بالصيغة التالية:

فمـا دان اللئـامُ لغيـر بـأسٍ ولا لانَ الحديـدُ بغيـر نـار

خالف الباحث فيما أثبته الأمانة العلمية، فنصُّ البيت كما ورد في مصدره (الدرّ الفريد ٥/٢٧٢):

فمـا دنـتِ الأسـودُ لغيـر بـأسٍ ولا لان الحديـدُ لغيـرِ نـار

ثم إنّ هذه النتفة وردت للحيص بيص في ديوانه ٣/٦٩. وهذا كافٍ لثبوت نسبتها في ديوان محقّق مطبوع. فلماذا أقحمها على شعر سلْم الخاسر الوارد في هامش صفحة من الدّر الفريد؟ وهي نسبة ضعيفة لا يعضدها دليل، ومن الشعر المتدافع.

مناقشة المستدرك على ديوان أبي الشمقمق

القطعة رقم (١)

وقع الباحث فيها في غلطتين:

الأولى: أنها ممّا لا يصحّ استدراكه؛ لثبوت وجودها في ديوان أبي الشمقمق، المطبوع في بيروت – دار صادر ص٤٢ عن المصدر ذاته، وبتحقيق د. كارين صادر.

والثانية: أنه جرّدها من مناسبتها الأدبية والتاريخية؛ فالأبيات قالها أبو الشمقمق حين دخل مرة على عقبة بن سلم، وهو جالس بين بشار بن برد، ومروان بن أبي حفصة، واستأذنه في الإنشاد، فأذن له، فأنشده.

والثالثة: أنّ الباحث لم يشرح غوامضها، ومنها تعبير (أبو عمرة) وهو كناية عن الجوع والإفلاس.

البيت رقم (٢) من شعر أبي الشمقمق

أورده الباحث بالصيغة التالية:

قـــد ولـــي فـــارسَ والأهـــ وازَ داود بـــــن بشـــــرِ

قلتُ: وقع الباحث في غلطتين:

الأولى: أنّه لا يصحّ استدراك هذا البيت؛ لوروده في طبعة كارين صادر لديوان أبي الشمقمق ص٥٦.

والثانية: أنّه حرّف رواية البيت عن صيغته في مصدر قديم، وهو الكامل في التاريخ ج٣ ص٩٤٦ ونصّه:

قـــد ولـــي فـــارسَ والأهـــ وازَ داودُ بـــــن بكـــــر

بكر لا بشر.

المقطعة رقم (٣) من شعر أبي الشمقمق

قال الباحث: أنه نقلها من مخطوط وردت بعض ألفاظها مطموسة، واجتهد في قراءتها. قلت: كان على الباحث علميّاً أن يُقَوّسَ الكلمات المطموسة؛ لتعرف مواقع ومواضع اجتهاده، وهو ما لم يصنعه.

البيت رقم (٤)

أورد البيت التالي في المتدافع من شعره:

أراهُــنّ يــرقعنَ الخــروقَ بمثلهــا وايٌّ لبيــبٍ يَرْقَــعُ الخــرقَ بــالخرقِ

نقلاً عن ربيع الأبرار.

وذكر أنّ البيت ورد ضمن مقطّعة في أربعة أبيات منسوبة لأبي العتاهية في الأغاني ٢١/٤، ١٨٧/١٥، ومعاهد التنصيص. فكيف يُسوّغ علمياً بعد الظفر بالصيغة الأكمل، العودة إلى نسبة بيت واحد من المقطعة لشاعر آخر؟ كانت الطريقة العلمية توجب إهمال هذه النسبة المتدافعة. فوجوده بصيغة أكمل في مرجعين قديمين، تجعل نسبتها الراجحة وغيرها مرجوحة. فأيّ فائدة علمية تُجنى من نسبة بيت واحد من هذه الأربعة الثابتة النسبة لأبي العتاهية في مصدرين قديمين؟

بعد هذه المستدركات، الساقط أغلبها علمياً، انصرف الباحث إلى تثبيت الاختلافات الكثيرة في نسبة الأبيات في شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة.

ولقد اتّضح لي أنّ الباحث لم يطّلع على المنهج، الذي أقرّته لجنة وضع وتقنين قواعد تحقيق النصوص، في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية سنة ١٩٨٠، المنعقدة ببغداد للمدة من ٢٠-١٩٨٠/٥/٣٠. لقد ارتأت اللجنة عدم وجود ضرورة لاستقصاء روايات الأبيات أو اختلاف نسبتها؛ لأنّ وراء هذه الاختلافات في صيغة الأبيات أو في نسبتها أمور عدّة منها: عبث الرواة، وعبث النسّاخ، والظرف الثالث. وإنّ هذه الأمور كانت وراء اختلاط الشعر العربي والعباسي، بخاصة، واضطرابه والاختلاف في نسبة كثير من أشعاره، هذا عدا الانتحال، والدّسّ، والوضع، وتداخل الأشعار ممّا اشتهر به الشعر العباسي.

فعدم استيعاب الباحث لخطورة الظرف الثالث في حياة ومسيرة النتاج الأدبي والشعري، خاصّة؛ دفعه إلى هذا المزلق الخاطئ فيما كتبه.

وأعني بالظرف الثالث، الظرف الاجتماعي والنفسي، الذي تغافل عنه النحويون؛ فضاع بين الخطين غير المتوازيين لظرف الزمان وظرف المكان. ويغلب أن يغفله مؤرخو الأدب؛ لاتجاه أذهانهم إلى البيئة وعواملها بوجه عام. غير آبهين إلى وجوب تتبّع آثار هذه العوامل في النصوص الشعرية نفسها، وفي مسيرة حياتها عبر القرون، وفي نفوس الذين اشتغلوا بتدوينها وشرحها ونقدها، وقاموا بعمليات النقل والتوصيل من جيل إلى جيل.

إنّ لكلّ ديوان ولكلّ شعر سيرة حياة تنطلق من حياة ناظمه إلى الآخرين، حيث يلقى تدوينها ودرسها ونقدها مؤثرات متتالية، مؤثرات لا تنحصر في نقطة ثابتة في الزمان أو المكان، بل تحيا فاعلة ومنفعلة بأحداث الزمن المتحرّك أو بالتاريخ بمعناه الواسع.[١]

وخلاصة ما تقدّم: إنّ عبث الرواة وعبث النُسّاخ والظرف الثالث، تقف كلها وراء هذه الاختلافات الكثيرة في رواية الأبيات والاختلافات الجمّة في نسبة الأشعار، وهي اختلافات يجب طرحها جانباً، والأخذ بالرأي الأرجح؛ لصنع ما ضاع من دواوين السَّلف؛ كي تكتمل الصورة التي يستطيع بها مؤرخو الأدب كتابة تاريخنا الأدبي بعمق ووضوح وجلاء، بلا تنطّع في استخدام أجهزة الحاسوب؛ لتثبيت هذه الاختلافات، زيادة في تشتيت ما اتّفق على وحدته.

وبعد، فقد اتّضح لي أنّ الباحث قدم مستدركاً ضمّ أربعة وثلاثين بيتاً على دواوين ثلاثة شعراء، جمع شعرهم غرونباوم، ونشره قبل أكثر من خمسة عقود، وأن

١- يراجع بحث الدكتور علي الزبيدي عن الظرف الثالث المنشور في مجلة الآداب بجامعة بغداد.

اثنين من هؤلاء الثلاثة، صُنعت دواوينهم، ونُشرت وهما: سلْم الخاسر و(أبو الشمقمق). وأنّ هذه الأبيات المستدركة، التي قدّمها الباحث، بعضها موجود فعلاً، في الدواوين المطبوعة، فلا يصحّ استدراكها. وبعضها الآخر غارق في أخطاء الضبط، وثالث لم تُشرح تعابيره التاريخية أو اللغوية الغامضة، ورابع جُرِّد من مناسباته، خلافاً لقواعد التحقيق العلمي؛ ممّا جعل حصيلة البحث العلمية أو المعرفية ضئيلة للغاية أو في حكم اللاغية.

وإنّ محاولته (تمطيط) بحثه وإطالته، بإضافة فصل في ما يجب نقله من قسم الصحيح النسبة إلى الشاعر إلى قسم المتدافع لا يشكّل موضوعاً جديراً بالبحث؛ لأنّ نظرية الظرف الثالث أسقطت مثل هذه البحوث للأسباب التي ذكرناها تفصيلاً، وفوق كل ذي علم عليم.

تعقيب على بحث

"وجهة نظر جديدة في مخارج الأصوات الستّة"

للأستاذ الدكتور فوزي حسن الشايب

تعقيباً على بحث "وجهة نظر جديدة في مخارج الأصوات الستة" للأستاذ الدكتور غانم قدوري الحمد، المنشور في العدد السابع والسبعين من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، فإنّ الباحث في كلّ ما صدر عنه لم يخرج عن دائرة الترجيح، أي الظنّ والتخمين، بأنّ مخرج الهاء، والعين والحاء والغين والخاء من بين الوترين الصوتيين الكاذبين، أي العلويّين (ص٤٣، ص٤٦)، ولكنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً.

إنّ الأصوات الكلاميّة وقائع فيزيائيّة، وبدون الاستعانة بالآلات والتقنيات الحديثة؛ أي بدون وجود دليل علمي ملموس، وخاصّة في هذه المجموعة من الأصوات، لا يكون للكلام عليها أيّ قيمة علميّة. وكنّا نتوقّع من الباحث الكريم أن يُقدّم لنا دليلاً علميّاً مقنعاً كأنْ يقوم بتصوير الأوتار الصوتيّة الكاذبة في الوضع الحيادي؛ أي قبل عملية النطق بهذه الأصوات، ثمّ يقوم بتصويرها في أثناء نطقها، هكذا: اِهْ، اِعْ، اِحْ، اِغْ، اِخْ؛ ليثبت لنا بالدليل القاطع أنّ التعويق الوحيد لمجرى الهواء الّذي يحصل في أثناء نطقها هو بين هذين الوترين، وأنّه ليس لها – من ثمّ – أيّ مخرج آخر.

أمّا الصور الّتي استقاها الباحث من بعض المراجع (ص ٣٨، ٤٣، ٤٥) فلا تنقع غلّة، ولا تشفي غليلاً؛ لأنّها مجرّد ظلال سوداء، وأرقام، لا تُثبت شيئاً، ولا تنفي شيئاً ولا يتبيّن منها شيء، ولا توحي بشيء، بل لا تزيد الأمر إلاّ إبهاماً وغموضاً، فلا تقدّم لنا أوضاعاً للأوتار الصوتيّة الكاذبة مرتبطة بنطق أيّ من هذه الأصوات، فأيّ فائدة – إذنْ– تُرجى من ورائها؟ وفي حال غياب الدليل العلمي القاطع يظلّ كلّ ما اقترحه الباحث الكريم مرفوضاً؛ لأنّه يدور في فلك الأحكام الشخصيّة الانطباعيّة، لا الموضوعيّة.

والباحث كثيراً ما كان يناقض نفسه، ففي الوقت الّذي اعترض فيه على القول بوجود حائطين للحلق (ص٣٢) نجده يعود فيثبتهما له، ففي حديثه عن التجويف الحلقي **ينكر كونه تجويفاً، ويقول هو حجرة!** وأنّ هذه الحجرة يحدّها من الأسفل لسان المزمار، وأعلى الحنجرة، **ومن الخلف الجدار الخلفي للحلق** (ص٣٩). والسؤال الّذي يطرح نفسه، هو: أليس الجدار الخلفي يقتضي جداراً أماميّاً بداهة؟ وإلاّ فما الغرض من الإتيان بالنعت: "الخلفي"؟ ثمّ ما الفرق الكبير بين التجويف والحجرة؟ إنّ الجدار، والحائط، والجانب مترادفات يستخدمها علماء الأصوات للإشارة إلى جانبي الحلق، وكذلك استخدامهم للمترادفين: الحجرة والتجويف، وليس في هذا الاستخدام ما يسيء، ولا ما يعيب.

ومن مظاهر التناقض أيضاً، أنّ الباحث الكريم اتّهم الغربيّين بأنّهم لم يهتمّوا بالأصوات الحلقية **بسبب عدم وجودها في لغاتهم!** (ص١٢، ١٩). إنّ كلامه هذا يوحي بأنّه مطّلع على جهود الغربيّين في هذا المجال، ولكنّ واقع الحال يقول غير

ذلك؛ فقد اعترف الباحث نفسه أنّه لا يجيد اللّغة الإنكليزيّة (ص١٤ الفقرة ٢)، فكيف – إذنْ – يُصدر حكماً على قضيّة دون النظر فيها، ومعاينتها؟

ونقول للباحث الكريم: إنّ علم الأصوات "Phonetics" خلافاً للفونولوجيا "Phonology"، علم عامّ وحيادي، يدرس الأصوات بوصفها وقائع فيزيائيّة، بقطع النظر عن اللّغات الّتي تنتمي إليها، ولو نظر الباحث في كتاب واحد فقط للغربيّين، مثل كتاب هفنر "Heffner, General Phonetics"، على سبيل المثال، لوجد أنّه تناول هذه الأصوات كلّها بالدراسة، وباهتمام كبير أيضاً (ص١٥٠، ١٥٣). ثمّ ألا يدلّ على اهتمام الغربيّين بالأصوات العربيّة وضعهم لكتب مُخصّصة لدراسة الأصوات العربيّة؟ لقد وضع الإنكليزي جاردنر Gairdner عام ١٩٢٥م، كتاباً عن أصوات العربيّة، هو: "The phonetics of Arabic"، كما وضع الأبّ هنري فليش كتاباً أيضاً اسمه: "دراسات في علم الأصوات العربي"، وكذلك وضع جان كانتينو كتابه المعروف: "دروس في علم أصوات العربيّة"، وقد كان للمستشرقين إسهام واضح في دراسة الأصوات العربية، ضمن حظيرة اللغات الساميّة، فجهود بروكلمان، وأوليري"O' leary"، وموسكاتي وزملائه، وكثير غيرهم، لا تخفى على أحد.

إنّ الغربيّين لم يُهملوا الأصوات الحلقيّة، وأكبر دليل على ذلك هذه الكتب الّتي ألّفها الغربيّون لدراسة الأصوات العربيّة. ثُمّ ألم يعلم الباحث الكريم أنّ اختلاف علماء الأصوات العرب بشأن همزة القطع من حيث الجهر والهمس ما هو إلاّ صدى لاختلاف الغربيّين بشأنها؟ فمن اتّبع منهم المدرسة الإنكليزيّة بزعامة دانيال جونز، حكم عليها بأنّها لا هي مجهورة، ولا هي مهموسة (Jones, An outline of English phonetics, p.150، و The

pronunciation of English, p.10)، ومن أخذ برأي المدرسة الأمريكيّة بزعامة هفنر حكم عليها بأنّها مهموسة دائماً (Heffner, General phonetics, p. 125). وإلى جانب همزة القطع تحدّث هفنر عن الأصوات الحلقيّة؛ الحاء والعين (ص١٥٠)، والأصوات الطبقيّة؛ الغين والخاء (ص١٥٣)، وهذه كلّها ليست (فونيمات) في اللغة الإنكليزيّة. أمّا صوت الهاء فهو مشترك بين العربيّة وغيرها.

هذا، ولم ينسب أحد من العلماء الغربيّين، ولا العرب أيّ صوت إلى الأوتار الصوتيّة الكاذبة، على رغم استخدامهم للأجهزة والتقنيات الحديثة، ثُمّ ها هو عالم الأصوات سلمان العاني، العربيّ أصلاً، والغربيّ ثقافة الّذي درس الأصوات العربيّة، مستعيناً بالأجهزة، وأشعّة x في كتابه : "Arabic phonology" لم ينسب أيّ صوت إلى الأوتار الصوتيّة الكاذبة، ولم يثبت لهذه المجموعة من الأصوات أيّ مخرج آخر، غير مخارجها المتعارف عليها(يُنظر حديثه عنها في الصفحات: ٣٤،٦٠،٦٢).

إنّ الدراسة الصوتيّة الحديثة لم تثبت حتّى الآن أيّ دور للأوتار الصوتيّة الكاذبة في إنتاج الأصوات، فبصدد وظيفتها قال هفنر: "وظيفتها في أكثر الكلام ثانوية، وغير مهمةّ" (ص١٧)، وقال عنها پايك Pike: إنّ غاية ما يمكن أنْ تقوم به الأوتار الصوتيّة الكاذبة هو أنْ تعمل كعامل مساعد، أو مصاحب لحركة حلقيّة من نوع ما (Phonetics, p. 121)، وأمّا دانيال جونز فذهب إلى أنّ عملها يقتصر على تعديل نوع الوشوشة، بجعلها عالية نسبيّاً (The pronunciation of English,,p. 9)، ومن الوسط العربي نفى سعد مصلوح

أيّ دور لهذه الأوتار الكاذبة في أثناء الكلام العادي (دراسة السمع والكلام ص١١٨).

وعليه، فإنّ اقتراح الباحث الكريم رفع صفة الكذب عنها لا معنى له؛ لأنّ العبرة بالوظيفة، فطالما أنّه لم يثبت لها حتّى الآن أيّ وظيفة حقيقيّة في إنتاج الأصوات فستظلّ كاذبة. كما أنّه لا معنى أيضاً لاقتراحه بتسميتهما الوترين العلويّين (ص٣٧)؛ لأنّهما علويّان حقيقة.

شعر القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني
صنعة د. عبدالرازق حويزي
"استدراك ونقد"

هلال ناجي

وقفتُ بأخرة على هذه النشرة المطبوعة بمصر سنة ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م. وهي نشرة سبقتها نشرة د. سامي علي جبّار في مجلة "المورد" العراقية، التي احتجنها العدد الثالث من المجلد ٢٨- الصادر ببغداد عام ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م، وواكَبَتْها نشرةُ الأستاذ "سميح إبراهيم صالح" وقد صدرت عن دار البشائر بدمشق عام ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م. فَنَشْرَتا (حويزي) و(سميح) متعاصرتان صدرتا في عام واحد، واحدة بالشام وأخرى بمصر.

وهذا التنافس على جمع ونشر شعر شاعر واحد يثير الأسى، فالمستشرقون استطاعوا وقف هذا التنافس الذي تضيع فيه الجهود وتتبدّد الطاقات بإيداع أخبارهم وأخبار مشروعاتهم في مجلة استشراقية معروفة منعاً للتكرار، أمّا نحن أهل هذا التراث وذوي رحمه، فعاجزون عن وقف هذا التنافس الذي لا مبرر له، واللجوء إلى التنسيق بين المحققين، ووقف الازدواجيات، وتوفير الطّاقات والأموال والإمكانات.

وقد رأيت أن أتناول نشرة الدكتور عبدالرازق حويزي بالنقد والاستدراك والتقويم في ثلاث فِقَر:

الأولى: استدراك أشعار للجرجاني فاتت جامع شعره.
والثانية: أخطاء في المنهج.

والثالثة: أخطاء في القراءة وتصويب التحريفات والتصحيفات.

فأما المستدرك على الديوان فأجمله في الآتي:

(١)

وأحسن ما قيل في الحثّ على الاغتراب قولُ القاضي أبي الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني:

١- إذا ما ضِقْتَ في أرضٍ فَدَعْها وحُثَّ اليعملات على وَجاها
٢- ولا يَغْررك حَظُّ أخيك منها وقد خابت يمينُك من جداها
٣- ونَفْسك فُزْ بها إنْ خِفْتَ ضيماً وخلِّ الدارَ تُحزن من بكاها
٤- فإنّك واجدٌ أرضاً بأرْضٍ ولست بواجدٍ [نفساً] سواها

التخريج: مخطوطة "زاد سفر الملوك" للثعالبي – مصورة في خزانة هلال ناجي– الورقة ٥. وما بين عضادتين في البيت الرابع زيادة أضفناها ليستقيم الكلام.

(٢)

وقوله في حَدَثٍ أسرعَ فيه المشيب:

١- قلتُ لخلٍّ ارتضاه وُدِّي
٢- لحُسْنِ عهدٍ وجميل عقدِ
٣- أيا أبا القاسم ربَّ المَجْدِ
٤- شِبْتَ وأنتَ في عدادِ المُرْدِ
٥- جاوز فيه سَيْفُكَ التَعَدِّي
٦- وافاكَ ظُلماً قبل حين الوَعْدِ
٧- فقال لي هَزْلاً مقالَ الجِدِّ

٨- أعـــــدى عـــــذاريَّ بيـــــاضُ خَـــــدِّي
٩- فقلـــــت: لا، بـــــل كثـــــرةُ المســـــتعدي
١٠- ولـــــم يَجِـــــدْ لعاشـــــقٍ مـــــن بُـــــدِّ
١١- ولـــــم يقـــــف فـــــي التيـــــه عنـــــد الحَـــــدِّ
١٢- وقـــــال: أصـــــبحتُ نســـــيج وحـــــدي
١٣- الظـــــرفُ ملكـــــي والجمـــــال عبـــــدي
١٤- في مُقلتي صمصامة ومعد!! (كذا في الأصل المخطوط)
١٥- ومبســـــمي لآلـــــيءٌ فـــــي العقـــــدِ
١٦- والبـــــدر فـــــي خـــــدّي دقيـــــق الـــــوردِ
١٧- قـــــد فضـــــحَ الغُصـــــنَ قـــــوامُ قـــــدِّي
١٨- لِيَـــــرْضَ منـــــي عاشـــــقي بالصَّـــــدِّ
١٩- فلســـــتُ أُصـــــغي لاشـــــتكاءِ الوَجْـــــدِ
٢٠- فبـــــتُّ صـــــرف الـــــزمن المُجِـــــدِّ
٢١- بـــــينَ مخـــــطِّ العـــــارضِ الممتَـــــدِّ
٢٢- جُنـــــداً مـــــن الشـــــيب وأيّ جُنْـــــدِ
٢٣- ينصـــــرُ مـــــن يشـــــكو ومـــــن يســـــتعدي
٢٤- مـــــن ذوَّق العُشّـــــاقَ طَعْـــــمَ الشَّـــــهْدِ
٢٥- أذيـــــقَ ثُكْـــــلَ الشَـــــعَرِ المُسْـــــوَدِّ
٢٦- ولـــــم يُمَتَّـــــع بالشـــــباب الرَغْـــــدِ

التخريج: مخطوطة "أحاسن المحاسن" للثعالبي – مصورة في خزانة هلال ناجي الورقة ١١٣.

(٣)

المستدرك على ميمية الجرجاني

اشتهرت ميمية الجرجاني عبر العصور، وهي من عيون شعرهِ تعبّر عن اعتزاز الشاعر العالم بعلمه وأدبه وشخصيته، لكنها في المصادر القديمة كلها لم ترد كاملة.

وصانع ديوانه د. حويزي، أورد منها ٢١ بيتاً. ففاته من القصيدة أكثرها. وكان الباحث الجليل د. جليل العطية قد ظفر بها كاملة في مكتبته بالأستانة فصوّرها ورفد بها المحققَ السيد سميح إبراهيم صالح، بعد صدور الديوان. وقد فهد أبوه الأستاذ المحقق الثبت إبراهيم صالح إلى نشرها في الجزء الرابع من المجلد التاسع والسبعين من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق الصادر بدمشق في شعبان ١٤٢٥هـ الموافق أكتوبر ٢٠٠٤م. وها أنا أثبتها تامة وعِدّتُها ٥٥ بيتاً.

نقلاً عن المصدر المذكور استكمالاً لنشرة د. حويزي، وقد صدَّرنا الأبيات الواردة في نشرة (حويزي) بالأنجم.

قال القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز [الجرجاني].

١- بأيامنا بين الكثيبين فالحمى ... وطيبِ لياليناالحميدة فيهما

٢- ووصلٍ وصلنا بين أعطافه المُنى ... بردِّ زمانٍ كان للّهوِ توأما

٣- صحبنا به شَرْخَ الشباب فدلَّنا ... على خُلَسٍ أفضى إليهنَّ نُوَّما

٤- فلم نَرْضَ في أخلاقنا النصح مذهباً ... ولا اللوم في أسماعنا مُتَلَوَّما

٥- إذا شاءَ غادٍ قاد لحظاً مُوَزّعاً ... على غَيّه أو شافَ قَلْباً مُقسَّما

٦- أعِنّي على العُذّال أو خَلِّ بيننا ... تُريك دموعي أفصحَ القول أبكما

٧- وطيفٍ تخطَّت أعيُن الناس والكرى ... إلى ناظرٍ يَلْقى التباريحَ منهما

٨- تنسَّـــمَ ريّـــاهُ وبَشَّـــره بـــه تنـاقُصُ ضـوء البـدر فـي جهـة الحمـى
٩- وعَـزَّ علـى العينـين لـو لـم تُرَغَّبـا مــن الطَّيــف فــي إلمامــةٍ أن تُهَوِّمــا
١٠- ولمّـا غـدا والبَـيْنُ يَقْسِـمُ لَحْظَـهُ علـى مُكْمَـدٍ أغْضـى ورأسٍ تبسَّـما
١١- فمــنْ قائــلٍ: لا آمــنَ اللهُ حاسـداً وقائلــةٍ: لا رَوَّع البَــيْنُ مُغْرَمــا
١٢- بَـدَتْ صـفرةٌ فـي وجنتيـه فلـم تَـزَلْ مدامِعُــهُ حتــى تَشَــرَّبتا دَمــا
١٣- سَقى البرقُ أكنافَ الحمى كُلَّ رائحٍ إذا قَلِقَــت فيــه الجنــوبُ تَرَنَّمــا
١٤- إذا أسْـبَلَتْ عينـاه لـم تبـقَ رَبْـوَةٌ مــن الأرضِ إلاّ وهــيَ فــاغرةٌ فمــا
١٥- تــرى الأرض [ ] متطــايراً فـإن أنْجَمَـتْ صـارتْ سـماءً وأنجُمـا
١٦- تُسـالِبُها أنفاسَـها نَفَـسُ الصَّـبا وتُهـدي إليهـا الشـمسُ شـيئاً مُسَـهَّما
١٧- كـأنَّ أبـا عمـروٍ تخلَّـلَ رَوْضَـها ففــاحَ بــهِ عَرْفــاً وأشــرق مَبْسَــما
١٨- إذا زادتِ الأيــامُ فينــا تَحَمُّــلاً وحَيْفــاً علــى الأحــرار زادَ تكرُّمــا
١٩- إذا هـابَ بعـضُ القـوم ظُلْمـاً أظَلَّـهُ تَجَلَّــتْ مســاعي أوَّليــهِ فأقــدَما
٢٠- سَــقى اللهُ دهــراً ســاقني لجــوارهِ وإنْ كــان مَشْــغوفاً بِظُلمــي مُتَيَّمــا
٢١- سأشـكرُ مـا تُوليـه قـولاً ونِيَّـةً فـإنْ قَصَّـر نـاب اعتـذاريَ عنهمـا
٢٢- فَسَـحْتُ رجـائي بعـد ضـيقِ مجالـه وأوضـحتَ لـي قصـدي وقـد كـان أظْلَمـا
٢٣- ومـا زِلْـتُ منحـازاً بِعِرضـيَ جانبـاً مــن الــذَمِّ أعْتَــدُّ الصــيانة مَغْنَمــا
٢٤- إذا قيـل: هذا مَشْرَبٌ، قلـت: قد أرى ولكــنَّ نَفْــسَ الحُــرِّ تحتمــلُ الظَّمــا
٢٥- أُنَهْنِهُهـا عـن بعـضِ مـا لا يشـينُها مخافــةَ أقــوالِ العــدا: فــيمَ أو لمــا
٢٦- فأصْـبِحُ مـن عَتْـبِ اللئـيم مُسَـلَّما وقـد رُحْـتُ مـن نَفْـسِ الكـريم مُعَظَّمـا
٢٧-* فأُقْسِـمُ مـا غُـرَّ امـرؤ حُسِّـنَتْ لـه مُســامرة الأطمــاعِ إذ بــاتَ مُعْــدِما
٢٨-* يقولـون لـي: فيـك انقبـاضٌ، وإنّمـا رأَوا رَجُـلاً عـن موقـفِ الـذُلِّ مُحْجِمـا
٢٩-* أرى النـاسَ من داناهُمُ هانَ عندهم ومَــنْ أكرمَتْــهُ عِــزَّةُ الــنفسِ أُكْرِمــا
٣٠-* ولـم أَقْضِ حَقَّ العلمِ إن كـان كُلَّمـا بَــدا طَمَــعٌ صــيَّرْتُهُ لــيَ سُــلَّما
٣١-* ولـم ابتذلْ فـي خدمـةِ العلـم مُهْجَتـي لأخْــدِمَ مــن لاقيــتُ، لكــنْ لأُخْــدَما
٣٢-* أأشـقى بــه غَرْسـاً وأجْنِيــهِ ذِلَّــةً إذنْ فاتِّبــاعُ الجهــلِ قــد كــان أسـلما

٣٣-* ولو أنّ أهلَ العلم صانوهُ صانَهُمْ ... ولو عُظِّموهُ في النفوس لَعُظِّما

٣٤-* ولكنْ أذالوهُ فهانَ ودَنَّسوا ... مُحَيّاهُ بالأطماع حتى تَجَهَّما

٣٥-* فإن قُلتَ: جَدُّ العلم كابٍ، فإنَّما ... كَبا حينَ لم يُحْرَسْ حِماهُ وأُسْلِما

٣٦-* وإنّي إذا ما فاتني الأمرُ لم أَبِتْ ... أُقَلِّبُ كَفِّي إثْرَهُ مُتَذَمِّما

٣٧-* ولكنَّهُ إن جاءَ عفواً قَبِلْتُهُ ... وإنْ مالَ لم أُتْبِعْهُ هلاّ ولَيْتَما

٣٨-* وأَقْبِضُ خَطْوي عن حُظوظٍ كثيرةٍ ... إذا لم أَنَلْها وافرَ العِرْضِ مُكْرَما

٣٩-* وأكْرِمُ نفسي أن أُضاحِكَ عابساً ... وأن أَتَلَقَّى بالمديح مُذَمَّما

٤٠-* وكم طالبٍ رِقّي بِنعماهُ لم يَصِلْ ... إليهِ وإن كانَ الرئيس المُعَظَّما

٤١-* وما كلُّ بَرْقٍ لاحَ لي يستفزُّني ... وما كُلُّ ما في الأرض أرضاهُ مُنْعِما

٤٢-* ولكنْ إذا ما اضطرّني الأمرُ لم أَزَلْ ... أُقَلِّبُ فكري مُنْجِداً ثم مُتْهِما

٤٣-* إلى أن أرى من لا أَغصُّ بذكرِهِ ... إذا قلتُ: قد أسدى إليَّ وأَنْعَما

٤٤-* وإنّي لراضٍ عن فتىً مُتَعفِّفٍ ... يروحُ ويغدو ليس يملكُ دِرْهَما

٤٥-* يبيتُ يُراعي النجمَ من سوءِ حالِه ... ويُصْبِحُ طَلْقاً ضاحكاً مُتَبَسِّما

٤٦-* ولا يسألُ المُثْرينَ ما بأكُفِّهِمْ ... ولو مات جُوعاً غُصَّةً وتكرُّما

٤٧-* فكَمْ نِعْمَةٍ كانت على الحُرِّ نِقْمَةً ... وكم مَغْنَمٍ يَعْتَدُّهُ الحرُّ مغنما

٤٨-* وماذا عسى الدنيا وإنْ جلّ قدرها ... ينالُ بها من صَيَّرَ الصبر مِعْصَما

٤٩- على أنّني لو لم أُعِدَّ لحربها ... سِواكَ لقد كنتُ المصونَ المُحَرَّما

٥٠- فكيف وعندي كل ما يمنَعُ الفتى ... بهِ عِرْضَهُ من أن يُضامَ ويُهْضَما

٥١- وليسَ بِبِدْعٍ من عُلاكَ عنايةٌ ... تُسَهِّلُ لي ما أَعْنَتَ المُتَجَهِّما

٥٢- يُقَرِّبُ مني ما تباعَدَ وانتأى ... وَيَخْفِضُ نحوي ما تصاعَدَ واستمى

٥٣- ومن لَقِيَ الأملاكَ منكَ لمَوْعِدٍ ... تَجَنَّى على آكامِهِ وتحكَّما

٥٤- إذا كان بعضُ المدح لفظاً مُجَرَّداً ... ضممتُ إلى لفظي ضميراً مُسَلَّما

٥٥- وما ساعد القلبُ الودودُ لسانَهُ ... على مِدْحَةٍ إلاّ أُطيعَ وحُكِّما

(٤)

سقط من القصيدة المرقمة (١٣) البيتان التاليان وموضعهما السادس والسابع فيها:

وقد زعموا أنْ ليس للشمس وَقْفَةٌ ولا لَحِقَ الأفلاك قطُّ لغوبُ
فما بالُها دَلَّتْ بما فعلتْ بنا على فتراتٍ بينهنّ خطوبُ

التخريج: التذكرة السعدية ص٤٦٦ ووهم في نسبتها.

يُستدرك على البيت رقم ٩٤ ص١٤٣ قوله:

وعلى الرُغم ما أُحَيِّيهِ لكن ظهرتْ فيَّ ذِلَّةُ المظلوم

التخريج: من غَاب عنه المطرب ص٢٣٤.

وقال في وصف الشِّعر الحسن:

وجوّابةِ الأُفقِ موقوفةٍ تسيرُ ولم تبرحِ الحَضْرَه

التخريج: أسرار البلاغة ص١٣٣.

أخطاء في المنهج: كثيرة هي الأخطاء المنهجية التي شاعت في ديوان شعر الجرجاني، فمنها:

أولاً: دَمْجُ المقطّعات المتَّفقة وزناً وقافية ورويّاً واعتبارها أشلاء متناثرة من قصيدة واحدة دون سند أو نصّ في مصدر قديم

وهذا الدمج رفضه جلّة المحققين العرب المعاصرين، وعدّوه تجاوزاً خطيراً على تراث الشاعر. فمن أين يعلم المحقق أن هذه النُّتف والمقطعات المتناثرة في

مصادر عدّة هي من قصيدة واحدة؟ ومن أين يعلم ترتيب الأبيات فيها ومواقعها منها؟ هذا الغلط المنهجي الذي شاع في الديوان الذي صنعه د. عبدالرازق حويزي يفقده الصفة العلمية، وهو أمر طُرح على لجنة وضع قواعد تحقيق المخطوطات العربية في شهر أيار عام ١٩٨٢ المنعقدة في بغداد وكان كاتب هذا البحث أحد أربعة مثّلوا المحققين في العراق – شاركهم في اللجنة عدد من كبار المحققين في الدول العربية بإشراف ممثّل عن معهد المخطوطات العربية في القاهرة – فرأى المجتمعون أنه أمر لا تجيزه قواعد التحقيق العلمي لأسباب عدة.

أمثلة على هذا الغلط المنهجي:

١- القصيدة المرقمة (١٥) ووقعت في ثمانية أبيات أوردها الثعالبي في يتيمة الدّهر ١٤/٤، وأضاف المحقق (حويزي) إليها ثلاثة أبيات أُخر وجدها في التذكرة السعدية ص ٤٣٩، دون وجود نص قديم يساعد على ذلك، وعلّل دمجه هذا باتّحاد الوزن والقافية والموضوع (كذا).

قلت: رغم أن هذا الدمج تعسفي ومزاجي ترفضه قواعد التحقيق العلمي، فإنّ إنعام النظر في النصّين ينتهي بنا إلى الآتي:

نصّ اليتيمة يتحدث فيه الشاعر عن صديق، هذا الصديق تجنبه وأبعده والشاعر يتبعه لكنه ظلّ يظلم الشاعر ويجفوه. أما نصّ التذكرة السعدية فهو يتحدث عن أناس (عدة أنفار) فارقوه وكان يتمنّى لو جاء بفؤاده طوعاً لهذا الفراق حتى لا يُرغم على ذلك. فالحديث في النص الأول عن فرد واحد، والحديث في النص الثاني عن جملة أفراد تحدّث عنهم بصيغة الجمع، فلا صلة بين النصّين. ثم إن صدر البيت العاشر وهو:

إذاً لجُدْت به طوعاً بينهم، مُخْتَلٌّ عروضياً، وصوابه: لبينهم.

٢- المقطعة رقم (٨) جمعها المحقق من ثلاثة مصادر. البيتان الأول والثاني من معجم الأدباء ١٨/١٤ والثالث من التذكرة السعدية ٥٥٣ والرابع من الدّر الفريد ٣٩/٢. ولا اتحاد في الموضوع بين هذه الأبيات الأربعة، لكن المحقق صرّح بأنّه ضَمَّها إلى بعضها لاتحاد الوزن والقافية بينها!

٣- المقطعة رقم (٧٥) الأبيات من (١-٥) نقلها عن اليتيمة ١٧/٤-١٨، ثم أضاف إليها سادساً من محاضرات الأدباء ٥٣٤/١ وقال: "غلب على ظنّي أنه تابع لهذه المقطوعة، ومن ثم أضفته إليها"!

قلت: والظنّ لا يصلح دليلاً في القضايا العلمية.

٤- المقطعة رقم (٨٣) الأبيات من (١-٣) نقلها من اليتيمة ١٧/٢، ثم أقحم عليها البيتين من التذكرة السعدية ص٣٥٧. وقال: رَجَّحْتُ أنهما تابعان لهذه المقطوعة. قلت: هكذا وبكلّ سهولة وبدون دليل!

٥- المقطعة رقم (٨٨) ص ١٣٦ من الديوان. أثبتها المحقق في ثمانية أبيات، فقد نقل الأبيات (٣-٨) من المنتحل ٣٥٥/١. ثم أضاف إليها البيتين ١-٢ من المنتحل. يقول: "قمت بوضع البيتين١، ٢ في بداية القصيدة (والصّواب: المقطعة) اعتماداً على تسلسل المعنى وترابطه واتحاد الوزن وحركة حرف الروي".

قلت: لا ترابط بينهما؛ الأولان ثناءٌ على إنسان امتلأ كلامه حكمة. والبقية ثناءٌ على امرئٍ لجوده، وشتّان ما هما.

٦- القصيدة رقم (٩٠). جمعها من موضعين في اليتيمة. الأبيات ١-٥ من يتيمة الدهر ١٩/٤ والأبيات ٦-١١ من اليتيمة ٢١/٤ أيضاً، وقال: أضفت المقطوعتين إلى بعضهما لاتحاد الوزن والقافية وحركة حرف الروي، وهو سبب مرفوض علمياً كما أسلفنا.

٧- المقطعة رقم (٩٦) جمعها المحقق من موضعين في التذكرة السعدية، وصنع منهما مقطعة واحدة دون سند من نص قديم، وصرّح بذلك في هامش الصفحة ١٤٤,

٨- المقطعة رقم (٩٧) جمعها من مصدرين. الأبيات الأربعة الأُول من منتحل الميكالي ٣٥٥/١، ثم أضاف إليها بيتاً من التذكرة السعدية ص٥٥٣، وقال: وقد أضفته إلى الأبيات السابقة؛ نظراً لاتحاده معها في الوزن والقافية!

٩- القصيدة رقم (١٠١) ص١٤٦-١٤٧، قال الشاعر يذكر بغداد ويتشوّقها، وعدَّة القصيدة عشرة أبيات منقولة عن يتيمة الدهر ١٢/٤-١٣. لكن المحقق أضاف إليها بيتاً في آخرها، وقال: "وقد أضفته إلى هذه القصيدة بحكم اتحاده معها في الوزن والقافية والغرض الشعري". وهذا البيت الذي أضافه نقله عن مخطوط "نزهة الأبصار في محاسن الأشعار" وفيه عيبان: الأول: غموض معناه، والثاني: اختلاله عروضياً. ونص البيت:

وكـأَيّن مـن مَعْشَـرٍ فـي أنـا س أخوهم فوقهم (كذا) وهم كرامُ

والعيب الثالث: عدم ارتباطه بالقصيدة من حيث المعنى.

١٠- القصيدة رقم (١٠٢) ص١٤٨ من الديوان. استقاها المحقق من مصدرين. فالأبيات (١-٣) من يتيمة الدهر ٢٠/٤ والأبيات (٤-٨) من التذكرة السعدية ص٣٥٧. قال المحقق: "وقد بدا لي أن الأبيات كلّها من قصيدة واحدة انفرط عقدها، ومن ثم حاولت تنضيده مرة ثانية، فجمعت الأبيات إلى بعضها، وكوّنت منها قصيدة". وقد أغفل المحقق بهذا القواعد العلمية المستقرة في ميدان تحقيق الشعر.

١١- المقطعة رقم (٥٨) ص١١٥ من الديوان.

ضمَّ المحقق بيتين من محاضرات الأدباء ٥٦٩/٤ إلى بيتين من المنتحل، وجعلهما مقطعة واحدة، وقال: "وقد ترجّح لديَّ أن الأبيات كلها من قصيدة واحدة انفرط عقدها. ومن ثم حاولتُ أن أُعيد إليها بعض الشكل الذي كانت عليه"

١٢- القصيدة رقم (٥٥) ص١١٢-١١٣ من الديوان. الأبيات (١-١١) استقاها المحقق من كتاب المنتحل للميكالي ٤٨٧/١. ثم أضاف إليها بيتاً ظفر به في محاضرات الأدباء ٧٠/٢، ثم قال: "غلب على ظنّي أن البيت من القصيدة التي بين أيدينا، ومن ثم أضفته إليها لاتحاده مع أبياتها في الوزن والقافية والرويّ"!

١٣- القصيدة رقم (٥٣) ص١١١-١١٢ من الديوان. الأبيات ١-١٣ منقولة عن التذكرة السعدية ٤٧٩-٤٨٠، وقد أضاف المحقق ثلاثة أبيات أُخر إليها، وقال: "وقد أضفت هذه الأبيات إلى الأبيات السابقة على الرغم من أنّها لم تروَ معها لظنّي أنها تابعة لها، إذ يُلاحظ اتحاد المعنى في الأبيات جميعها بالإضافة إلى الاتفاق في الوزن والقافية".

قلت: ومن يدقّق النظر في الأبيات (١-١٣) يجد أنها اعتذارية كتبها الشاعر لأمير أو سلطان أو كبير من كبار عصره.

أما الأبيات الثلاثة المضافة فهي دعائية تتحدث عن فتوحاته، وليس بين القصيدة والمقطعة من جامع غير اتحاد الوزن والقافية، وهو لا يُغني فتيلاً في مثل هذه الأحوال.

١٤- القصيدة رقم (٤٢) (ص٩٩-١٠٠) من الديوان. منها: (١-١٧) عن المنتحل ١١٥/١-١١٦.

وقد أضاف المحقق إليها بيتين من التذكرة السعدية ص٤٧٩، كما أضاف إليها شطراً من التمثيل والمحاضرة ص١٢٣؛ لِظَنِّه أنّها من قصيدة واحدة!

ثانياً: الإسهاب المفرط في تعريف الأعلام المشهورين، وهو منهج رفضه كُلُّ مُقَعِّدي قواعد تحقيق النصوص العربية القديمة، فَممّن رفض هذا المنهج وأكّد على ضرورة التعريف بالمغمورين فقط: السادة عبدالسلام محمد هارون[١] وصلاح الدين المنجّد[٢] وعبدالمجيد دياب[٣] وسامي مكي العاني[٤] وحسام النعيمي[٥] ويحيى الجبوري[٦] ورشيد العبيدي[٧] والصادق عبدالرحمن الغرياني[٨]. وهو منهج أجمله الراجز بقوله:

تجنّب التعريف بالمشهورِ واعمد إلى التعريف بالمغمورِ

ولكي تتضح صورة هذا الإسهاب المفرط المجانف لقواعد تحقيق النصوص نورد الأمثلة التالية:

١- في ثلاثة أبيات من شعر الآلهة (ص١٢٠-١٢١) ورد اسم (بختيار) وهو اسم لمجهول، فشرحه المحقق بالآتي "لَعَلَّهُ أبو منصور بختيار، عز الدولة، وهو ابن معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه بن فنّا خسرو بن تمام بن بوهي

(١) يُنظر كتاب تحقيق النصوص ونشرها: عبدالسلام هارون ص٧٦.
(٢) قواعد تحقيق المخطوطات: صلاح الدين المنجد ص١٧.
(٣) تحقيق التراث العربي: عبدالمجيد دياب ص٢٧٤.
(٤) منهج تحقيق النصوص ونشرها: سامي مكي العاني ونوري القيسي ص٨٤.
(٥) تحقيق النصوص بين المنهج والاجتهاد: حسام النعيمي ص٧٠.
(٦) منهج البحث وتحقيق النصوص: يحيى الجبوري ص١٥١.
(٧) التطبيق العملي لمنهج البحث الأدبي وتحقيق النص: رشيد العبيدي ص١٤٠.
(٨) تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث: الصادق الغرياني ص١٠٧.

الديلمي (٣٠٣-٣٥٦هـ)... ولي عز الدولة مملكة أبيه بعد موته، وكان ملكاً شديد القوة... ذا سعة في الأخراجات (كذا) والكلف والقيام بالوظائف، وكان بينه وبين ابن عمه عضد الدولة منافسات في الممالك أدّت إلى التنازع والمحاربة، وانتهى الأمر بقتل عز الدولة عام (٣٦٧هـ)، وكان عمره حينئذٍ ٣٦ سنة، وحُمل رأسه في طست، ووُضع بين يدي عضد الدولة، فلمّا رآه وضع منديله على عينيه وبكى، وكانت مدة إمارته إحدى عشرة سنة وشهوراً.

انظر وفيات الأعيان ١/١٧٤-١٧٦، وتاريخ ابن خلدون ٦/٨٧٩-٨٩٧، والمنتظم ٧/٨١، ويتيمة الدهر ٢/٢١٩، ٢٤٧، ٢٤٨".

فهذا أنموذج لكلام في التعريف بعز الدولة الذي لا صلة له بالنص من قريب أو بعيد، ولا توجد أية إشارة في النصّ توحي بهذه الصلة.

٢- وفي الصفحة ٧٩ من الديوان، ورد البيت التالي:

لـــو نُفِضَـــتْ أشـــعاره نَفْضَـــةً لانتشـــرتْ تطلـــبُ أصـــحابها

وهو بيت قاله أبو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني في هجو شعر الخوارزمي.

وأبو بكر الخوارزمي غني عن التعريف، وربما يُكتفى بسطرين أو ثلاثة للتعريف به؛ لأنّه من أعلام الشعر والنثر في القرن الرابع الهجري، وقد صُنِّفت عنه مصنّفات. لكنّ محقق الديوان يسوّد صفحة ونصف الصفحة في التعريف بالخوارزمي، هذا نصّها: "محمد بن العباس أبو بكر (٣٢٣-٣٨٣ أو ٣٩٣هـ)، ويُقال له الطبري؛ لأنه ابن أخت محمد بن جرير الطبري المفسّر الكبير، كما يُقال له: الطبرخرزي، الطبرخزمي؛ لأن أمّه من طبرستان، وأباه من خوارزم. وكان من الكتّاب البارعين والشعراء المجيدين والأدباء النابهين ومن أوحد (كذا) عصره في

حفظ اللغة والشعر والأنساب، شهد له بذلك الصاحب بن عباد، نشأ في خوارزم ورحل في صدر شبابه إلى كثير من البلدان مثل: سجستان والعراق ودمشق وحلب ونيسابور، وفيها اتّصل بالصاحب بن عباد، وكانت بينه وبين بديع الزمان الهمذاني محاورات شعرية، تجدها مبثوثة في كتب الأدب ومصادر التاريخ، وتوفي محمد بن العباس في نيسابور بعد أن ترك بعض المؤلفات القيّمة أذكر منها:

(١) ديوان رسائل (مطبوع)، وقد وقفتُ فيه على رسالة كتبها للقاضي الجرجاني وهي في ص ١٩٩-٢٠٠.

(٢) ديوان شعر، وقد وقفتُ عليه مجموعاً ومحقّقاً ومطبوعاً. ثم صَمَتَ وعمّى الأمر، وكأنه سرٌّ من أسرار القنبلة الذرية. قلت طُبع في طهران عام ١٩٩٧ بتحقيق د. حامد صدقي، وهو رسالة جامعية.

(٣) رسم المعمور من البلاد.

وقد أُقيمت حول الخوارزمي وإبداعه مؤلفات جادّة، ودراسات واسعة، أذكر منها على سبيل المثال والاستدلال لا على سبيل الحصر:

(١) أبو بكر الخوارزمي: حياته وأدبه – لمحمود صالح – رسالة ماجستير – كلية الآداب– جامعة بغداد– ١٩٧٦ – تقع في ٤٥٨ صفحة.

(٢) النثر الفني بين أبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني: دراسة وموازنة د. عبد الكريم أحمد فراج– أطروحة دكتوراه– جامعة الأزهر – كلية اللغة العربية – فرع أسيوط،١٩٩٠م.

(٣) أبو بكر الخوارزمي: حياته وأدبه – د. أحمد أمين مصطفى– سلسلة أعلام العرب– الهيئة المصرية العامة للكتاب– ١٩٨٤م.

وانظر في أبي بكر الخوارزمي يتيمة الدهر ٤/١٩٤- ٢٤٥، والوافي بالوفيات ٣/١٩١-١٩٢، وبغية الوعاة ١/١٢٥ والأعلام ٦/١٨٣، ومعجم المؤلفين ١٠/١١٩-١٢٠، والبلاغ الأسبوعية – السنة ٤- العدد ١٦٢ ص ١٦-١٧.

الفن ومذاهبه في النثر العربي- شوقي ضيف ٢٣٠، وتاريخ الأدب العربي- شوقي ضيف (عصر الدول والإمارات- الجزيرة – العراق- إيران) ص٥٩٨-٦٠٠، والمكتبة الشعرية في العصر العباسي، مجاهد مصطفى بهجت، ص١٩٤".

٣- في الصفحة ٦٧ من الديوان وردت أبيات في مدح الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير. فكرّس المحقق صفحة كاملة (ص٦٨) للتعريف بالأمير المذكور، فقال: "قابوس بن وشمكير ت٤٠٣هـ بن زياد بن وردان شاه الجيلي أبو الحسن شمس المعالي: أمير جرجان وبلاد الجبل وطبرستان. وَلِيَها سنة ٣٦٦ هـ، وأخرجه منها عضد الدولة البويهي سنة ٣٧١ هـ. ثم استعادها قابوس سنة ٣٨٨ هـ، واشتدّ في معاقبة من خذلوه في حربه مع عضد الدولة، فنفر منه شعبه. الأعلام ٥/١٧٠، وحسّنوا لابنه منوجهر ومهّدوا لولايته، وقالوا له: إن لم تقتل أباك قتلناه ثم قتلناك من بعده، ففزع على أبيه، فقبض عليه وحبسه في القلعة ومنع عنه الدثار والملابس والأغطية في الشتاء البارد القارس حتى هلك عام ٤٠٣هـ. أمّا منوجهر فقد قُتل هو الآخر عام ٤٢٣ هـ، قتله جماعة ممن أشاروا عليه بقتل أبيه، وندم حين لا ينفع الندم وخلفه ابنه أنو شروان، وتوفي أنو شروان عام ٤٣٥ هـ، ثم تولّى من بعده ابنه حسان. انظر في ذلك معجم الأدباء ١٦/٢١٩- ٢٢١، والنجوم الزاهرة ٤/٢٣٣. وكان قابوس كاتباً مترسّلاً وشاعراً مجيداً وأديباً فاضلاً، ترك بعض المؤلفات القيّمة منها كتاب "كمال البلاغة" وهو مطبوع. ولقابوس

أشعار بديعة، كتب بعضها باللغة العربية وبعضها باللغة الفارسية. ذكر ياقوت الحموي في معجمه طائفة ممتازة من أشعاره. وفي يتيمة الدهر ووفيات الأعيان أشعار أخرى له. وقال عنه الثعالبي: جمع الله له إلى عزة الملك بسطة العلم وإلى فصل الحكمة نفاذ الحكم، فأوصافه لا تُدرك بالعبارات ولا تدخل تحت العرف والعادات. يتيمة الدهر ٥٩/٤. وقد ألّف قابوس كتاباً آخر غير كتابه كمال البلاغة، هذا الكتاب صنفه بالفارسية اسمه (أندرورُنامه) وهو في الحكم والوصايا والنصائح لولده). انظر في ذلك: (هدية العارفين ٨٢٥/١ ومعجم الأدباء ٢١٩/١٦ ووفيات الأعيان ٧٩/٤-٨٢ وتاريخ جرجان ١٤٨، ٢٣٨، ٢٧٧، ٣٣٣، ٤٥٢، ٥٤. ومعجم المؤلفين ٩١/٩ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٤ والتمثيل والمحاضرة ٤٢٣، ١٣٦، ١٣٩، ٢٢٧ والتذكرة السعدية ٤٥١، ٥٢٩ وتزيين الأسواق ١٦٥/٢".

فهل مثل هذا التعريف يأتلف مع قواعد التحقيق العلمي؟! وقد كتب عن الصاحب بن عباد صفحة ونصف الصفحة في التعريف به (ص٧٠-٧١) أيضاً!!

ثالثاً: الإسهاب في شرح وإيضاح كلمات لا تحتاج إلى شرح

ففي ص ٩٢ قال في شرح كلمة اللِّوى، وهو اسم أرض. قال: "اللِّوى: اسم لأماكن متعددة، منها اللوى، وهو وادٍ من أودية بني سليم . ولوى طفيل، وهو وادٍ بين اليمن ومكة، ولوى النَّجيرة، ولوى الأرض، ولوى المنجنون، ولوى عيوب. انظر معجم البلدان٢٣/٥-٢٤. ولم يحدد ياقوت المواضع الأربعة الأخيرة.

وورد لفظ اللوى في ديوان زهير بن أبي سلمى ثلاث مرات، مرة في ص١٥٩ على أنه وادٍ لبني سُليم. ومرة أخرى في ص١٦٧. وقال ثعلب في شرحه للديوان: إنّ اللوى ما انقطع من الرمل. محقق ديوان زهير: إنّ اللوى: موضع في

ديار غطفان، ومرة ثالثة في ص٢٧٢، وقال شارح الديوان في تفسيره: واللوى: إذا خرجت من الرمل فقد وقعت في اللوى. كما ورد اللفظ ذاته في ديوان امرئ القيس مرتين، إحداهما في ص٨، وقال شارح الديوان: إنّ اللّوى ما انقطع من الرمل. والأخرى في ص٤٠٨، وقال المحقق إن اللِّوى: أرض. وانظر في اللوى معجم ما استعجم ٣/١٠٥٠، ٤/١١٦٥".

فهل مثل هذا الكلام ترتضيه قواعد التحقيق العلمي؟! وقد شرح المحقق الألفاظ بما يخالف مقاصد الشاعر ويُغاير معانيها المعجمية، ففي شرحه لفظان في بيتين للجرجاني هما:

وفي الناس أتباع القوافي تراهُمُ يبثّون أثارهنّ المقانبا
وأعْضلُها حتى إذا جاء كفؤها سمحتُ بها مستشرفات كواعبا

قال (حويزي): المقانب: الذئاب الضارية.

أعضُلُها: أي أوقع الشعر على القوافي تعسّفاً!!

وما قاله وَهْمٌ؛ فالمقانب: ومفردها مِقْنَب. والمقنب من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين، أي أنّ الناس يطاردون هذه الأشعار النادرة بخيولهم محاولين اقتناصها. وأمّا أعضُلُها: فالعَضْلُ لغةً، منعُ زواج المرأة لغير الكفء. والمراد منها: أنه يمنع أن تُهدى أشعاره لغير الأكفاء.

وفي موضع آخر وقد ذكر الجرجاني مدينة بغداد متشوّقاً إليها:

فعلى الكرخِ فالقطيعةِ فالشَّطْ طِ فَبابِ الشعيرِ منّي السلامُ

قال المحقق: "الكرخ: اسم لمواضع عديدة في العراق، ومنها كرخ البصرة وكرخ جُدّان. والشطّ: شطّ عثمان: موضع بالبصرة كانت سباخاً ومواتاً، فأحياها عثمان بن أبي العاص الثقفي. معجم البلدان ٣/٣٤٤".

وهو شرح يثير العجب!! فالشاعر يتشوّق إلى كرخ بغداد التي خلّدها ابن زريق بقوله:

استودعُ الله في بغداد لي قمراً في الكرخ من فَلَكِ الأزرار مطلعُهُ

فإذا بالمحقق يحدّثنا عن كرخ البصرة وكرخ جدّان، هذه واحدة.

والشطّ عند أهل بغداد هو شاطئ نهر دجلة، ويستخدمون لفظة الشطّ للتعبير عن النهر عموماً. فما علاقة (شطّ عثمان) وهو موضع بالبصرة وليس ببغداد ببيت الشاعر هذا؟ وما علاقة سباخ البصرة وعثمان الثقفي بشعر الجرجاني؟

رابعاً: أخطاء في القراءة وتصحيفات وتحريفات

وبعد، فقد بذل الأستاذ المحقق جهداً في ملاحقة شعر الشاعر في مظانّ كثيرة، ومع أنّ أكثر من نصف الديوان جمعه من مصدر واحد هو "يتيمة الدهر" والنصوص فيها مضبوطةٌ بالشكل، ضبطها عالم جليل هو المرحوم محمد محيي الدين عبد الحميد، إلاّ أن نُصوصاً غيرها نقلها من مصادر أخرى غير مضبوطة بالشكل، أو غير محققة تحقيقاً علمياً مثل محاضرات الأدباء والمنتحل للثعالبي وسواهما، قد أوقعته في مزالق عدة، فمن ذلك:

١- ص ٧٦ من الديوان:

ما زال يُبعدني عنه وأُتبعُهُ ويستمرُّ على ظلمي وأعْتِبُهُ

الصّواب: وأَتْبعُهُ.

٢- إذاً لَجُذْتُ به طوعاً بينهم. ص٧٦.

الصّواب: لِبَيْنِهُمُ.

٣- ص٩٢: ولم أبكِ مربع العامرية باللّوى.

الصّواب: ولم أبْكِ رَبْعَ العامرية باللوى.

٤- ص٧٦:

ولكنني أبكي مُقامي ببلدة أُأَمَّل أن ألقى صديقاً ولا أرى

الصّواب: أُأَمِّلُ.

٥- ص٩٧:

وعِذابُ الميـاه يُسَلِّمُها الإلفُ لعُذْرانها إلى التغييرِ

والصّواب: وعذابُ المياهِ يُسْلِمُها الإلف (م) لعُذْرانها إلى التغييرِ.

٦- ص٩٨:

ومَنْ يقيك إذا نابَتْكَ نائبةٌ وقايةَ المرءِ عينه من العَوَرِ

الصّواب: عينيه.

٧- ص١٠٠:

لا تُنكرنْ مع عاينتَ لي حصراً فليس يسْكَرُ في أمثاله الحَصَرُ

الصّواب: مع ما.

الصّواب: يُشْكَرُ.

٨- ص١١١:

لعُدَّ صوباً واستزاد به رَفْعا

الصّواب: صواباً، وأظنّها من تطبيعات المطبعة.

٩- ولو خانَه فرعونُ آمناً طائعاً

صوابه: ولو خافه فرعونُ آمنَ طائعاً.

١٠- ص١١١:

نبذتُ إذاً ذمتي وفارقتُ ملَّتي

الصّواب: نبذتُ إذاً ديني وفارتُ ملّتي.

١١- ص١١١:

فلم جئتُ من بعدُ إلى بابهِ أسعى

الصّواب: فلم جئتُ من بُعْدٍ إلى بابه أسعى.

١٢- ص١١٢:

فـــلا زال مـــن ولاّه ينتظـــرُ المنـــى ولا زال مـــن عـــاداه يرتقـــبُ الفُجعـــا

الصّواب: من والاه... الفَجْعا.

١٣- ص١١٢:

ولا زالـــت الأيـــامُ تُهـــدَي بشـــارةً إليـه تُـري فـي قلـب حاسـده صَـدْعا

الصّواب: تُهْدِي.

١٤- ص١١٩:

ما بالُ عينيهِ وألحاظهُ.

الصّواب: وألحاظِهِ.

١٥- ص١٢١:

وماجـت الغَـدر حتـى ملـت ناحيـة مـن السـماء دَنَـتْ لـلأرض فاعتنقـا

الصّواب: حتى خِلْتَ ناحيةً.

١٦- ولازم الأفـقَ حتـى كـاد أكثرنـا ينسـى الكواكـبَ أو لا ينبـتُ الفَلقـا

الصّواب: لا يثبتُ.

١٧- مـا زال يُوضـع وجـهُ الأرضِ دِرَّتُـهُ حتـى ظننـتُ الرُّبـى مغتصَّـة شَـرِقاً

الصّواب: تُرضعُ وَجْهَ.

١٨- ص١٢٢:

وإنّـــي لأســـتحي مـــن الله أن أُرى مجـال اتّسـاعٍ والصـديق مضـيقُ

الصّواب: بحال اتّساعٍ.

١٩- ص١٢٧:

مُسْتَرْضـعٌ بِثُـديّ المجـد مُفْتَـرشُ ٌ حِجْـرَ المكـارم مفطـومٌ عـن البَخَـلِ

الصّواب: مُفْتَرِشُ ٌ... البُخْلِ.

٢٠- ص١٢٨:

بحيث استرقَّ الدِّعْصُ وانبسط النَّقيّ

الصّواب: النَّقا.

٢١- ص١٢٩:

وقالت الأُخرى: ما لمُستَهْتَرٍ

الصّواب: ما لمستَهْتِرٍ.

٢٢- ص١٢٩:

وحَوصَتْ أعينُ الوشاة كما

الصّواب: وحُوِّصَتْ.

٢٣- ص١٢٩:

فذاك مُغْفٍ وذاك مُخْتَلَط

الصّواب: مُخْتَلِطٌ.

٢٤- ص١٢٩:

أيقن أنّ الوشاةَ قد غَفَلُوا

الصّواب: قد غَفِلوا.

٢٥- ص١٣٠:

لخلتنـــا ثمَّـــة شَـــعْبَتَيْ غُصُـــنٍ يـــومَ صـــباً نلتـــوي ونعتـــدلُ

الصّواب: ثمَّ شُعْبَتَيْ.

٢٦- ص١٣١:

ومـــا فـــرَّع الأقـــوامُ فـــي المجـــد فبـــاهوا بـــه إلاّ وأنـــتَ لـــه أصْـــلُ

الصّواب: فَرَعَ الأقوام في المجد [واحدٌ].

إذ الشطر الأول تنقصه كلمة ولم يلتفت المحقق إلى ذلك.

٢٧- ص١٣٦:

وشكرٌ كأنّ الشمس تُعْني بنشرِهِ

الصّواب: تُعْنَى.

٢٨- ص١٣٦:

يبثـــان عَـــرْفَ العُـــرْفِ حتـــى كأنّمـــا تـــروقُ فـــي يـــوم الشـــمالِ شـــمولُ

الصّواب: تُرَوَّقُ.

٢٩- ص١٤٤:

وحُسن الصبرِ عنك من الآثام

الصّواب: من الأثامِ.

٣٠- ص١٤٤:

أبــي فَضْــلُهُ أن أغتــدي غيــر شــاكرٍ لأنْعُمِــهِ أو يفتــدي غيــر مُــنْعمِ

الصّواب: أبى.

٣١- ص١٤٨:

يلوحُ عليها باسمك الفرد مَيْسَمُ

الصّواب: مِيسَمُ.

٣٢- ص١٤٩

نَقَّط بالوَرْدِ خَدَّ مُلْتَثَمه

الصّواب: مُلْتَثِمِهْ.

٣٣- ص١٥٠:

رُبَّ ذنــبٍ ينمــي علــى العُــذْر حتّــى يبصــرُ الاحتيــاج عنــه يَشــينُه

الصّواب: الاحتجاج.

٣٤- ص١٥٣:

قال المحقق: ورد البيتين في التذكرة السعدية.

الصّواب: وَرَدَ البيتان.

ونكتفي بهذا القدر من تصويب الأخطاء خشية الإطالة والإملال.

بائيّة الجرجاني

كان عصر الجرجاني، عصر شيوع ألوان البديع أو ما نسمّيه بالمحسّنات البديعية. فالزخارف البديعية من طباق وجناس واقتباس ومقابلة وتضمين وحسن تقسيم ومراعاة نظير وغير ذلك من أنواع المحسنّات البديعية، تمثّل أبرز الظواهر التي غلبت على أشعار شعراء القرن الرابع الهجري شكلاً ومضموناً. لقد انعكس تأنّقهم الحضاري في حيواتهم وأنماط عيشهم على شعر شعراء عصرهم.

والجرجاني خَلَّف لنا قصيدة بائية تغصّ بالجناس بشكل لافت للنظر. هذه القصيدة النادرة حفظها لنا مصدر واحد هو كتاب "لُمَح الملح" للأديب أبي المعالي سعد الحَظيري. والحَظيري من كبار أدباء ومُصَنّفي عصره، أفرد له العماد الكاتب ترجمة موسّعة في خريدته، ونسبتُه هذه إلى "الحَظِيرة" وهي منطقة زراعية ما تزال حتى اليوم تُعرف بهذا الاسم، تقع قرب الدجيل وبلد. وله مصنفات عديدة وصلنا منها كتابه "لُمح المُلح" وكتابه "الإعجاز في الأحاجي والألغاز" وكلاهما مخطوط حتى اليوم. كما وصلتنا مخطوطة كتابه "زينة الدهر" وهي ذيل لليتيمة. لقد كنت جمعت مخطوطات "لُمح الملح" التي ذكرها بروكلمان من شتى مكتبات العالم، وكنت اختلس الأوقات لأنجز تحقيق هذا الكتاب البالغ الأهمية في ميدانه، حتى أُتيح لي قبل خمسة أعوام دفعه إلى بعض المطابع العربية خارج العراق، لكنّ ظروفنا السياسية والأمنيّة في العراق حالت دون ملاحقتي مراحل طبعه حتى اليوم. المهم في الأمر، أنني فوجئت بما ذكره الأستاذ المحقق الدكتور عبد الرازق حويزي من أنه وقف على مخطوطة هذا الكتاب المرقمة ٦٩٩ أدب بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة.

وأنه قرأ قصيدة الجرجاني البائية وشكّ في نسبتها إليه، وأنه ظنّ أنها لشاعر متأخر عنه قليلاً!! وبعد أن أثبت نصَّ القصيدة، وقد شاع في قراءته وما نشره التصحيف والتحريف وما لا يفهم، قال في هامش ص٧٨ من الديوان ما نصّه: "هذا وقد تَصَرَّفْتُ في كثير من كلمات هذه القصيدة، وتَدَخَّلْتُ للتعديل في بعض أبياتها لإقامة وزنها، وإصلاح أسلوبها، وعلى الرغم من ذلك ما زال الأسلوب قلقاً، والمعنى غامضاً في بعض الأبيات". انتهى الهامش.

ولأن مصورات مخطوطات (لُمح المُلح) في حوزتي، فقد عجبت لهذا الكلام المغاير للواقع تماماً، ورأيتُ دَحْضاً له أن أرفق بمقالتي هذه مصورات هذه القصيدة المحفوظة في مكتبة أحمد الثالث بالأستانة، ومكتبة الإسكوريال بإسبانيا ومكتبة بودليانا باوكسفورد في إنكلترا لتوثيق ما ذكرتُه.

وأنه من المحزن أنّ محقق الديوان قد أخطأ ستة عشر خطأً في قراءة قصيدة عدَّةُ أبياتها أربعة عشر بيتاً. وسأثبت في أدناه جدولاً بهذه الأغلاط:

الخطأ	رقم البيت	الصّواب
من	١	عن
أُرزتي به	١	أربى به
شكَر	٢	سكر
وُرِّيتُ	٤	وَرَّيْتُ
الحبيب	٦	في الحبِّ

رقم البيت ٩:

وجَــوى بــه قلــبٌ تضــاعَفَ حُبُّــه وبِــــرَدِّ جـــوّاه لـــــردِّ جوابـــــهِ

صوابه: [فيه] وبَرْدُ جَواه رَدُّ جوابِهِ.

الخطأ	رقم البيت	الصّواب
طلابه	١١	طُلاّبهِ
دماء	١١	دما
طُلابَه	١١	طُلاّبهِ
صَبْرٌ	١٢	صَبْراً
مَرير	١٢	أَمَرَّ
بين	١٢	البَيْنُ
أزوي به	١٤	أروي به
أزدي به	١٤	أُروى به

وعجبت كذلك لقول المحقق في الهامش الذي ذكرنا نصه: "أنه تدخّل في بعض أبياتها لإقامة وزنها". فجميع أبيات القصيدة موزونة، باستثناء بيت واحد سقطت منه كلمة واحدة في صدر عجزه وهو البيت التاسع، وقد استَضَفْناها من مخطوطتي الإسكوريال وبودليانا.

لقد كان على الدكتور (حويزي) أن يبحث عن نسخ أخرى من مخطوطة "لمُح المُلَح" للحظيري بغية الظفر بنسخة سليمة من الأخطاء من هذه القصيدة، ولم يكن الأمرُ بعسيرٍ عليه، فمن الكتاب نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية ذكرها بروكلمان برقم (القاهرة ثان ٢١٦/٢، ٣١٩/٣)، وفي معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة مصوّرة مخطوطة تركيّة نفيسة من الكتاب ذاته. لكنه آثر تجنّب العناء ومُجانفة الأسلوب العلمي في ملاحقة المصدر المخطوط، فكانت النقطة التي ذكرناها وفصَّلْنا القول فيها.

فالحمد لله الذي هدانا، وما كُنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

[نصّ البائية مصورة من ديوان الجرجاني بتحقيق د. حويزي]

وقال- وأشكّ في نسبتها إليه، وأظن أنها لشاعر متأخر عنه قليلاً-:

[الكامل]

١- وأَغَـنَّ (مـن) أرْبَابِـه (أُرْزِيَ بِـهِ) قلبـي إلـى أَوْصَـابه أَوْصَـى بـه
٢- ذي شـافعٍ يـوم النَّـوى أضـحى بـه سَـكْرُ الهَـوَى العُـذْرِيِّ مـن أصـحَابه
٣- أسْـلى بـه عـن كـلِّ مَـنْ أحْبَبْتُـه وأَظـلُّ دون الخلـقِ مـن أَسْـلابِهِ
٤- ويُغيرُنـي فـي الحُـبِّ مـا ألْقـى بِـهِ فـأَوَدُّ لـو وُرِّيْـتُ عـن أَلقابـه
٥- كـم مَنْـزِلٍ بـالأَبْرَقَيْن ثَـوى بِـهِ لـم يَقْـضِ فيـه الصَّـبُّ حـقَّ ثَوابـهِ
٦- أَتُـرى بـه (الحبيـب) نخـوة قـادرٍ فَيَسُـومني للعـزِّ لـثمَ تُرابـه
٧- (فرحـا) بـه الطلـلان حـين رآهمـا مـا بـين رَملَـةِ عـالج فرحابـه
٨- ووَشـى بـه (خَـطٌّ) العـذارِ بخـدِّه مـالا أعـارت لحظـة فوشَـى بـه
٩- وَجَـوَى بـه قلـبٌ تَضـاعَفَ حُبُّـه (وبِـرَدِّ جـوَّاه لـرد) جوابـه
١٠- إن كنـتَ تطمـعُ فـي هـواه فغابـه فالليـثُ لا يُسْـطى عليـه بغابـه
١١- بَصَرِي وسمعي في الهوى طلابه عَبَثـاً كمـا طلـتْ دمـاء طُلابَـه
١٢- وشَـرى بـه قلبـي غَـداةَ فِرَاقـه (صَـبْرٌ مريـر بَـيْنَ كـأسِ شَـرَابِهِ)
١٣- وجنـى بـه ثَمَـرَ الصَّـبَابة يانعـاً صـب ألـم بـداره وَجَنابِـهِ
١٤- ومـن العجائـبِ مَنْـزِلٌ أَزْوي بـه وأذوبُ مـن ظمـأ فـلا أَزوي بِـهِ

الشرح: الأوصاب: الأوجاع، والأسلاب، ما يُسلب، وُرِّيت: كُنِّيت، والأبرقان: "تثنية الأبرق... وإذا جاءوا بالأَبْرَقَيْن في شعرهم هكذا مثنى، فأكثر ما يريدون أبرقي حجر اليمامة، وهو منزل على طريق مكة من البصرة بعد رميلة اللِّوى للقاصد مكة، ومنها إلى فَلْجة... وقال الزمخشري: الأبرقان: ماء لبني جعفر". معجم البلدان (الأبرقان) ٦٦/١، فيسومني: يذيقني، طُلَّتْ: أُهْدِرَتْ.

هذا وقد تصرّفت في كثير من كلمات هذه القصيدة، وتدخّلت للتعديل في بعض أبياتها لإقامة وزنها، وإصلاح أسلوبها، وعلى الرغم من ذلك ما زال الأسلوب قلقاً، والمعنى غامضاً في بعض الأبيات.

المصادر والمراجع

١- أحاسن المحاسن، الثعالبي - مصورة مخطوط في خزانة الباحث هلال ناجي.

٢- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني- حققه هلموت ريتر.

٣- تحقيق التراث العربي، د. عبد المجيد دياب.

٤- تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث، د. الصادق الغرياني.

٥- تحقيق النصوص بين المنهج والاجتهاد، د. حسام النعيمي.

٦- تحقيق النصوص ونشرها، عبد السلام محمد هارون.

٧- التذكرة السعدية في الأشعار العربية، محمد بن عبد الرحمن العبيدي، حققه د. عبد الله الجبوري - دار الكتب العلمية- ٢٠٠١م.

٨- التطبيق العملي لمنهج البحث الأدبي وتحقيق النص، د. رشيد عبد الرحمن العبيدي.

٩- التمثيل والمحاضرة، الثعالبي، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو.

١٠- شعر القاضي الجرجاني، جمع وتحقيق د. سامي علي جبار- مجلة المورد- العدد الثالث - المجلد ٢٨- بغداد ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠م- بغداد.

١١- ديوان القاضي الجرجاني علي بن عبد العزيز، جمع وتحقيق سميح إبراهيم صالح- دار البشائر- دمشق ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

١٢- الدر الفريد وبيت القصيد، ايدمر- مطبوعات سزكين.

١٣- زاد سفر الملوك، الثعالبي، مخطوطة فريدة في الدنيا- محققة قيد الطبع- تحقيق هلال ناجي.

١٤- قواعد تحقيق المخطوطات، صلاح الدين المنجد- بيروت.

١٥- محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني، بيروت.

١٦- ميمية القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، حققها الأستاذ إبراهيم صالح مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق-ج٤- المجلد ٧٩- ٢٠٠٤م = ١٤٢٥هـ.
١٧- معجم الأدباء، ياقوت - نشره أحمد الرفاعي، القاهرة.
١٨- المنتحل، الثعالبي، حققه أحمد أبو علي، الإسكندرية.
١٩- المنتحل، الميكالي، حققه يحيى وهيب الجبوري، بيروت.
٢٠- من غاب عنه المطرب، الثعالبي، حققه يونس السامرائي، بيروت.
٢١- منهج البحث وتحقيق النصوص، يحيى الجبوري، بيروت.
٢٢- منهج تحقيق النصوص ونشرها، سامي العاني وفوزي القيسي- بغداد.
٢٣- يتيمة الدهر، الثعالبي، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد - مصر.

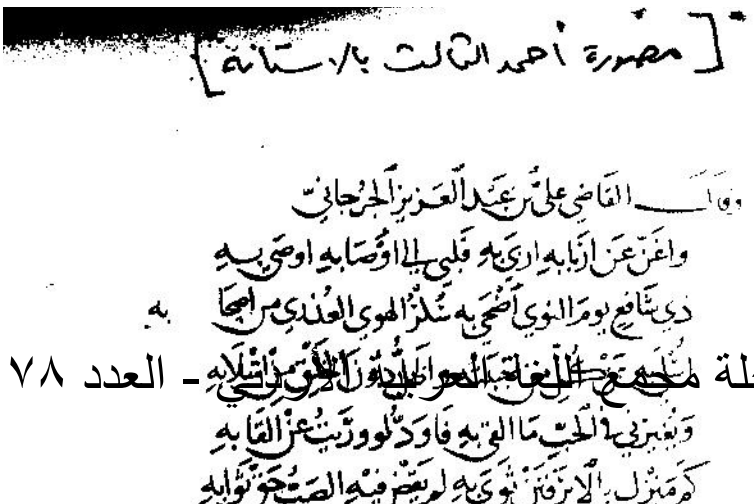

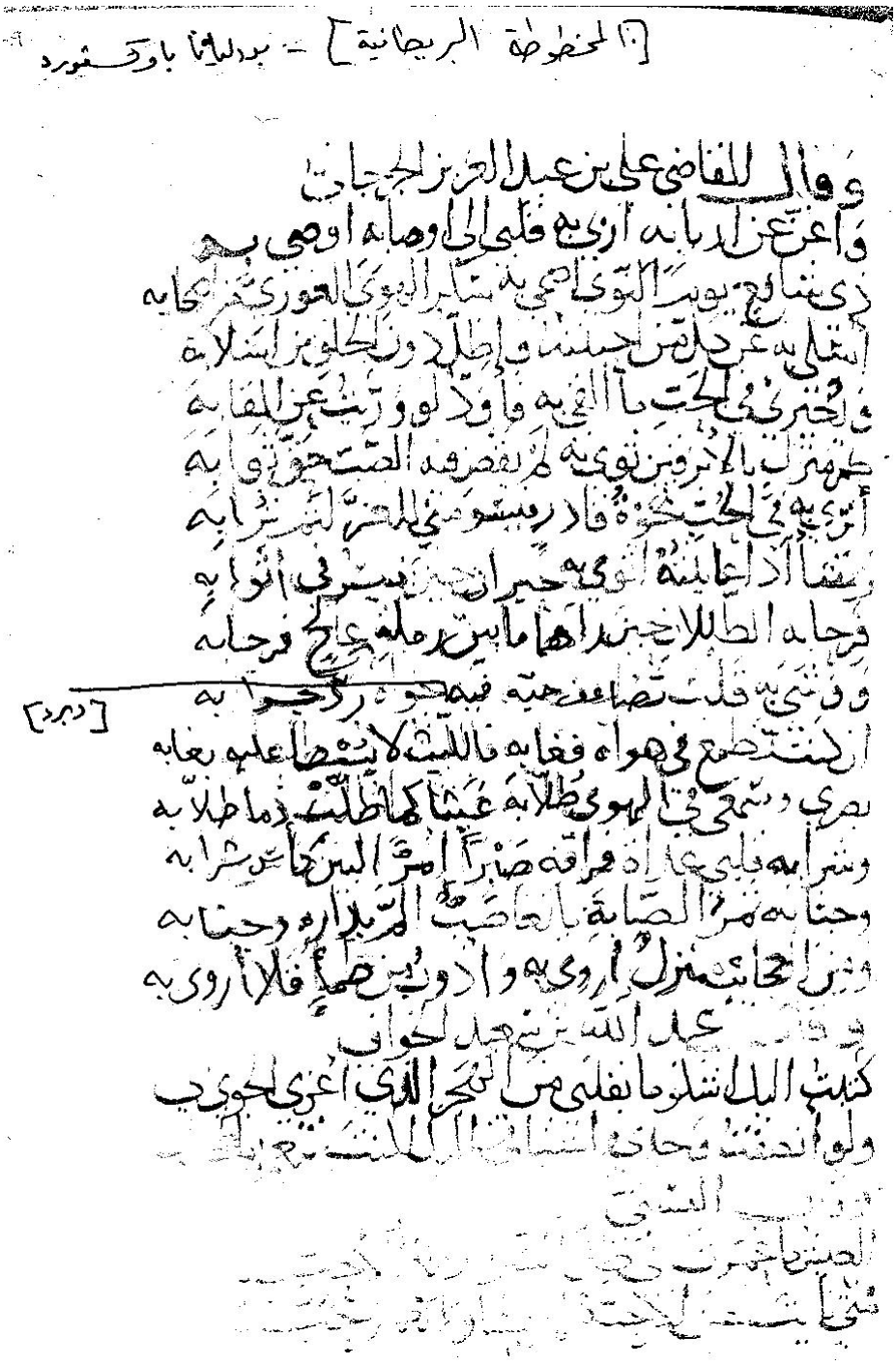

رابعاً: أخبار مجمعية

المؤتمرات والندوات والمحاضرات

انطلاقاً من حرص مجمع اللغة العربية الأردني على المشاركة الفاعلة في المؤتمرات والندوات العلمية والأدبية التي تُعقد في داخل الأردن وخارجه، فقد شارك الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس المجمع في الاجتماع الدوري لمجلس اتحاد المجامع الذي عُقد بمقر الاتحاد المؤقت بالقاهرة في الفترة من ٢١-٢٣ ربيع الثاني ١٤٣١هـ، الموافق ٦-٨ نيسان ٢٠١٠م.

حيث قدّم الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة بحثاً عنوانه "من مزالق لغة الإعلام العربي"، توقّف فيه عند كلمة "مُسْتَعْمَرة" وإحلال كلمة "مُسْتَوْطَنة" مكانها في وسائل الإعلام العربية، وقال: إن بعض الكتّاب العرب وواضعي "المعاجم" العربية، لجأوا إلى نقل لفظة عربية أصيلة "اسْتَعْمَرَ" من معناها اللغوي إلى التعبير عن معنىً اصطلاحيٍ جديد، ليقابل الكلمة الفرنسية Coloniser" ومشتقاتها، فقالوا: "تَسْتَعْمِرُ، اسْتعماراً، ومُسْتَعْمِراً، ومُسْتَعْمَراً، ومُسْتَعْمَرون، ومُعَمِّرُون، ومستَعْمَرَة... الخ.

وأشار إلى ازدياد ذيوع استعمال مصطلح "مُسْتَوْطَنَة" بدلاً من مصطلح "مُسْتَعْمَرَة"، ومصطلح "الاسْتِيطَان" بدلاً من مصطلح "الاسْتِعْمار" متمشّياً مع وتيرة تقهقر قوى المقاومة العربية والفلسطينية بخاصة، وانشغالها بحروب مصطنعة. وما لبث الحال في السنوات العشر الماضية أن اختفى تماماً استعمال مُصطلحات "مستعمرات صهيونية" و"مُسْتَعْمِرين صهاينة" و"استعمار صهيوني" من لغة الإعلام العربي، وحلَّ محلَّها مصطلحات "مُسْتَوْطَنة" و"مُسْتَوْطنات" واسْتيطان.

وختم بالقول إنه ظهر منذ عدّة عقود مصطلح سياسي اجتماعي، دخل الاستعمال في دوائر رسمية معينة، (وَطّن يُوَطِّن تَوْطِيناً)، ليُعبّر عن مفاهيم واتجاهات سياسية معينة مثل: "سياسة التَّوْطِين" و"تَوْطِين اللاجئين الفلسطينيين"،

وهذا مصطلح يحمل في جوانبه اللغوية العربية ظلالاً وإيحاءات سياسية معينة، إذ لا يعني السكن والإقامة فقط، بل يحمل أهدافاً سياسية وخَلْق مفاهيم واتجاهات وانتماءات وهويَّاتٍ جديدة.

صدور كتاب الموسم الثقافي السابع والعشرين لمجمع اللغة العربية الأردني

أصدر مجمع اللغة العربية الأردني كتاب موسمه الثقافي السابع والعشرين لعام٢٠٠٩م، واشتمل على البحوث التي ألقيت في هذا الموسم الذي حمل اسم "مؤتمر اللغة العربية في المؤسسات الأردنية، واقعها وسبل النهوض بها"، وكان المجمع عقده في المدة من (٢٧ – ٢٩) تشرين الأول ٢٠٠٩م.

بدأ الكتاب بكلمة الافتتاح التي ألقاها الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة، رئيس المجمع وتحدّث فيها عن نشأة المجمع وأهدافه وإنجازاته، ومواسمه الثقافية وتجربة المجمع في تأليف كتب المرحلة الأساسية للغة العربية في بداية التسعينيات، وتجربته في تعريب العلوم الأساسية والطبية.

يتضمن الكتاب محاور المؤتمر الأربعة؛ المحور الأول "الترجمة والتعريب وأهميتهما في التنمية اللغوية والحضارية للمجتمع الأردني" واشتمل على ثلاثة بحوث هي: "الترجمة طريق إلى المستقبل" للدكتور محمد عصفور، و"اجتياز امتحان الكفاءة باللغة العربية شرط للتعيين في المؤسسات العامة والخاصة" للدكتور عبدالله زيد الكيلاني، و"دور التخطيط اللغوي في خدمة اللغة العربية والنهوض بها" للدكتور فواز عبد الحق.

المحور الثاني تناول موضوع "اللغة العربية في التعليم العام، واقعها وسبل النهوض بها"، وتضمن ثلاثة بحوث، هي: "من مهارات الاتصال إلى جماليات الأدب، دراسة في النصوص الأدبية للمرحلة الثانوية في

المناهج الأردنية" للدكتور محمد بلال الجيوسي، و"معلم اللغة العربية في التعليم العام، الواقع وسبل النهوض بأدائه التربوي" للدكتور عودة أبو عودة، و"أساليب تعليم اللغة العربية ووسائلها في التعليم العام" للدكتور أمين الكخن، و"المستوى اللغوي في تعليم مناهج المواد العلمية في التعليم العام، واقعه وسبل النهوض به، منهاج الفيزياء للصف العاشر، نموذجاً" للدكتور منير شطناوي، و"برامج تأهيل معلمي اللغة العربية في الجامعات الأردنية، واقعها وسبل النهوض بها" للدكتورة خلود العموش، و"تدريس اللغات الأجنبية في التعليم العام، وأثره في تعليم اللغة العربية"، للدكتور عبدالله عويدات.

المحور الثالث تناول موضوع "اللغة العربية في التعليم الجامعي في الجامعات الأردنية، واقعها وسبل النهوض بها". وتضمن ستة بحوث، هي: "تعريب التعليم الجامعي، الجامعة الأردنية نموذجاً" للدكتور حميد الحاج، و"خطط اللغة العربية في الجامعات الأردنية، الواقع وآفاق التطور" للدكتور عبد الحميد الأقطش، و"اللغة العربية متطلب جامعي في الجامعات الأردنية، واقعها وسبل النهوض بها" للدكتور زياد الزعبي، و"الرسائل الجامعية بين الواقع والمأمول، قسم اللغة العربية في جامعة اليرموك، نموذجاً" للدكتور فوزي الشايب، "اللغة العربية في كليات الحقوق الأردنية، واقعها وسبل النهوض بها" للدكتور كامل السعيد، "اللسانيات الحديثة في الجامعات الأردنية، وأثرها في تنمية اللغة العربية ومعالجة قضاياها، الواقع وسبل النهوض" للدكتور سمير استيتية.

المحور الرابع والأخير عالج موضوع "اللغة العربية في المؤسسات الإعلامية والرسمية، واقعها وسبل النهوض بها" وتضمن أربعة بحوث هي:

"اللغة العربية في الشبكة العنكبوتية العالمية في المؤسسات الأردنية، واقعها وسبل النهوض بها" للدكتور رائد عكاشة، و"اللغة العربية في برامج الأطفال في مؤسسات الإعلام الأردنية، واقعها وسبل النهوض بها" للدكتور ناصر شبانة، و"اللغة العربية في الصحف اليومية والأسبوعية في الأردن، واقعها وسبل النهوض بها" للأستاذ الدكتور خالد جبر من جامعة البترا. و"اللغة العربية في الدواوين والمخاطبات والمراسلات في المؤسسات العامة والخاصة، واقعها وسبل النهوض بها" للدكتور سمير الدروبي.

واختتم الكتاب بالتقرير الختامي والتوصيات الصادرة عن المؤتمر، وقد حرص المجمع في هذا الكتاب على توثيق المناقشات والتعقيبات التي تلت كل بحث.

المجمع يتلقّى رسالة تهنئة من الديوان الملكي الهاشمي
على نجاح موسمه الثقافي السابع والعشرين

تلقّى المجمع رسالة من رئيس الديوان الملكي الهاشمي، معالي السيد ناصر اللوزي، عبّر فيها عن تقديره إهداء جلالة الملك عبدالله الثاني ابن الحسين المعظم نسخة من إصدارات المجمع، كما هنأ فيها المجمع على نجاح موسمه الثقافي السابع والعشرين، وفيما يأتي نص الرسالة:

سعادة الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة المحترم
رئيس مجمع اللغة العربية الأردني

تحية طيبة وبعد،،

فيسرني أن أعبّر لكم عن فائق الشكر وعميق التقدير على إهدائكم لمولاي صاحب الجلالة الهاشمية الملك عبدالله الثاني ابن الحسين المعظم (حفظه الله) نسخة من إصدارات مجمع اللغة العربية الأردني، المتضمنة دراسات علمية وتربوية تعد مرجعاً لمن يتصدّى لدراسة واقع اللغة العربية، وسبل النهوض بها في مجالات الحياة المختلفة.

كما وأهنئكم على نجاح موسمكم الثقافي السابع والعشرين الذي كان قد انعقد في نهاية العام الماضي على صورة مؤتمر بعنوان "اللغة العربية في المؤسسات الأردنية، واقعها وسبل النهوض بها"، الذي ينسجم مع تطلع الدولة في الأردن للنهوض باللغة العربية والتوجه نحو مجتمع المعرفة.

أبارك لكم هذا الجهد الطيب، وأتمنى أن يستمر عطاؤكم، داعياً لكم بدوام التوفيق والنجاح.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير،،،

رئيس الديوان الملكي الهاشمي

ناصر اللوزي

المجمع يتلقّى رسالة تهنئة من وزير التعليم العالي، وزير الدولة للبحث العلمي في جمهورية مصر العربية

على نجاح موسمه الثقافي السابع والعشرين

تلقّى المجمع رسالة من وزير التعليم العالي، وزير الدولة للبحث العلمي في جمهورية مصر العربية، معالي الأستاذ الدكتور هاني هلال، أشاد فيها بمؤتمر "اللغة

العربية في المؤسسات الأردنية، واقعها وسبل النهوض بها"، كما شكر فيها المجمع على تلقيه نسخة من كتاب الموسم الثقافي السابع والعشرين، وفيما يأتي نص الرسالة:

سعادة الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة المحترم

رئيس مجمع اللغة العربية الأردني

تحية طيبة وبعد،،

فقد طالعت بمزيد من الشكر والتقدير رسالة سيادتكم العطرة بشأن مجمعكم الموقر بعنوان "اللغة العربية في المؤسسات الأردنية، واقعها وسبل النهوض بها" الذي عقد خلال تشرين الأول ٢٠٠٩، وصدر عنه دراسات علمية وتربوية تعد مرجعاً لمن يتصدّى لدراسة واقع اللغة العربية وسبل النهوض بها في مجالات التعليم العام والجامعي.

إذ أشكر لسيادتكم إهداءكم نسخة من الكتاب الصادر عن هذا المؤتمر، لأتمنى لسيادتكم دوام التوفيق والسداد، ولمجمعكم الموقر كل تقدم وازدهار ونجاح في تحقيق الأهداف المرجوة منه.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام،،،

وزير التعليم العالي

ووزير الدولة للبحث العلمي

الدكتور هاني هلال

المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

يشيد بكتاب الموسم الثقافي السابع والعشرين

تلقّى رئيس المجمع الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة رسالة من رئيس المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة د. عبد العزيز بن عثمان

التـويجري يشـيد فيهـا بكتـاب الموسـم الثقـافي السـابع والعشـرين، وفيمـا يـأتي نص الرسالة:

سعادة الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة المحترم

رئيس مجمع اللغة العربية الأردني

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،،

فيسـعدني أن أشـكركم جزيـل الشـكر، علـى إهـدائكم لـي نسـخة مـن كتـاب (الموسـم الثقـافي السـابع والعشـرون لمجمـع اللغـة العربيـة الأردنـي: مـؤتمر اللغـة العربيـة فـي المؤسسـات الأردنيـة)، مقـدراً بـالغ التقـدير، جهـودكم الحثيثـة فـي خدمـة لغـة القـرآن الكـريم، ومشـيداً بالمـادة العلميـة التـي يحتـوي عليهـا هـذا الكتـاب الـذي نظـرت فيـه، فوجدتـه حـافلاً بـالبحوث والدراسـات المعمقة.

متمنيـاً لكـم كامـل التوفيـق ومزيـداً مـن النجـاح فـي أعمـالكم، وموفـور الصحة والعافية.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام وبالغ التقدير،،،

المدير العام

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

تشكيل اللجنة الوطنية الأردنية للنهوض باللغة العربية نحو مجتمع المعرفة

بناءً على كتاب معالي وزير التربية والتعليم رئيس اللجنة الوطنية الأردنية للتربيـة والثقافـة والعلـوم رقـم ٦٠٤٠٧/١/١/٤٨ تاريـخ ١٤٣٠/١١/٢٧هـ الموافق٢٠٠٩/١١/١٥م، بشأن مشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفـة الـذي أقرّتـه القمـة العربيـة فـي دمشـق عـام ٢٠٠٨م وفـي الدوحـة عـام

٢٠٠٩م، وتشكيل لجنة وطنية أردنية تتولى مهام تنفيذ هذا المشروع برئاسة الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة، رئيس المجمع.

درس مجلس مجمع اللغة العربية الأردني المشروع من جميع جوانبه في جلسته بتاريخ ١٤٣٠/١٢/١٩هـ، الموافق ٢٠٠٩/١٢/٦ وبتاريخ ١٤٣٠/١٢/٢٦هـ، الموافق ٢٠٠٩/١٢/١٣م، ووافق بقراره رقم (٢٢٠٠٩٧) على أن ينسب لمعالي وزير التربية والتعليم رئيس اللجنة الوطنية الأردنية للتربية والثقافة والعلوم بتشكيل "اللجنة الوطنية الأردنية للنهوض باللغة العربية نحو مجتمع المعرفة" لاستصدار قرار من مجلس الوزراء، على النحو الآتي:

المادة (١) تشكيل لجنة وطنية أردنية برئاسة رئيس مجمع اللغة العربية الأردني الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة، وعضوية الأساتذة:

الدكتور إسحق أحمد فرحان

الدكتور عبد اللطيف عربيات

الدكتور كامل العجلوني

الدكتور محمد عدنان البخيت

الدكتور خالد الكركي

الأستاذ فاروق زيد الكيلاني

الدكتور نوح علي سلمان القضاة

الدكتور همام غصيب

مندوب عن وزارة التربية والتعليم

أمين سر اللجنة الوطنية الأردنية للتربية والثقافة والعلوم

المادة (٢) يكون مقر اللجنة مجمع اللغة العربية الأردني.

المادة (٣) تحدد مدة عمل اللجنة بعامين قابلين للتجديد.

المادة (٤) تكون مهمة اللجنة: دراسة مشروع "النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة" الذي أقرّته القمة العربية في دمشق سنة ٢٠٠٨م، وفي الدوحة سنة ٢٠٠٩م، ووضع آليات تنفيذه، واقتراح خطط العمل اللازمة لذلك وتحديد أولوياتها.

المادة (٥) تجتمع اللجنة دورياً، حسب مقتضيات العمل وترفع تقارير ربع سنوية عن تقدم عملها إلى دولة رئيس الوزراء.

المادة (٦) تستعين اللجنة بمن تسميهم الوزارات المعنية، وبمن تراه مناسباً من الخبراء والمؤسسات والمنظمات المتخصصة، ولها أن تشكّل بقرار من رئيسها لجاناً فرعية من أعضائها وغيرهم للقيام بمهام محدَّدة.

المادة (٧) تصرف النفقات الناجمة عن هذا القرار، ومنها تعويضات اللجان من موازنة رئاسة الوزراء.

المادة (٨) يبلغ هذا القرار من يلزم لتنفيذه.

تشكيل لجنة وضع تصور شامل لوضع اللغة العربية

في التعليم العالي والتعليم العام

ألّف مجلس المجمع بقراره رقم (١٢٠٠٩٦) تاريخ ١٤٣٠/٥/٨هـ، الموافق ٢٠٠٩/٥/٣م لجنة لوضع مسودة مذكرة تتضمن تصوراً شاملاً لوضع اللغة العربية في التعليم العالي وأخرى في التعليم العام، وما تواجهه من سلبيات تؤثر على تعلمها في جامعاتنا العامة والخاصة وفي مرحلة التعليم العام؛ ليصار إلى رفعهما إلى مجلس المجمع لمناقشتهما وإقرارهما قبل إرسالهما إلى معالي وزير التعليم العالي ووزير التربية والتعليم. وتألفت اللجنة من الأساتذة:

الدكتور إسحق أحمد فرحان، مقرراً

الدكتور سعيد التل

الدكتور عبد اللطيف عربيات

الدكتور عبد الجليل عبد المهدي

الدكتور عبد الحميد الفلاح

الدكتور يوسف بكار

تسجيل مجلة مجمع اللغة العربية الأردني في دليل الدوريات العالمي

سجّل دليل الدوريات العالمي (أولريتش ويب ULRICHWEB) مجلة مجمع اللغة العربية الأردني في قاعدة بياناته المخصصة للمجلات

والـدوريات العالميـة علـى شـبكة المعلومـات العالميـة (الإنترنـت)؛ ويعـد دليـل "أولـريتش ويـب" المصـدر المرجعـي الإلكترونـي الأول للـدوريات فـي العـالم بجميـع أنواعهـا، وتتضـمن: المنشـورات الأكاديميـة والمجـلات الشـهيرة والصحف والنشرات الإخبارية.

والـدليل يشـتمل علـى معلومـات لمـا يزيـد علـى ثلاثمئـة ألـف دوريـة مـن جميـع أنحـاء العـالم؛ فيقـدم وصـفاً ببليوغرافيـاً للـدوريات مـن حيـث نوعهـا وجهـة النشـر وسـنة الإصـدار واللغـة التـي كتبـت بهـا الدوريـة، كمـا يقـدم الـدليل الإرشـادات اللازمـة للـراغبين فـي الحصـول علـى الـدوريات مـن أي مكـان فـي العالم.

رسائل الدكتوراه والماجستير

حرصاً من المجمع على التَّعاون والتنسيق مع المؤسسات العلمية والأكاديمية، وعلى رأسها الجامعة الأردنية، فقد أُجريت في قاعة الندوات والمحاضرات في المجمع مناقشة الرسائل الآتية المقدَّمة إلى الجامعة الأردنية:

رسائل الدكتوراه في كلية الشريعة

- رسالة دكتوراه مقدَّمة من الطالب حذيفة شريف الشيخ صالح الخطيب، عنوانها "منهج الإمام مسلم في التعليل في الجامع الصحيح"، وتألّفت لجنة المناقشة من الدكتور محمد عيد الصاحب المشرف/ رئيساً، وعضوية: الدكتور أمين محمد القضاة والدكتور سلطان سند العكايلة والدكتور عبدالله مرحول السوالمة، وذلك يوم الخميس ١٤ محرم ١٤٣٠هـ، الموافق ٢٠٠٩/١٢/٣١م.

رسائل الماجستير في كلية الشريعة

- رسالة ماجستير مقدَّمة من الطالب طلاع مجزع العنزي، عنوانها "العزم في القرآن الكريم"، وتألّفت لجنة المناقشة من الدكتور جهاد محمد نصيرات المشرف/ رئيساً، وعضوية: الدكتور خازر المجالي والدكتور أحمد إسماعيل نوفل والدكتور أحمد سليمان العوض البشايرة، وذلك يوم الخميس ١٩ محرم ١٤٣١هـ، الموافق ٢٠١٠/١/٥م.
- رسالة ماجستير مقدَّمة من الطالب أحمد أيوب محمد الرواشدة، عنوانها "منهج الإمامين البغدادي والشهرستاني في دراسة الفِرق الإسلامية في

كتابيهما: (الفَرق بين الفِرق) و(الملل والنِّحل) دراسة مقارنة"، وتألّفت لجنة المناقشة من الدكتور راجح الكردي المشرف/ رئيساً، وعضوية: الأستاذ الدكتور محمد أحمد الخطيب والدكتور محمد "نبيل طاهر" العمري والدكتور بهجت الحباشنة، وذلك يوم الخميس ٧ جمادى الأولى ١٤٣١هـ، الموافق ٢٠١٠/٤/٢٢م.

- رسالة ماجستير مقدَّمة من الطالب فهد محمد فهد هارون، عنوانها "عقيدة التجسيم وموقف ابن تيمية منها"، وتألّفت لجنة المناقشة من الأستاذ الدكتور محمد أحمد الخطيب المشرف/ رئيساً، وعضوية: الدكتور راجح عبد الحميد كردي والدكتور عطاالله بخيت المعايطة والأستاذ الدكتور عزمي طه السيد، وذلك يوم الخميس ٢١ جمادى الأولى ١٤٣١هـ، الموافق ٢٠١٠/٥/٦م.

رسائل الدكتوراه في كلية الآداب – قسم اللغة العربية

- رسالة دكتوراه مقدَّمة من الطالبة رغدة علي محمد الزّبون، عنوانها "شعر الملوك والأمراء في الأندلس: دراسة في موضوعاته وأساليبه"، وتألّفت لجنة المناقشة من الأستاذ الدكتور صلاح جرار المشرف/ رئيساً، وعضوية: الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي والدكتور حمدي محمود منصور والأستاذ الدكتور يونس شنوان شديفات، وذلك يوم الثلاثاء ٢١ ربيع الثاني ١٤٣١هـ، الموافق ٢٠١٠/٤/٦م.
- رسالة دكتوراه مقدَّمة من الطالب أحمد زهير عبد الكريم الرحاحلة، عنوانها "القصيدة الطويلة في الشعر العربي المعاصر"، وتألّفت لجنة

المناقشة من الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين المشرف/ رئيساً، وعضوية: الأستاذ الدكتور شكري عزيز ماضي والأستاذ الدكتور علي الشرع والأستاذ الدكتور سامح الرواشدة، وذلك يوم الأحد ٢٦ ربيع الثاني ١٤٣١هـ، الموافق ٢٠١٠/٤/١١م.

- رسالة دكتوراه مقدَّمة من الطالب عاطف عبد المجيد أبو جاجة، عنوانها "اتساع الدلالة اللغوية في صحيح البخاري"، وتألّفت لجنة المناقشة من الدكتور محمود عبدالله الحديد المشرف/ رئيساً، وعضوية: الأستاذ الدكتور محمد حسن عواد والدكتور جعفر عبابنة والدكتور عودة أبو عودة، وذلك يوم الخميس ٢٨ جمادى الأولى ١٤٣١هـ، الموافق ٢٠١٠/٥/١٣م.